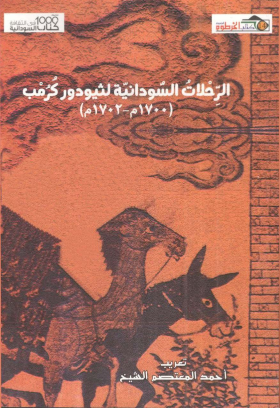


الرِّحْلاتُ السُّودانيّة لثيودور كُرُمْب

(١٧٠٠م-١٧٠٢م)

تعريب

أحمد المعتصم الشيخ

رحْلة ثيودور كُرُمْب للسُّودان
(١٧٠٠م-١٧٠٢م)

ترجمة لُمقتَطفات من كتاب المُبشِّر
الفَرنسِيسْكَاني ثِيُودُورْ كُرُمب

طبعة أوغستبرج- ألمانيا ١٧١٠ م

تعريب د.أحمد المعتصم الشيخ
مراجعة بروفيسور:أحمد عبد الرحيم
نصر



رحْلة ثيودور كُرُمْب للسُّودان
(١٧٠٠م-١٧٠٢م)


بسم الله الرحمن الرحيم


بسم الله الرحمن الرحيم
دفعاً لحركة الفكر والثقافة،
ورعاية للقيم السودانية،
واهتماماً بترسيخ المبادئ الوطنية،
تصدر هذه السلسلة
عن دار
هيئة الخرطوم للثقافة والنشر
ووزارة الثقافة والإعلام و السياحة
ولاية الخرطوم

كتاب الخطوة الجديدة رقم الايداع (2018/654)

فهرسة المكتبة الوطنية أثناء النشر - السودان

962.4. كرمب ،ثيودور

ك. ر

الرحلات السودانية لثيودور كرمب / ثيودور كرمب ؛ ترجمة أحمد المعتصم الشيخ

– الخرطوم: أ. م. الشيخ، 2018.

120 ص: ايض؛ 24سم

ردمك: 0-530-1-99942-978

- السودان – تاريخ –مملكة الفونج، 1700-1702
- أحمد المعتصم الشيخ (مترجم)، 1947.
- العنوان.

الناشر: هيئة الخرطوم للثقافة والنشر

السودان - الخرطوم - الرياض - شارع عبد الله الطيب - مربع (٢١) - منزل رقم (٣٠٣)

www newkhartoumsd com

مقدمة الناشر

يأتي مشروع طباعة (المائة كتاب) الذي أطلقته هيئة الخرطوم للثقافة والنشر من ضمن الأهداف الثقافية الكبرى التي تضطلع بها ولاية الخرطوم بإعتبارها الولاية القومية الممثلة لوسطية السودان الجغرافية والإجتماعية والثقافية إلى جانب مكانتها السياسية والإدارية التي حازتها منذ أنْ صارت عاصمة للبلاد في الربع الأول من القرن التاسع عشر الميلادي.

هدفت الهيئة بإطلاق هذا المشروع الثقافي الرائد إلى إبراز دور الولاية في خدمة قضية الثقافة بسد جزء من الفراغ الذي تعاني منه المكتبة السودانية، عن طريق رفدها بعناوين جديدة من الكتب واعادة طباعة أمهات المؤلفات السودانية لإنعاش الذاكرة الثقافية الوطنية فضلاً عن رعاية وتشجيع المبدعين الشباب على نشر أعمالهم الثقافية المتميزة.

ولكي تطمئن الهيئة على جودة وجدوى ما تطبع من الكتب، فقد أوكلت مهمة اختيارها وقبولها وتقييمها لفريق استشاري مقتدر من المختصين في مجالات التأليف والطباعة والنشر، وهو الفريق الذي أطلقت عليه الهيئة اسم (اللجنة الاستشارية للنشر)، وقد استطاع هذا الفريق المؤهل أنْ ينجز في وقت قياسي اختيار وتقييم وإجازة نشر المائة الأولى من الكتب التي تمت طباعتها جميعاً في العام ٢٠١٦م.

أمّا في العام ٢٠١٧م فقد فرغ الفريق الاستشاري من تجهيز المائة الثانية من الكتب توطئة لنشرها جميعاً خلال العام ٢٠١٨م.

إنَّ هيئة الخرطوم للثقافة والنشر إذ تتصدى لهذا المشروع الثقافي القومي الرائد، تتشرف بأنْ تكون هي المؤسسة الوطنية الأولى - منذ استقلال السودان- التي تتمكن من نشر هذا الكم المقدر من الكتب، يضاف إلى ذلك أنَّها أول جهة تتولى تقديم خدمات تشجيعية متميزة للمؤلفين.

.. وهكذا فإن الكتاب السوداني الذي ظل يعاني من عيوب الشروط المجحفة للناشرين إلى جانب ضعف الامكانيات الفنية والتحريرية والطباعية، قد وجد في الهيئة حاضنةً رؤوم تمكنه من الانتشار ومنافسة المطبوعات العربية والأجنبية.

وهيئة الخرطوم للثقافة والنشر إذ تتشرف بوضع هذا الجهد الثقافي بين يدي القارئ الكريم ، تتطلع إلى مزيد من تجويد الأداء، وتسعى بكل إمكاناتها وخبراتها إلى إزالة كافة المعوقات التي تحول دون انتشار الكتاب السوداني، كما أنَّها لن تدخر وسعاً من أجل أنْ تدفع بمشروعها الثقافي هذا إلى أرحب الآفاق.

مقدمة المعرب

وُلد ثيودور كُرُمْب، صاحب هذا الكتاب، في العام ١٦٦٠م في بافاريا، في ألمانيا وكان قسيساً عضواً في طائفة الكاثوليك الفرنسيسكان، جاء إلى السودان ضمن بعثه تبشيرية أرسلها البابا في نهاية القرن السابع عشر كانت مهمتها محاولة إقناع الأثيوبيين بالتحول إلى الكنيسة الكاثولوكية بدلاً عن الكنيسه الأرثوذوكسية التي كانوا يتبعونها.

قام كُرُمْب بدراسة اللغة العربية والعلوم الطبية قبل التحاقه بالبعثة التنصيرية التي غادرت القاهرة في طريقها إلى قندر عاصمة الملك الحبشي . وقد انضم هؤلاء المبشرين إلى إحدى القوافل الكبيرة المتجهة إلى سنار عن طريق درب الأربعين إلى واحة سليمة ومنها اتجهت القافلة إلى قرية مشو في الشلال الثالث في السادس من يناير ١٧٠١م ، ومن هناك اتجهوا جنوباً في رحلة شاقة إلى سنار التي توقفوا فيها لفترة ثم غادرها أغلب القساوسة بغرض الدخول إلى إثيوبيا . ولأنَّ كُرُمْب لم يكن أبداً من القادة وكانت له معرفة بالطب فقد أمرته البعثه بالبقاء في سنار ليقوم بمراعاة بعض شئون البعثة وليعمل بوصفه طبيباً في السودان تحت تصرف ملك الفونج . وخلال إقامته في مملكة الفونج قضى بعض الأشهر في بلاط قرِّي مقدماً خدماته للمانجل محمد ، ثم عاد بعدها إلى سنار ليلتقي برفقائه الذين بقوا على قيد الحياة بعد أن مات بعضهم .

بعد أن تم طرد المبشرين من أثيوبيا، عاد كُرُمْب إلى وطنه عابراً نفس الطريق الذي جاء منه، ففي العام م١٧٠٢م غادر واحة سليمة والسودان الذي عاش فيه ما يقارب العامين .

وعند عودته إلى ألمانيا قام كُرُمْب بتأليف كتاب يتضمن وقائع رحلته. ومن الواضح أنَّ الكتاب اعتمد على مذكرات يومية كان يحرص على تسجيلها

ولذلك جاء كتابه كسجل لوقائع يومية لرحلته وإقامته في سنار وقرِّي.وقد نشر الكتاب عام ١٧١٠م في أوغستبيرج في ألمانيا.

اتفق من قاموا بالإطلاع على الكتاب في لغته الأصلية وترجمة بعض المقتطفات منه ، بأنَّ كُرُمْب لم يكن موهوباً في الأدب والكتابة ويظهر هذا بوضوح في صياغة كتابه الذي لم تكن قراءته سهلة حتى بالنسبة للألمان أنفسهم . وبالرغم من قصوره من ناحية التعليم والأسلوب فإنَّ كُرُمْب نفسه على حسب تقدير رؤسائه في البعثه كان رجلاً رقيق القلب ومحبوباً.

بالإضافة إلى ذلكن وُصف كُرُمْب بأنه شخص ذو قدرات ومعارف محدودة، فضلاً عن إنَّه اتصف بضيق الأفق وإيمانه الكبير بالخرافات، فهو من ذلك النمط من رجال الدين المسيحي الذي كان سائداً في العصورالوسطى ، وهو أيضاً ذو إقتناع كبير بالقوة السحرية لقطعة من الخشب يعتقد أنها من مخلفات صليب المسيح. لذلك اقتضت الأمانة في الترجمة أنْ نورد الألفاظ السلبية عن المسلمين، كضرورة توثيقية باعتبار أنَّها أراء شخصية لقسيس جاهل وضيق الأفق وضئيل المعرفة بل ومتعصب يفتقر إلى التسامح حتى نحو الطوائف المسيحية الأخرى، فهو يزدري الأرثوذوكس واللوثريين والكالفنيين والأقباط بنفس درجة ازدرائه لليهود والمسلمين.

لم يُحدث كتاب كُرُمْب أي تأثير وسط المهتمين بأدب الرحلات ووصف المناطق النائية والبعيدة في أفريقيا. ويبدو أنَّ الكتاب بقي غير معروف أو منسياً بالكامل حتى قام كروفورد، بمساعدة ماريو بيرسو بترجمة ونشر، صفحات قليله منه، استعان بها في كتابه «مملكة الفونج في سنار، ١٩٥١م» . وقام جاي سبولدنق في وقت لاحق بترجمة مقتطفات أوفى من الكتاب وأورد جزءاً منها في كتابه« عصر البطولة في سنار١٩٨٥م» وقام أيضاً بنشرها وإصدارها في طبعة محدودة ، وقد اعتمدتُ في الترجمة الحالية على

ترجمة اسبولدنق الذي سمح لي مشكوراً بترجمتها إلى اللغة العربية.

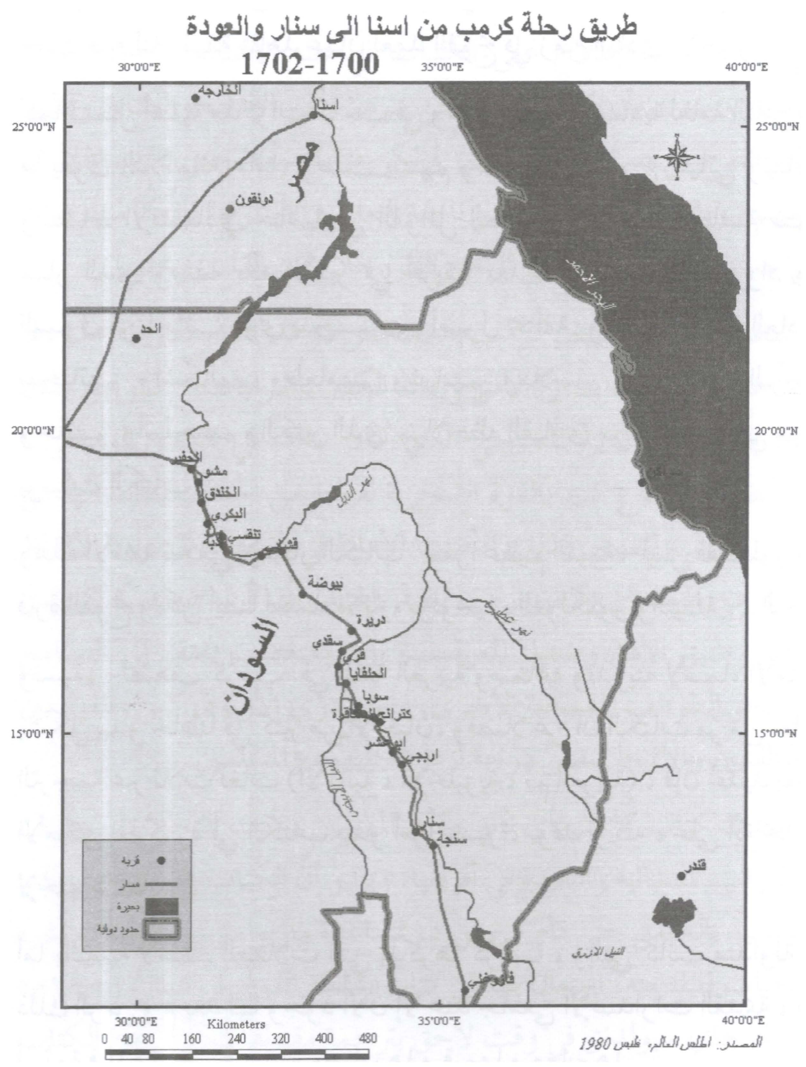
تتمثل أهـمية كُرُمْب في أنَّه جـاء إلى سنار في فترة ازدهار دولة الفونج وتماسكها حيث قدم لنا وثـيقة شاهد عيـان لعهد الفونج في زمن «بادي الأحمر».

كما تـتمثل أهمية مذكرات كُرُمْب في وصفه للحياة العـادية لعامة الناس قبل ما يفوق الثلاثمائة عاماً. وصف بيئتهم وما فيها من تنوع حياتي ونبـاتي، والنشاط الإقتصادي خاصة في القوافل التجارية والأسواق خاصة سوق سنار الذي وصفه بأنّه الأكبر في أفريقيا بعد سوق القاهرة، ورواد هذا السـوق من أجانب ذوي سحـــنات وأصول مختلفة. ووصف الناس العاديين سحناتهم وأشكالهم وطعامهم وشرابهم وملابس النســـاء والـرجال وحليهم وأسلحتهم والكثير الذي سيلاحظه القـارئ من أمثلة ترد في سياق يوميات الكتاب.

وهذه الأمثلة تـكفي لإعتبار الكتاب سفراً عظيم القيمة، ليس فقط لمؤرخي فترة الفونج ولكن أيضاً لعلماء الأنثروبولوجيا والفولكلور والبيـئة ...إلخ.

ونسبة، لضعف كُرُمْب في اللغة العربية وسماعه وتدوينه لأسماء الأماكن بشكل يبدو خاطئاً في كثيرٍ من الأحيان، وفضلاً عن أنَّ الكتاب مرّ من خلال الترجمة عبر ثلاث لغات (الألمانية ، الإنجليزية ، ثم العربية) ، فإنَّ تحديد بعض الأماكن المذكورة في الكتاب يبدو أمراً عسيراً، وقد تركته ، على أيَّة حال ، لإجتهاد القارئ.

أما بالنسبة لأسماء العملات التي يذكرها كُرُمْب ، والتي كانت متداولة في ذلك الزمن و لم يعد لها وجود الآن إلا عند جامعي الإصدارات القديمة ، فلم أر ثمة فائدة ترجى من تتبع مصادرها و قيمها و معاييرها.



طريق رحلة كرمب من اسنا الى سنار والعودة
1702-1700
30°0'0"E
35°0'0"E
40°0'0"E
25°0'0"N
20°0'0"N
15°0'0"N
الخارجة
اسنا
مصر
دونقون
الحد
مشو
الخندق
البكري
تنقسي
بيوضة
دريرة
سقدي
الحلفايا
سوبا
اربجي
السودان
سنار
سنجة
قندر
النيل الأزرق
قرية
مسار
بحيرة
حدود دولية
Kilometers
0 40 80 160 240 320 400 480

(١)
ملخص لرحلة كُرُمْب من أَسيوط إلى إسنا في مصر العليا

وصل كُرُمْب إلى أسيوط بالمركب في ٣٠ أكتوبر ١٧٠٠م، وكتب «إن هذه المدينة مشهورة بشكل خاص» لأنها تصل إليها كل القوافل التي تأتي من صعيد مصر، ومن النوبة، ومن بَرنُو وفَزَّان، والغرب ومن مملكة الفونج وبلاد المُسلمين الأخرى، وكذلك تغادرها تلك القوافل التي تنوي السفر إلى تلك البلاد حيث توجه رحلاتها إلى هذه النقطة وعند ذلك يَكتَمل التبادل التجاري في هذه المرحلة.

ومن هنا يُشكِلُون قوافل ويخزنون بضاعتهم التي يمكن في وقت لاحق أن تنقلها بأجور زهيدة المراكب التي تبحر في النيل إلى القاهرة. وعند وصولهم إلى هذه المدينة، لا يدخلها المسافرون ولكنهم يذهبون إلى المعسكر حيث يُقيم «الجلابة» (التجار) ومرافقوهم من البرابرة من القافلة الأثيوبية. وهذا المكان يحاذي المدينة. وهو يمثل ساحة كبيرة واسعة. وبما أن المبشرين الذين انضموا إلى القافلة كانوا على علاقة جيدة وبشكل خاص مع الحاكم التركي المحلي، فإن جماعتهم منحوا فناءً خاصاً بهم بالقرب من المكان حيث نصبوا خيامهم وحفظوا أمتعتهم.

وفي الأول من نوفمبر ١٧٠٠ لاحظ كُرُمب «اليوم أقيم السوق السنوي الكبير وقد جاء الناس بعدد وافر من الحمير وأشياء أخرى (لبيعها) للقافلة» وبدأ المبشرون في شراء احتياجاتهم وقُوتِهم ومؤونتهم للرحلة القادمة لعبور الصحراء. « وفي الخامس عشر من نوفمبر تم تقديمهم «لقائد وخبير القافلة

الذي يدعى عابدين» وهو كبير التجار، ليس لأنه كبير في سنه وذو تجربة عميقة فحسب بل أيضاً لأنه مبعوث من قِبَل ملك سنار لمصر ليشتري بضائع وأشياء تخص الملك واحتياجات المملكة» وقد أَعلَم «باشا منفلوط» القافلة المجتمعة بأن الطريق المعتاد عن طريق الواحة (قد تكون واحة الخارجة؟) أنه غير آمن في الوقت الحاضر لأن الواحة قد احتلها مجموعة من الأعراب المعادين. وفي هذه الحال فإن تجار ملك سنار الذين يقودهم عابدين أشاروا بالتريث، فهم بالرغم من أنهم تصحبهم فرقة من فرسان الفونج، لكنهم كانوا يرغبون في تفادي الدخول في معارك. ولكن كما أشار كرمب فإن البرابرة الفقراء لم يرغبوا في الانتظار أكثر لأنهم استهلكوا الكثير من موادهم المعدة للرحلة و لم يعودوا يملكون الوسائل التي تمكنهم من الاستمرار في العناية بجمالهم وتغذيتها لهذه الفترة الطويلة.

في أسيوط انضم إلى كُرُمب الأب كارلو دي سلنتو البالغ من العمر الثانية والثلاثين، وقد كان عضواً في جماعة المبشرين الفرنسيسكان لمدة سنتين في إخميم، وكان يتحدث العربية بطلاقة وكذلك كان متبحراً في علوم اللاهوت، بالإضافة إلى أنه كانت له معرفة بالطب والجراحة. وإلى هناك وصل أيضاً رئيس البعثة، الذي كان قد تأخر في القاهرة بسبب إصابته بالحُمى. وكان الأب فرانسسكو دي سالمي في الستين من عمره وكان في حالة جيدة بالنسبة إلى عمره وكان متحمساً. وكان العضو الأخير من أعضاء المجموعة الفرنسسكانية الذي انضم إليهم هو الأب جوزيف المقدسي، والذي وجده كرمب «ذا خبرة في كافة الشئون» وكان قد انضم إليهم أيضاً اثنان من الآباء الجزويت هما أنطوني قارنير وأنطونيو باوليتي. وهما فرنسيان وقد قام القنصل الفرنسي في القاهرة بمساعدتهما مساعدة كبيرة. وقد شك كرمب وزملاؤه بأنهما يخدمان المصالح الفرنسية تجاه أثيوبيا، ولكن أفراد

الطائفتين احتفظوا بعلاقات ودية وحسنة.

غادرت القافلة أسيوط في ٢٥ نوفمبر ١٧٠٠. وبعد توجيه مسيرتها نحو واحة «الخارجة» لتضليل أعدائهم، أعادوا توجيه مسيرتهم بحذاء النيل في اتجاه إسنا.

وصف الرحلة من إسنا
خلال الصحراء إلى مَشُو

في الحادي عشر من ديسمبر ١٧٠٠م نهضنا باكراً، ففي هذا اليوم بدأنا في دخول الصحراء التي تقع إلى يمين النيل. وشققنا طريقنا إلى الأمام سائرين كل النهار، وكنا مسلحين جيداً ويقظين. وأخيراً بعد المغيب نصبنا معسكرنا في الصحراء. وهنا أيضاً حافظنا على المراقبة القوية طوال الليل، لأننا قد سمعنا أن مجموعة كبيرة من القتلة والأعراب قد تجمعوا بنية مهاجمة قافلتنا.

في الثاني عشر من ديسمبر ١٧٠٠ تحركنا قبل شروق الشمس بنصف ساعة وواصلنا السير حتى نصف ساعة بعد الغروب. وقطعنا مسافة كبيرة في حوالي ١٢ أو ١٤ ساعة من السير المتواصل «ويجب على المرء هنا أن يُعَرِّف لأجل الإيضاح بخصوص رحلتنا التي نحن بصددها، أنه في هذه البلاد وفي فصل الصيف فإن بقاء الشمس لا يتعدى الثلاث عشرة ساعة في اليوم وليس أقل من إحدى عشرة ساعة. وعند خط الإستواء فإن الليل والنهار متساويان في الطول. وهذا يسبب درجات لا تصدق من الحرارة. «حتى إنني بالكاد أستطيع أن ألمس مسدسي المصنوع من الحديد»».

اليوم حدثت كوميديا طريفة أثارها الأب كارلو. وكنا قد استرحنا نحو ربع ساعة في الطريق، وعندما كنا نستعد لمواصلة مسيرتنا، أظهر حماره احتِرامه القلبي، ففي هذه اللحظة قرر الحمار أن يلقي بنفسه ويتمرغ على الأرض. وعندها ضحكت وكذلك فعل الجزويت الذين كانوا برفقتنا. وعندما سمع البرابرة ضحكنا ظنوا أن الأب كارلو (الذي كانوا دائماً يغيظونه على طريقة ركوبه) سقط من حماره. ويجب أن يعلم المرء أن المسافرين النوبيين في القافلة يحافظون على عادة تقضي بأن أي أحد يسقط من حصانه أو حماره أو

بعيره، فإنهم يتقافزون ويرقصون ويغنون ويتصايحون من حوله ويسخرون منه ويستمرون في ذلك حتى يضطر الشخص الذي سقط من الحصان أو الحمار أن يرشوهم بدفع غرامة. ويخضع كل الذين يسافرون في القافلة لهذا العُرف بما في ذلك مَلِكهُم نفسه. وفي هذه اللحظة أحاط البرابرة بالأب كارلو وبدأوا يصفقون، ويلعبون ويتصايحون ويضحكون عليه. وقد أخذوا الحمار الذي كان يركب عليه إلى جانب وأحاط نحو مائة منهم بالأب كارلو وبدأوا في المطالبة بالغرامة. و لم يرغب الأب كارلو في إعطائهم أى شيء. ولكن لرغبتنا في إنهاء هذه الملهاة قفزنا إلى جانبه وأعطيناهم نصف (ثالر) [١] فقبلوها برضاء تام. وبذلك تمتع من الآن فصاعداً بالحق في السقوط من حماره في أي وقت وعلى كل البرابرة مساعدته في النهوض وامتطاء دابته. وبعد ذلك ركبنا في طريقنا طوال اليوم وحتى وقت متأخر من الليل. والليلة لم تكن شديدة الظلام حيث أن الراكب يجد الطريق بسهولة. ومن أجل إرهاب العدو فإننا قد أطلقنا أعيرة بنادقنا نحو ثلاثين مرة. وفي منتصف الليل قام البرابرة كما في [الخامس والعشرين من أكتوبر] بإجراء معركة صورية حتى وقت متأخر وقد صحب ذلك إطلاق أعيرة المسدسات مصحوبة بقرع [طبول] النحاس. والتي من المسموح لتجار السلطان فقط بحملها. وكان لديهم منها خمسة أطقُم.

في الثالث عشر من ديسمبر ١٧٠٠م لم يحدث شيء يذكر. وقد غادرنا هذا المكان قبل شروق الشمس وسرنا حتى ساعتين من الليل وكنا نقترب من سلسلة من الجبال العالية، والتي يجب أن نعبرها في الغد في وقت باكر حين تكون الجمال نشطةً والطريق ميسَّراً. واليوم واصل البرابرة الملهاة بقيامهم بإجراء معركة صورية لمدة استغرقت ما بين ثلاث و خمس ساعات في أثناء الليل. وقد يعتقد المرء أنه من غير المعقول أن هؤلاء البرابرة يدخنون

ويلعبون ويصخبون، وبعد ذلك يقومون بقطع مسافات طويلة على الأقدام، ويكابدون (بصورة لا تصدق) معاناة الجوع والعطش، والحر والبرد وكل ذلك بدون أن ينعموا ولو بقدر ضئيل من النوم.

في الرابع عشر من ديسمبر ١٧٠٠م تحركنا عند الشروق وفي ظرف نصف ساعة بدأنا في صعود الجبل من خلال مضيق مليء بالصخور وهو أكثر ملاءمة للجياد والبغال من الإخفاف اللينة للجمال. وكان الجبل منفسحاً ، إلا في جزء منه بنحو طول مائتي خطوة ، حيث تم صف الجمال الواحد وراء الآخر. وحتى لا تشعر الجمال بالانزعاج فترمي بأحمالها، كان على البرابرة التمسك بالصناديق وباقي الأحمال وأن يدفعوها من الخلف – هذه بالطبع رحلة بائسة وقاسية – وعند وصولنا إلى قمة الجبل، واجهنا جبلاً عالياً آخر في سهل واسع منبسط. ويمكنني القول في الحقيقة أنه جبل فوق الآخر وبالرغم من أنه وَعْرٌ ويتكون من حجارة صلبة وتراءى لي مثل تحفة في مغارة بسبب شكله الغريب ولمعانه. وعند منتصف النهار وأثناء انتظارنا باقي القافلة أنعشنا أنفسنا بتناول بعض قطع الخبز وقليل من أكواب القهوة. وبعد ذلك واصلنا سيرنا حتى ساعة بعد الغروب.

في الخامس عشر من ديسمبر ١٧٠٠م تحركنا عند الشروق وتسلقنا الجبل بسير حثيث جداً وعانينا من نقص في المياه، حيث أنه لم يكن لدينا من الماء بعد دخولنا الصحراء غير تلك القرب التي حملناها من إسنا، واليوم وفي هذه الصحراء،مررت بأحجار صلبة في غاية الروعة والندرة واللمعان وهي ذات أشكال مختلفة وألوان جذابة. وقد جربت طرق بعضها ببعض ولكن لم ينكسر أي منها، وأعتقد أن المرء من الممكن أن يجمع هنا أكواماً من الأحجار الثمينة، كبيرها وصغيرها، والتي صقلتها حرارة الشمس حيث إن الأمطار نادراً ما تهطل في أرض مصر وفي هذه الصحراء، وقد شاهدت عدداً من الأحجار

البيضاء والوردية، وهي في غاية الصلابة والشفافية، وقد جربت أن أضع تحتها عمامتي (التركية) ذات اللون الأحمر الفاتح، وكانت تُرى بوضوح من خلال الأحجار البيضاء والصفراء. وقد جمعت عدداً من هذه الحجارة التي بحجم ظفر الإبهام، ولكنني يئست من حملها معي عبر المسافات الطويلة، و لم أعرف ماذا أفعل بها وأخيراً رميتها في مكانها، سواءً كانت حجارة ثمينة أو لا. وقد حطمت واحداً من الحجارة البنية والتي يوجد منها الكثير بضربها بعضها ببعض ووجدت أن داخلها يلمع حيث أن المرء يظن أنها تحتوي في داخلها عرقاً من ذهب أو فضة. وإنني أستطيع أن أكتب بتأكيد تام أنه بالإضافة إلى الأحجار الثمينة فإن هذا الجبل مليء بالمعادن الثمينة مثل الذهب والفضة. وأن المسألة ببساطة أن لا أحد يعرف أو يهتم بكيفية البحث عنها وتعدينها.

وعند الظهيرة استطاعت القافلة بعد أن فقدت تسعة جمال، أن تضع خلفها هذا الممر الضيق والخطر. ولمدة خمسة أيام كنا في حال صعود مستمر، وأصبح أملنا في الحصول على الماء أن نكون قد وصلنا إلى القمة. حيث إن مؤونة القافلة من الماء تكفي بالكاد لأربعة أيام أُخرى. وكانت القافلة كلها تعاني من شح الماء، وبعد ما عانينا شدة العطش وصلنا إلى قَرقُور(٢) بعد ساعة من مغيب الشمس.

وتقع قَرقُور وسط جبال ذات أشكال متعددة وقممها أعلى قليلاً من أبراج الكنائس، بعضها مستدير، وبعضها رباعيّ الأبعاد وقليل منها طويل، وكلها بدت لي وكأنها قلاع، وتحصينات وخنادق تحيط بمدينة، وعلى كل حال فهي مبهجة للنظر. وقبل نصف ساعة من وصولنا هذا المكان، حيث يوجد الماء، بدأنا نصادف الأشجار وهي كبيرة وظليلة مثل أشجار الزيزفون. وبما أن الظلام قد حل فأنني لم أستطع أن أُميز أي نوع من الأشجار قد تكون هذه الأشجار. وبما أننا الآن وصلنا إلى مقصدنا من مكان الماء، فإننا رَكَزْنَا

أنفسنا بين الجبال، وقضينا الليل كله، أكثر من أي وقت مضى، تحت أهبة السلاح. وكنا نخاف من أن العدو قد يهاجمنا في هذا المكان، فإن العرب غالباً ما يهاجمون القوافل في الليل أو عندما تكون متفرقة الأمر الذي تفرضه تضاريس هذه المنطقة وأيضاً بسبب الإرهاق فإنهم يتمكنون من التغلب عليها وهزيمتها.

في السادس عشر من ديسمبر ١٧٠٠ وحال إنبلاج الصباح قام البرابرة، وفي الحقيقة كل القافلة، بقيادة جيادهم وكان عددها أثني عشر، والحمير وكان عددها نحو مئتين والجمال وكان عددها نحو الألفين، إلى الماء. و يقع المكان الذي يتم الحفرُ فيه للحصول على الماء ، في الشرق بجانب أحد الجبال، وقد خيل إليّ أنها تشبه خندق مدينة، والجبل هو المدينة، والمكان الذي يحوي الماء هو الخندق، لأنه محاط بحوض طبيعي. وعندما يحفر المرء في هذا المكان بعمق قامة رجل، يجد ماء طيباً، عذباً وحلو المذاق يكفي لكل القافلة كما عرفنا ذلك بأنفسنا. إن دهشتي لا تنقضي وعجبي أن الله الرب القادر العظيم وفر لمخلوقاته في هذه الصحراء الوفير من الماء كما فعل لبني إسرائيل. واليوم حملنا ما يكفي من الماء لمدة سبعة أيام. بالأمس سقط خمسة من الجمال بين الصخور ونفقت في مكانها، بينما تم تقسيم البضائع التي كانت تحملها بين جمال أفراد القافلة. وهذه العادة التي تستحق الإعجاب يتم الالتزام بها، وهي أن أي جمل يسقط ويموت، فإن الناس يتقاسمون البضائع التي يحملها البعير بين أفراد القافلة ويحملونها إلى المكان التالي الذي توجد فيه المياه، وهناك يتم إعادتها لصاحبها. ولكن إذا مات البعير في منطقة مأهولة فليس هنالك إلزام بحمل مثل هذه البضاعة. وقد قضيت كل هذا اليوم في النوم على الأرض تحت شجرة ظليلة، لأنني لم أحظ بنوم كافٍ أثناء الليل خلال الأسابيع الثلاثة الماضية.

في السابع عشر من ديسمبر ١٧٠٠م غادرنا قَرْقُور عند طلوع الشمس وقد

ملأنا لأنفسنا ثماني وعشرين قربة من الماء. ولنريح جمالنا قليلاً، حملنا كل اثنتين منها على حميرنا، وهذا يعني أنه حتى موعد نفاد الماء، فإن بعضنا سوف يضطر إلى المشي راجلين. ولقد سرنا خلال الصحراء طوال اليوم وساعة ونصف بعد مغيب الشمس، وخلفنا وراءنا ثلاثة من الجبال الضخمة. وكان الأول منها يتكون من رخام ناصع البياض والوردي، وسوف يكون من الممتع أن يتسلق الواحد ليرى السهل الجميل الذي يمتد لعدة أميال في كل الاتجاهات. والجبل الثاني قد حبته الطبيعة بالأحجار الثمينة من ذلك النوع الذي تنحت منه الأعمدة للمباني العظيمة في روما - كما سمعت- والجبل الثالث أيضاً من أجمل الرخام ذي اللون الوردي والمرصع بالأبيض، و لم يكن في مقدورنا جميعنا أن نعبِّر عن إعجابنا بالقدر الكافي لذلك الجمال الأخاذ والألوان البديعة الناصعة والبريق الممتاز لهذا الجبل. وقد اعترفنا بأننا لم نر قط شبيهاً له.

في الثامن عشر من ديسمبر ١٧٠٠م، استأنفنا السير مجدداً قبل طلوع الشمس وسرنا حتى ساعة بعد المغيب. ومررنا بأربعة جبال من الرخام، وبين كل واحد منها والآخر امتد سهل أخذ منا ساعات عديدة لعبوره. وكانت جميلة وكأنها رُسمت بريشة رسام. وكانت متعة للنظر وبلسماً للروح. وكان يمكننا أن نقف هنا في حالة من الرضا التام أياماً وليالي. اليوم اصطاد رفقاؤنا السودانيون والبرابرة مخلوقاً عجيباً في الصحراء، يسمونه الضَبْ، وكنت شعرت بشيء من الخوف لأنني ظننته سيكون ساماً، ولكنهم طمأنوني بأنه ليس كذلك. وهذا المخلوق يشبه العظاة (السحلية) في شكله ولكنه أكبر بكثير ويبلغ طوله ذراعاً وعرضه بقدر راحة الكف. وهو لا يشرب الماء أبداً وإذا وضع أحدهم الماء في أنفه فأنه يموت في الحال. وهو يبيض مثل السلحفاة. والسودانيون يأكلون لحمه مشوياً وطعمه كطعم لحم الضفادع. وهو أسرع

في جريه من السحلية. وهو من القوة بحيث إنه ليس هنالك من قوة تستطيع جره من جحره حتى إن كان رأسه فقط في الداخل. ولا بد للشخص الذي يريد اصطياده أن يحفر حول الحفرة لتوسعتها. وبالرغم من أن هذا الضب كان ميتاً لثلاثة أيام لكن عند شيّه على النار كانت رائحته طيبة وكأنه قتل لحينه. اليوم، كما في رحلاتي الأفريقية، سرت راجلاً إلى أن ارتفعت حرارة الشمس، وحتى لا أتعب نفسي أو حماري فعلت ذلك مجدداً بعد الظهر عندما خفت حرارتها. وقد نصبنا معسكرنا عند حلول المساء.

في التاسع عشر من ديسمبر ١٧٠٠م وبعد شروق الشمس تسلقنا جبلاً عالياً يتكون من صخور الرخام السماقي الصلبة والثمينة. وعند الظهيرة وصلنا إلى جبل آخر يتكون من الرخام الوردي وقبل حلول المساء مررنا بجبل كبير من الملح، ويوجد فيه الملح الصخري بوفرة كبيرة، وكثير من البرابرة يأخذون منه حاجتهم. وبعد ساعة من غروب الشمس نصبنا معسكرنا في سهل صحراوي. وانعشنا أطرافنا المتعبة والمنهكة بالماء، وخبز البسكويت وحساء من العدس.

في العشرين من ديسمبر ١٧٠٠ سرنا تحت حرارة الشمس القاسية التي لا تطاق. ومررنا مرة أخرى بجبلين كبيرين من حجارة غاية في الروعة. وبعد نهاية سيرنا اليوم نصبنا معسكرنا في الوقت المعتاد في سهل جميل.

في الواحد والعشرين من ديسمبر ١٧٠٠ في نحو الساعة العاشرة وصلنا إلى دُونقُون[٣]. وهو مكان لم تمر به القوافل لسنوات عديدة حيث إنهم عادة ما يأخذون طريق الواح، الأقصر بمسافة عدة أيام والأكثر راحة ولكن نسبة لأن هنالك نحو ألف من الأعراب الأعداء كانوا ينتظرون مرور القافلة لمهاجمتها في ذلك المكان فلذلك تركنا ذلك الطريق وأخذنا الطريق الحالي. وبسبب الطريق المليء بالأحجار من قرقور إلى دُونقُون كان حتماً على العديد من

الجمال النفوق. اليوم تم تقسيم ما تحمله الجمال التي نفقت على بقية القافلة، ومرة أخرى كما في قرقور ،حفرنا للوصول للماء. وفي هذه الليلة عمدنا إلى إراحة أطرافنا التي أنهكها السير المستمر بالنهار الحار، والعطش والجوع، والليالي الساهرة بالمراقبة وقد استعدنا القليل من النشاط بالاسترخاء والنوم.

حذرنا الأب جوزيف بأن الخبز لدينا سوف ينفد وأن علينا أن نقتصد فيه. وفي الحقيقة فإننا في هذه الرحلة لم نشبع أبداً جوعنا من الخبز أو الحساء وعلينا أن نهتم بجانب أنفسنا برفقائنا البرابرة الستة الذين كانوا يعتنون بجمالنا وحميرنا. ولكن، بالرغم من أنه لم يزل لدينا ماء، عانيت من الشعور بالعطش حتى ظننت أن روحي سوف تزهق. و أصبح الماء الذي تحمله جمالنا مخضوضاً مثل اللبن الرائب الدافيء جراء الحركة المستمرة للجمال وأشعة الشمس، ولكن ليس هناك بديل آخر للشرب في هذا الحر الفظيع. وقد أخبرونا أنه ما زالت هنالك أربعة عشر يوماً من المسير خلال الصحراء علينا أن نقطعها وقد كنا نظن أننا سنصل إلى أرض مأهولة في ظرف أيام قليلة.

ولذلك السبب فقد تحركنا في وقت مبكر في الثاني والعشرين من ديسمبر ١٧٠٠، وبعد نحو ثلاث ساعات صعدنا جبلاً عالياً نسبياً. وبعد ذلك تابعنا سهلاً جميلاً مستوياً لم نر حداً لنهايته. و بدت لي رمال الصحراء كالمشي فوق ممرات رملية لحديقة للنزهة، والتي وجدتها أفضل من تلك التي في أسطنبول. وهي موجودة بكميات كبيرة، وقد أخذت رطلين منها. والليلة، كما في الليلة السابقة، عانينا من هبوب الريح الحادة القارسة، ولكن ولأن الطريق كان سهلاً للمتابعة. فإننا سرنا لمدة ثلاث ساعات بعد دخول الليل، وأخذ حمار الأب كارلو في الظلوع (العرج) قبل ثلاثة أيام. وبما أنه كان يجلس عليه كالأحدب متأرجحاً للخلف والأمام. لذلك كان على الأب الطيب أن يمشي راجلاً. وقد أعرته حماري لبعض الوقت، وبما أنني، – الشكر لله –

كنت في حالة طيبة فإنني سِرتُ على الأقل ثلث المسافة راجلاً. الليلة ،ومثل الليالي الأخرى، حافظنا على المراقبة اليقظة.

في الثالث والعشرين من ديسمبر ١٧٠٠م بدأنا متابعة سيرنا قبل الشروق وفي نحو العاشرة مررنا بجبل قليل العلو. وهناك، أكثر مما أملنا، وجدنا بركة مليئة بمياه غزيرة، وكذلك مرعى فيه من الحشائش ما يكفي حميرنا وجمالنا. وهذه المياه من مياه الأمطار، ومن ذلك عرفنا أن الصحراء المصرية التي لا تمطر أبداً قد أصبحت وراءنا. ودخلنا الآن في الصحراء النوبية الحقيقية وهي كما يطلق عليها البعض – لأسباب عديدة – الصحراء الليبية. ولا بد أنها تمطر حول هذا المكان لأننا وجدنا آثار أمطار غزيرة هنا وهناك. وفي مملكة الفونج وأثيوبيا يهطل المطر لعدة أشهر، وتجري وتنحدر السيول إلى نهر النيل الذي يتدفق إلى مصر ويرويها.

وهذا الماء الذي وجدناه تحتويه الجبال وتحفظه هناك. وعندما رأيناه بدهشة بالغة، أنزلنا أحمال جمالنا وحميرنا وأطلقناها ترعى وتشرب لمدة ساعة، وبعد ذلك اندفعنا في السير وركبنا لمدة ساعة بعد المغيب، ثم نصبنا معسكرنا في الصحراء.

في الرابع والعشرين من ديسمبر ١٧٠٠ عندما نقضنا معسكرنا عند الإحمرار البديع لشروق الشمس، هبت ريح قاسية استمرت لمدة ساعتين. ولأنها كانت تلفح وجوهنا، فإنها قد ملأت أعيننا بالرمال، وأصبحنا عمياناً تقريباً. وبعد ساعتين من المغيب نصبنا معسكرنا بجانب جبل عالٍ وواسع تراءى لنا، و لم يكن في الحقيقة أكثر من الرمال الصافية أهالتها الرياح على بعضها وشكلتها على هيئة قوز رملي. وقد أخذنا حظنا الكامل من الراحة ، ولو هبت رياح قوية في تلك الليلة لكانت دفنتنا و جميع القافلة أحياء.

في الخامس والعشرين من ديسمبر ١٧٠٠م، بدأنا رحلتنا كالعادة قبل طلوع النهار وسرنا في طريق ممهد. وفي خلال الطريق لاحظنا بعض المعادن الغنية بالحديد، كما لاحظنا ذلك بالأمس. وفي نحو الساعة الثالثة وبينما نحن نسير بين هذه الجبال والقيزان الرملية، ضللنا الطريق تماماً لمدة ساعة، و لم نعرف إن كنا نسير للأمام أو الخلف، لأن الطريق المتجه جنوباً والذي كنا نريد السير فيه انسد بالكامل وأخيراً واستجابة لنصيحة أحد البرابرة ذوي الخبرة الكبيرة قررنا السير المستقيم فوق هذه القيزان من الرمال.

وقد ظننا أن القيزان متماسكة وقوية و لم تتهلهلها بعد الجمال المحملة بالأثقال وقد نجحنا في العبور ولكن أولئك الذين جاءوا من خلفنا ساخوا هم وجمالهم بعمق في الرمال. و تركت بعض الجمال مجندلة، وقد أُحضرت أحمالها بالكثير من العنت والتعب والصعوبة. ونتيجة لهذا فإن جزءاً كبيراً من القافلة انحاز نحو الجنوب للبحث عن طريق آخر. وبالرغم من أننا عبرنا فوق هذا الجبل الرملي العالي والخطير، مهددين بفقد حياتنا ومخاطرين بحياة حيواناتنا، وفي مواجهة ريح باردة وقوية، فإننا اتجهنا نحو الغرب بدلاً عن الشرق، وكانت الرمال تتهايل تحت أقدامنا حتى وجدنا الطريق الصحيح.

بعد ذلك استأنفنا مسيرتنا لمدة ساعتين ونصبنا معسكرنا ليس بعيداً عن حلفا. وحلفا هذه مكان يوجد فيه الماء، ولكى لا تدفننا هذه الجبال من الرمال واصلنا السير لساعة بعد المغيب. وقد عانينا من ريح قاسية وكان علينا أن نقاسي البرد القارس. ومن شدة التعب والإرهاق فضلنا أن نذهب للنوم بدلاً عن إعداد حساء. ولذلك اضطررت للاحتفال بعيد الميلاد بالخبز والماء فقط، لولا أن الأب قارنير من جمعية المسيح قد أمدني في الطريق بقطعتين صغيرتين من السجق، وبها أنهيت صيامي الطويل لهذا اليوم المبارك وأكلت اللحم مجدداً للمرة الأولى في هذه الرحلة. وبالرغم من أننا وجدنا الماء في هذا المكان، فإننا، وبسبب الإرهاق المحض، لم نستفد منه. اليوم توفي واحد من برابرة

القافلة، وقد كان مريضاً طوال الطريق. وهنالك نحو ثلاثين من أعضاء القافلة مرضى نتيجة نقص الطعام والمعاناة وقد تم حملهم بائسين على الجمال. وقد شكرنا الله القدير الآف المرات لأنه حفظنا حتى الآن في صحة جيدة.

وفي السادس والعشرين من ديسمبر ١٧٠٠م لم نبدأ السير حتى الساعة الثامنة أو التاسعة، وتم دفن البربري على حسب عادة البرابرة تحت الرمال. وفي خلال الطريق مررنا بالعديد من معادن الحديد، وأنا أعتقد جازماً أن الكحل يمكن أن يوجد هنا بكميات كبيرة وبنقاء تام، حيث إنني وجدت العديد من حجر النسر في حجم قبضة اليد في هذا المكان. وقد حطمت بعضها وأخذت الرمل داخلها فهو مفيد كدواء. والباقي أي الحجر الذي يحوي التراب أو الرمل مثل الجوزة، كان عليَّ أن أرميه بعيداً نسبة لثقل وزنه.

وقبل غروب الشمس ضللنا، مرة أخرى، الطريق الصحيح الذي يقود إلى الماء. وقد سرنا لمدة ساعتين بعد المغيب، وقد عانينا من الريح القاسية التي كانت تذرو الرمال في أعيننا. وقد انزعجنا لبرودة الليل، ولكننا كنا مستعدين لتحمل هذه المصاعب وتضعضع قوانا إذ كنا واثقين بمشيئة الله أنه في الغد سنجد الماء. وكما كان في الأمس في عيد الميلاد، تناولنا خبزاً وماء للغداء والعشاء.

في الثامن والعشرين من ديسمبر ١٧٠٠م نهضنا عند شروق الشمس لنبحث عن الطريق الصحيح وفي ظرف نصف ساعة وصلنا إلى أبو تِنقيل، وهو مكان فيه ماء وأشجار، وأنزلنا الأثقال عن ظهور جمالنا وأعطيناها بعض جريد النخل الأخضر لتعلفه. ولكننا مكثنا لساعة واحدة فقط حيث فارقنا نحو ثلث القافلة هنا وتحولوا إلى جهة (اليسار) في اتجاه موطن بلادهم والتي تتبع للسلطان العثماني، وتقع إلى الشرق في إتجاه نهر النيل وقد أعَدنا لهم البضائع التي حملناها لهم.

وقد تأكدنا من أننا في ظرف ساعات قليلة سوف نصل إلى مكان أفضل وأطيب حيث يوجد الماء الوفير و الصحي أكثر من الذي كنا سنجده إذا تابعناهم. ثم تابعنا مسيرتنا و دخلنا في طريق جيد، بالرغم من أنه وعر وجبلي، وبعد ثلاث ساعات وصلنا إلى الحَذْ. وهذا المكان غير مأهول حيث أن كل الماء الذي يرغب فيه المرء يمكن حفره. وكأحد أفراد الأمة الألمانية كان في إمكاني شرب هذا الماء النتن الفاتر الرملي وكأنه قد بورك من قبل القديس يوحنا. وأخذنا حاجتنا من الماء لعدة أيام وأعطينا جمالنا بعض الفاصوليا والكثير من الماء لتشربه. كما كنا نفعل في كل الأماكن التي نجد فيها الماء. والماء ليس بعمق أكثر من قامة رجل. والعلامة الأكيدة لوجود الماء في الصحراء هي عندما يرى المرء الأشجار والحشائش، وحتى الطيور. وهذه المياه في الصحراء ، ماعدا تلك التي في قرقور، قذرة للغاية، مليئة بالطين ونَتِنَة وذات طعم رديء مُرة وفاترة وهي تحوي على طعم المعادن غير المستساغ. وفي تلك الليلة أعددنا لأنفسنا قصعة مليئة من الأرز وشربنا كوباً من القهوة، وكذلك جرعات من تلك المياه الدافئة «ماء القديس يوحنا»!.

وفي الثامن والعشرين من ديسمبر ١٧٠٠م تحركنا عند انبلاج الصباح ومررنا على جبال تحتوي على العديد من المعادن. ومن بين الأشياء التي صادفتنا حقل فسيح إذا أزلت الرمل منه بقدر كفة اليد، تظهر أرض في بياض الثلج و تلمع مثل أكثر ثلوج الشتاء صلابة. وأخذ البرابرة الكثير منها في زكائب. وهذه الأرض تسمى الشَبْ، وهي ليست سوى شَبْ صُهِر وتكلس بفعل الشمس. ويستعمله البرابرة في معالجة جمالهم عندما تصاب بقروح بسبب الأحمال وكذلك لتطهير اللحم المُنتِن. وفي هذه الأثناء كنا نركب كل يوم في حرارة بالغة وفي الليل كان البرد الشديد لنا بالمرصاد. وللعشاء تناولنا لحم أحد الجمال الذي انهار وتم ذبحه. وتركنا هذا اللحم يغلي لمدة نصف ساعة، وهو

وقت أكثر مما يسمح لنا به جوعنا والليل الهابط علينا .وبالرغم من أنه كان قوياً كالجلد فإن طعمه كان مستساغاً بالنسبة لي ولكن ليس بالنسبة لرفقائي. وقد أكلت بشهية مفتوحة حتى امتلأت وشبعت.

في التاسع والعشرين من ديسمبر ١٧٠٠م إستأنفنا سيرنا كالمعتاد وتُهنا خلال حقل عظيم من الرمال وكان قاسياً خشناً حتى إنه بدا لي وكأنه رماد بيت محترق .وليس في هذا الحقل غير ذرات مختلطة بصورة طبيعية من الرمال السوداء والصفراء والحمراء وبعد هذا (الحقل) غيرنا اتجاهنا وتابعنا سيرنا في طريق آخر في اتجاه شرقي جنوبي. وهنا أيضاً وجدنا نفس الأرض القاسية الحمراء والتي أثارت دهشتنا. وعند حلول الليل نصبنا معسكرنا بجوار هذه الممرات الرملية.

وفي الثلاثين من ديسمبر ١٧٠٠، غادرنا هذا المكان كالمعتاد قبل طلوع النهار. وفي هذا المكان، الذي وجدنا فيه أنفسنا، تلال عالية ومرعبة ووعرة، وكانت الريح تهب قوية وباردة وجارحة، وخاصة في الليل، وظننا أننا لن نستطيع تحملها. وما عشناه أمس لا يمكن تصديقه ببساطة. فقد كنا ننام بملابسنا العادية تحت السماء المفتوحة وكان علينا الحراسة والمراقبة بالتناوب. اليوم لم أدخل شيئاً في جوفي خلاف الماء والخبز وقطعة سجق بطول الأصبع كان قد أعطانيها الأب قرانير من الجزويت عند الظهيرة عندما كنا نتناول الماء والخبز. في المساء أعددنا حساء عدس لنا ولبرابرتنا. وكانت وجبة من العدس غير المبشور والذي يصنعه المسلمون (الأتراك) مثل حساء بسيط كالآتي: يقومون بغلي الماء، ويضيفون بعض الدقيق حتى يصبح في شكل فتات انفصلت عن بعضها وأصبحت أشبه بالعصيدة الرقيقة. وبعد ذلك يضيفون القليل من الملح وإذا كان ممكناً يضعون عليه بعض الزيت أو السمن أيضاً. ويأكلون هذه الفتة بأيديهم ويدخلون اللقمة بأصابعهم في أفواههم وهي

تخالف طبيعتنا حيث لم يمكننا أكل أي شيء منها. وفي المقابل كان برابرتنا، يأكلونها بشهية مفتوحة، وهجموا عليها كما يهجم القط على الفأر. وهذه الوجبة واحدة من طعامهم المألوف. وبعد ذلك قمت بتسجيل ملاحظاتي، وقد اكتفيت في تلك الليلة بتناول الماء والخبز. ولكنني أجبرت نفسي على تناول هذه الفتة مبعداً تحفظي الطبيعي جانباً. وكانت شهيتي الكبيرة هي أفضل معين لي. وبعد ذلك وجدت أن ماءنا قذر للغاية، ورائحته كريهة ومليء بالرمل وكنت أغمض عيني عندما أشربه. وبالرغم من كل ذلك (وهذا مهم) كنا جميعاً نتمتع بصحة جيدة، ماعدا الأب كارلو الذي كان يعاني من ألم في البطن والإسهال. والشكر لله فقد قمت بمعالجته وتخليصه من كليهما. اليوم وجدنا آثار قافلة كبيرة في طريقها لمصر، وكانت آثار أقدامها ما زالت ندية على الرمال.

في الواحد والثلاثين من ديسمبر ١٧٠٠م تحركنا مجدداً، وكنا مضطرين لسلوك طريق جبلي وعر ومليء بالحجارة. وسقطت جمال أكثر من المعتاد. وقد أخذ خبزنا ومؤننا الأخرى في النفاد، وإذا قُدِّر لأحد أن يمنحنا المزيد لكُنا أكلنا كل ما عندنا في الحال. ولكن كان علينا أن نقسمه لثمانية أيام أخرى. وفي حوالي الظهيرة وصلنا إلى سالم أو سليمة، المكان الأخير لوجود الماء حتى وصولنا إلى الأراضي المأهولة. وقد حملنا من الماء ما يكفي لستة أيام. ولكنه كان ماءً أكثر طيناً وأسوأ رائحة من مياه الأماكن الأخرى وكان مر الطعم وكأنه ماء مالح. وقد قابلنا ثمانية جمال هنا جاءت لحمل الملح، فالملح متوفر هنا وقد أخبروني بأن هذا الملح يتم تجهيزه وتنقيته بواسطة الطبيعة كالآتي: عندما تمطر السماء فإن الماء ينحصر بين هذه الجبال. وبعد ذلك يتبلور مثل ذرات الرمال بفعل الشمس (مثل الجليد بسبب البرودة). وبذلك تكون الطبيعة قد كونت، ملحاً نقياً جيداً وناصع البياض من أفضل أنواع الملح الصخري.

وقد أخذت قافلتنا كمية منه. وبعد الظهر أعِدنا البضائع التي حملناها من الجمال النافقة في الطريق إلى أصحابها من الجَلابة، حيث أنه لا أحد ملزم في العادة الجارية المعهودة، أن يحمل هذه البضائع أبعد من هذا. ويمكن لصاحبها أن يتركها مدفونة هنا وأن يعود لأخذها بجمال جديدة نشيطة من مَشّو. وهذا المكان تحيطه جبال متقاربة وعِرة وحجرية صعبة. وطولها وعرضها نحو ألف خطوة. وفي السهل المنبسط وسط هذه الجبال: يوجد دِير قديم على تل ومقام من حوائط متماسكة الحجارة والمرصوصة بمتانة وبذلك كان الرهبان الذين يعيشون هنا في قديم الزمان يأمنون شر الحيوانات المتوحشة. وفي زمان مضى كان يقيم في هذا المكان رهبان من الأقباط. وكانت تصلهم إحتياجاتهم الحياتية الضرورية بواسطة القوافل المارة بهذا الطريق. وكان هذا المبنى مقسماً إلى ثمانية غرف صغيرة، ولكنها الآن متهالكة. وقد عاينتها وجُست خلالها بعد ظهر هذا اليوم. وقد حفرت على أحد الأحجار بواسطة إزميل إسمي وتاريخ اليوم والسنة. وبعدها ذهبت ومعي الأب كارلو وبعض البرابرة إلى جهة اليمين (الشرق)!! إلى الجبال للنظر في بعض عرين الأسود. وكنت خائفاً منها بعض الشيء، ولكن أدلاؤنا أخبروني بأنه من المؤكد أن الأسود في بعض الأحيان تأتي وتمكث هنا لبعض الوقت حيث أنها ليست بعيدة عن نهر النيل والقرى المأهولة، ويمكنها العيش بسهولة على الجمال التي تنفق هنا واصطياد بعض الحيوانات البرية، ولكنها تغادر المكان بمجرد سماعها لخطى القوافل الثقيلة. وفي هذه البلاد، وخاصة عندما يقترب المرء من شاطيء النيل، توجد كثير من الحيوانات المتوحشة التي يمكن أن تهدد وتسبب الأذى للمسافرين والسكان. وأرى الآن من المناسب أن أصف طباع وشراسة الأسد...فهو يمكن أن يروض ويصبح مستأنساً، وبغض النظر عن القصص من نواحي أخرى في أفريقيا، فإنني رأيت لاحقاً الأولاد في سنار

يأخذون اثنين من الأسود المستأنسة كل يوم لجولة حول الميدان الفاشر(٧). وكان البدو يقدمون لها اللبن لتشربه والجزارون يعطونها قطعاً من اللحم...

في الأول من يناير ١٧٠١م وعند احمرار الفجر كنا قد بدأنا السير وفارقنا سليمة، ولنحو ثلاث عشرة ساعة متتابعة، تركنا خلفنا أعلى الجبال، وأكثر الطرق الضيقة وعورة وخطورة وحيث أن الجمال تُقاد غالباً في أرتال تتابع الواحد تلو الآخر ويمكنني أن أسجل حقيقة أنه في كل وقت الرحلة لم تتعرض دوابنا لتحمل مثل هذا الطريق (الشاق) والمتعب ويوماً خطراً مثل هذا اليوم (ولن أعطي تقريراً عن أنفسنا، ولكنني سأترك ذلك لتقدير القاريء الكريم)، وفي الثمانية أيام والأربعة عشر يوماً التي قطعناها في رحلتنا خلال الصحراء لم تسقط العديد من الجمال تحت أحمالها، ولكنه من غير المصدق هذا الكم الكبير من الجمال النافقة التي مررنا بها اليوم في الطريق، وقد جفت جلودها تحت أشعة الشمس. وفي حوالي مغيب الشمس وعلى الجانب الأيمن من الطريق ظهر لنا ضريح لأحد الأولياء، الذي قضى الجزء الأكبر من حياته في هذا المكان الصحراوي «وأصبح ولياً» والبرابرة الذين ينتمي إليهم يعتبرونه من أكبر أوليائهم .وبجانب الضريح حيث دُفن هذا الولي كان هنالك غار حفر في الصخر.

وهنا يترك بعض الجلابة بضائعهم المختلفة التي ماتت الجمال التي كانت تحملها عبر الصحراء. وقد اعتبر هؤلاء البرابرة أن هذا المكان مكان آمن ومحل حماية. حيث لا يجرؤ أحد على النهب أو السرقة. ويتركون خلفهم أفضل بضائعهم وأقيمها تحت حماية هذا الولي. وبالرغم من أن هؤلاء المسلمين يتصفون باللصوصية ولكنهم لا يتملكهم أي خوف من فقدان أي شيء هنا. ويعتبرون أنه من المؤكد إذا أخذ شيء فإن الولي لن يتسامح بمثل هذا الفعل، ولن يمر التعدي على حرمة مكانه بدون عقاب الفاعل – وأسأل الله أن يتعلّم

المسيحيون الكاثوليك من هؤلاء (البرابرة المسلمين) أن لا ينهبوا، ويدنِّسوا وينتهكوا ويتعدوا على بيوت الله... المكرَّسة للمسيح نفسه. وفوق ذلك هنالك العديد من الهبات والنذور تترك هنا والتي يتعيش عليها رجال الدين من (فُقرا) دنقلا (وسوف أُعالج أمرهم في مكان آخر).

بعد زوال النهار خَيَّمنا تحت سفح الجبل، حيث عانينا من البرد وريح أشد من تلك التي واجهناها من قبل، وبسببها لم نستطع النوم تلك الليلة وقد (بقينا) تحت السماء المكشوفة وعلى أرض رملية وحجرية، وقد فرشت فوقها فروة من الجلد غير المدبوغ جيداً، في مكان سرير من الريش واستعملت كوسادة صندوقاً من الصناديق التي تحوي الأدوية والمعدات الجراحية، وبديلاً للبطانية كان غطائي ثوبي النوبي الأبيض. وهكذا كان مكان راحتي على الأرض وتحت السماء المكشوفة في كل رحلتي هذه.. وقسَّم الأب الرئيس علينا حصة من الخبز، وكانت الحصة أقل من رغيفتين من أرغفة (الكروتزر) للفطور، لأننا وكل القافلة كنا نعاني من الحاجة والمسغَبة. و قد اضطر البعض لترك بضاعتهم أمانة عند الولي، وذبحوا جمالهم حتى يتمكنوا من المحافظة على الحياة ولهذا فإن خمسين من الجمال قد ذُبحت في هذا اليوم. ولإنعدام الوقود ،كنا نجمع بعر الحمير والجمال، في كل رحلتنا خلال الصحراء لإيقاد النار. ولأن هذه النيران كانت تعطي القليل من الحرارة والكثير من الدخان الأزرق، كان من الصعب علينا طبخ اللحم والمواد والأشياء الأخرى بصورة كافية. وكان البرابرة يغرزون اللحم في أعواد صغيرة ويضعونها فوق هذا اللهب الخابي، الذي يدفئها قليلاً، وعندها يأكلونها والبعض الآخر كانوا يستمتعون بأكل اللحوم نيِّئة وخاصة الأحشاء الداخلية مثل الرئة، والكبد، والقلب والطوحال.. إلخ. ونحن أيضاً أكلنا هذه الأطايب النيِّئة الشهيَّة، وقد نثرنا عليها بعض الملح والفلفل. وقد كان طعمها طيباً بالنسبة لي.

اليوم عقد الأب جوزيف اتفاقاً مع أحد الجلابة؛ بأن (يعطينا) بعضاً من خبزه الأسود بشرط أن نحمل له ستمائة مثقال من بضائعه، للخمسة أيام القادمة، وحتى نصل أرضاً مأهولة. وقد وافقنا على هذا الاتفاق برضاء تام، و لم يكن الخبز كثيراً، وكان يمكن أن نحشو به (بطوننا) في الحال، ولكنه كان أكثر مما كان لدينا سابقاً. « يا رب نسألك أن تساعدنا في إكمال هذه الرحلة!!».

في الثالث من يناير ١٧٠٠ تحركنا باكراً وتابعنا سيرنا ساعتين أو ثلاث ساعات بعد المغيب، حتى يمكننا الخروج من هذه الصحارى والخلاص من هذا الجوع. واليوم وبسبب عدم وجود عَلف للحيوانات تم التخلُّص من العديد من الحمير، فقد أُطلِقت وتركت لمصيرها طعاماً للحيوانات المتوحشة خاصة الأسود التي تعيش في هذه الأراضي الصحراوية.

في الرابع من يناير ١٧٠٠م، عاودنا مرة أخرى سيرنا الحثيث مثل ما فعلنا بالأمس. وكان كل من في القافلة أشبه بالأموات من الأحياء، حيث إن هنالك العديد من الجمال، نسبة للحاجة الشديدة، تركها الجلابة بدون علف وطعام من إسنا إلى هذا المكان، بالرغم من أنها كان عليها أن تحمل أحمالاً ثقيلة لهذه المسافة الطويلة متعرضة للحر والبرد. وكنا نحن من ناحيتنا نطعم جمالنا بالفاصوليا ونسقيها كما تشاء في كل أماكن المياه. وبعض البرابرة كانوا أشبه بالأموات بسبب الجوع. وكان عليهم ترك العديد من الحمير في الصحراء مثل ما فعلوا بالأمس. وكانت الحمير قد بلغت من الجوع حداً جعلها لا تستطيع السير أبعد من ذلك ناهيك من أن تحمل شيئاً على ظهورها. وكان هذا أمراً محزناً عند رؤيته. وكذلك كانت الجمال تذبح من أجل الطعام وكان البرابرة يأكلون لحمها ويدفنون بضائعهم في الصحراء.

وبدلاً من الغداء أعطانا الأب الرئيس ما يعادل نصف كروتزر من الخبز المحمّص مرتين وكذلك فعل في المساء. وكان ذلك يعني عَضَاتٍ من الجوع

تجعل المرء يزدرد أي شيء يمكن أن يملأ البطن. وأنا جعلت من الحاجة فضيلة وأجبرت نفسي على أكل بعض لحم الجمال عسير المضغ وبعضه كان نيئاً، وخاصة الرئة، والكبد والقلب وأيضاً أي شيء آخر أمكنني الحصول عليه. وبدأت تدريجياً في التعوّد عليه، ولكن رفقائي لم يستطيعوا إجبار أنفسهم على أكله. وبعد ثلاث ساعات بعد المغيب نصبنا معسكرنا وعانينا من البرد الشديد والجوع والعطش.

في الخامس من يناير ١٧٠٠م استأنفنا سيرنا باكراً جداً. وبعد نحو ساعة بعد الشروق ونحن في طريقنا هبت ريح عاتية مرعبة حملت الحجارة الصغيرة ونثرتها هنا وهنالك بصورة عنيفة. وكنا في هذا الوقت على طريق صخري، ولو كنا في طريق رملي لكنا في خطر بالغ من دفننا أحياء تحت الرمال. وكانت الجمال لا تستطيع السير قدماً، ولكنها بَرَكت في مكانها و لم تكن هنالك طريقة لحملها على النهوض ومعاودة السير. وكانت الرياح أشبه برياح الشتاء تلقي بندف الجليد في وجوهنا. (٩)وكانت الريح تهب من الشمال وكنا نتجه شرقاً، وهذا جعل القافلة في حالة من الرعب والخوف العظيم وحتى اليأس من حياتهم. وقمنا بإنزال الأحمال من على الجمال وتخندقنا خلف الصناديق درءاً للريح من أن تصلنا. ولكن الرمال تكومت خلفها، وفي وقت وجيز غطت الصناديق والجمال. ومن هنا وصاعداً كان علينا شغل أنفسنا – حيث أننا لم نكن نرغب في فقداننا للجمال والأحمال بكاملها – بتحريكها من مكان إلى آخر. وكانت الرمال التي تهب قد جرَّحتنا وأسالت فعلياً الدماء على وجوهنا وأيدينا وأقدامنا التي لم تكن مغطاة بشكل جيد. والبرابرة، الذين لم يكونوا متغطين بشكل جيد، كانوا متأذين أكثر وكانت معاناتهم أكثر حدة وكان الواحد منهم ينظر إلى رفيقه الآخر ولا ينبس بكلمة. وبما أنه ليس هنالك وسيلة طبيعية من الممكن أن تنقذنا من هذا الخطر الماحق كنا

نحن المبشرين وحدنا الذين نحمل الإيمان المسيحي الصحيح ، الذي وحده يمنحنا الخلاص، لجأنا بالصلاة للرب. وأنا قمت بالتنحي جانباً من المجموعة وواجهت هذه الريح بالآثار المقدسة من الصليب الحقيقي المقدس وشوكة من الإكليل، وبواسطتها فقدت الرياح المزمجرة الكثير من عنفها أمام أعيننا مباشرة، وبذلك تمكنا من مواصلة سيرنا. واستمرت هذه الرياح لساعات، ولكن بمجرد أن بدأت في الهدوء بعد مباركة الصليب المقدس، بدأ البرابرة يهللون كعادتهم بلا إله إلا الله. ويشكرون ويصلون على نبيهم.

ثم تابعنا رحلتنا ونصبنا معسكرنا بعد ساعتين من مغيب الشمس، وكالمعتاد تحت السماء المكشوفة. وكان الاجهاد بسبب الجوع قد بلغ المرحلة التي كان كل ما تبقّى من طعام في القافلة لا يتجاوز الخمسين رطلاً من الخبز والبقوليات الأخرى، وكان ذلك القدر ينبغي توزيعه على أكثر من إثنين أو ثلاثة آلاف من البشر. والسبب في معاناتنا الكبيرة هذه كان ببساطة بسبب أننا تأخرنا أكثر من اللازم في الطريق وفي مصر، وكنا قد أُخبرنا في إسنا بأننا لن نسير أكثر من عشرين يوماً في الصحراء. والآن قد قضينا شهراً كاملاً في المسير وبالنسبة للبرابرة فإنهم تعودوا دائماً على التوجّه إلى الواح، وليس أبداً عبر هذه الصحراء.

في السادس من يناير ١٧٠١م لم نكن نبعد مسافة أكثر من عشر ساعات من مَشْوٍ، وقامت القافلة جميعها بالتحرك في منتصف الليل. وكانت جمالنا هي الأُولى بعد جمال (خبير) ملك سنار. وكان هذا بسبب يقظة برابرتنا الذين أسرعوا في تحميل جمالنا وتجهيزها وأحضروها إلى المحل الأكثر تشريفاً في القافلة. وعندما يتم تنظيم القافلة فإنه يجب على المرء أن يحافظ على مكانه. وقد شرعنا الآن في المسير بنشاط وبإندفاع إلى ما بعد شروق الشمس، وكنا نسير أمام كل القافلة بمسافة نصف ساعة. وكانت جمالنا من ضمن أكثر

الجمال قوة ونشاطاً. وبعد ذلك تركنا الجمال تسير ببطء أكبر، لأننا بدأنا نلاقي أشجاراً، وحشائش وطيوراً وذباباً، العلامة الأكيدة بأننا لسنا بعيدين من الماء والبلاد المأهولة، وفي الحقيقة كنا كذلك. والعديد من البرابرة واصلوا تقدمهم ليحملوا بشرى خبر وصول القافلة التي طال انتظارها وترقبها. وكنا فرحين ولكن أيضاً بؤساء ونصف جوعى. و شر الكل في عمل الخبز وشغلوا أنفسهم بعمل كل ما يمكن عمله لإعادة النشاط لنا ولدوابنا. ونحو الساعة العاشرة بدأنا في رؤية أشجار النخيل الجميلة التي تظهر في غزارة على حافة النيل ووسط القرى المأهولة.. وجعلنا جمالنا تسير ببطء حتى لحقتنا باقي القافلة والتي وصلت إلينا والتأمت مع بعضها البعض في حوالي الساعة الثانية عشرة، ووقفت على بعد ليس أكثر من نصف ساعة من مشّوَ. وكان سيرنا إلى داخل القرية جيد الترتيب منظماً ومثيراً جداً ومهيباً. وكان لدى معظم الجلابة عشرة أو خمسة عشر جملاً، بالرغم من أن آخرين لديهم جمال أقل. وكان كل جملين أو ثلاثة تسير معاً، وكان صاحبها التاجر يركب حصاناً أو حماراً، ومن معه من البرابرة والخُدام يتبعونه على الأرجل ويتركون مسافة بينهم وبين المجموعة التالية من الجمال. وكان منظراً بهيجاً للغاية خصوصاً و أن كل واحد قد لبس أحسن ما عنده من ثياب. وعندما سمع البرابرة بقدومنا وعندما ظهرنا في الأفق فعلاً للعيان، جاءت تعدو نحونا مجموعات منهم بالكثير من صيحات الترحيب بكل القافلة. وقد وقفوا حولنا وأحاطونا لمدة ساعة وفي هذه الأثناء أُمرت القافلة بالتوقف. وبعد ذلك ، محفوفين بالكثير من مظاهر السرور والفرح والابتهاج والصياح، سرنا على قرع طبول النحاس. وكان لدينا منها خمسة أطقم. وكان مسموحاً باستعمالها فقط لأولئك الجلابة خبراء وتجار ملك سنار، وقرِّي ودنقلا.

والطريقة التي تُقرع بها هذه الطبول هي كالآتي، فهي محمّلة ومشدودة على

جمل كما يفعل فرساننا ضاربي الطبول عادة وعلى ظهر الجمل يجلس شخص يحمل عصا كبيرة في يده اليمنى وأخرى أصغر كثيراً في يده اليسرى، وهو يقرع بثلاث أو أربع ضربات بالعصا الكبيرة ثم ضربة واحدة بالعصا الصغيرة، وبذلك يستمر في قرع النحاس. والآن لنعد لوصف سيرنا للدخول، كانت هنالك نحو مائةٍ وخمسين من الفتيات أتين من العديد من القرى وهن يلبسن أجمل ما عندهنَ حسب عادتهم ، جئن إلينا وسرنِ أمام القافلة بالصيحات العالية والمرح والغناء ثم بدأن في الزغاريد (كما يفعل عندنا صبيان المزارعين عندما يسكرون)، وقد ضحكت من قلبي. واستمر قرع النحاس بدون توقف حتى دخلنا في مَشُّو، واستمرت (الموسيقى) ثم وضعوا أنفسهم في الجانبين متقابلين إلى أن نصبنا معسكرنا، وحتى لا تتفوَّق عليهم زوجاتهم، قام الرجال بإصدار صيحات عجيبة ومرعبة شقّت عنان السماء (مما تحمل حتى الخنازير على الرقص). وهؤلاء الذين لديهم البنادق كانوا يطلقونها باستمرار، وقد وزعنا كل بنادقنا ومسدساتنا، مع الزناد وذخيرة كافية على برابرتنا الأمر الذي منحنا وكل القافلة سمعة عظيمة.

وهؤلاء الـ(moors) لا ينظرون إلى أي أحد مثل ما كانوا ينظرون إلينا. وربما كانت تتملكهم الإثارة نحونا نحن الأوربيين كما نفعل نحن نحوهم وكل منا يبدو غريباً في نظر الآخر. وهم يعتقدون بأننا أمساخ، فهم يعتبرون اللون الأبيض (كما نفعل نحن نحو اللون الأسود) مُنفِر وقبيح وليس طبيعياً. وعندما يرسم السودانيون الأربعة أشياء الأخيرة في الصُّوَر فإنهم يرسمون الملائكة المقدسة في السماء باللون الأسود، ويرسمون الشيطان باللون الأبيض.

وقد نصبنا معسكرنا على مرمى حجر من الجانب الأيمن من مَشُّو، أي جهة الشرق. وكانت الشمس قد غابت قبل وقت طويل. ويجب أن يعلم المرء بأن

في هذه البلاد (وكل المبشرين الذين يذهبون إلى تلك البلاد يجب أن يأخذوا في بالهم) أن هناك دويبة، ليست أقل من طول الإبهام(!!!) وتماثل النمل وهي توجد في الأرض في كل الأمكنة. ولها من القوة والطاقة التي تمكنها من قرض طريقها في كل الصناديق والحاويات وما أشبه، وتدمر وتخرب أي شيء داخلها. ولكنها قليلة الضرر في غير ذلك. ولهذا السبب كان كل فرد في القافلة قد شغل نفسه في جمع الحجارة والبقايا القوية من الأنقاض ليضع فوقها بضائعه، لأن هذه الدويبة تفقد كل قواها وطاقتها خارج الأرض ولا تستطيع فعل شيء.

سوف أترك لكل واحد أن يقدر لنفسه الحالة النفسية التي كانت فيها القافلة، بعد أن تخطت الأخطار العديدة في هذه الرحلة الشاقة، البرد القارس في الليل والحر اللافح في النهار، والجوع الذي لا يحتمل، وكل ما هو غير سار يمكن للطبيعة أن تحدثه للمرء في مثل هذا الطريق. وأخيراً وضعنا أقدامنا ورسخناها في الأرض المأهولة. ووصلنا إلى المملكة النوبية. وقد نصبنا خيامنا وأحطناها بقلعة دائرية مستعملين الصناديق والأحمال والمواد الأخرى ووضعنا الأشياء الصغيرة في الوسط حتى نضمن عدم اختفائها. وكل الجلابة الآخرين، الذين كانت لهم خيام مثل خيامنا، فعلوا كما فعلنا. وبنى الذين تم سلبهم في الطريق، بنوا لأنفسهم أكواخاً على طريقة العرب من البروش المتوفرة بكثرة هنا، حتى تقيهم حرارة الشمس والريح والبرد القارس الذي يحل في المساء والليل.. وبمجرد أن نصبنا معسكرنا جاءت النساء يعرضن علينا الدجاج والديوك والحمام والخراف واللبن، والعلف لإطعام الجمال والحمير وثمار الفاكهة وأيضاً الخبز. وهذا الأخير كان عجيناً سميكاً من الدقيق، وعلى كل فهو ليس مخبوزاً في الأفران، ولكن على أدوات دوكة من الفخار مثل الخيمة(١١) وطريقة عمله ووسيلته كالآتي: أنهم يتركون الدوكة حتى تسخن تماماً على

النار وبعد ذلك يقطعون العجين بسمك الأصبع. وعندما ينضج على جانب واحد يقلبونه على الجانب الآخر. وكذلك فإن أحد الجانبين يحترق تاركاً عجينة لزجة في الداخل، وحقيقة يمكن للمرء أن يصنع منه شرائح. وهذا هو الخبز الذي يأكله السكان والمسافرون بدون أدنى شهية سواء أحبوه أم لا. كان هذا الخبز أو الكِسرة، يجعلني أشعر بالغثيان عند النظر إليه، ولكن نسبة للجوع العظيم الذي كنت أشعر به أصبحت في النهاية أستسيغه. وهذا الخبز أو الكِسرة كما يُقال له بالعربية، لم يكن يصنع من القمح، وإنما يصنع من ثمرة أو بالأحرى من حبوب تسمى الذرة بالعربية. وهي تنمو على رأس قصب أطول من قامة الرجل وأكثر سمكاً من الإبهام. وله عدة رؤوس تحمل عدة قناديل من الذرة.

وتدرس رؤوس هذه القناديل بالمدقاق وتقوم النساء بعد ذلك بتذريته في الهواء (الريح) لتنظيفه والتخلص من القشور (البتاب) وبعد ذلك يضعونها في مقاطف مصنوعة من سَعف النخيل، وبذلك يمكن حفظها لسنة كاملة وهي طعامهم وعلف حيواناتهم؛ وهي والجمال يعتبرونها أعظم ثرواتهم. وهذه الذرة يتم طحنها بين حجرين (مُرحاكة)، كما يسحن الرسامون ألوانهم. وبعد ذلك يعجن الطحين ثم يتم عمل الخبز أو الكسرة. وهذا الخبز يُقدَّم دافئاً مع الماء، أو اللبن أو مرقة اللحم ويأكلون بالأيدي (حيث إنه ليس لديهم ملاعق في هذه البلاد)، وهم يجلسون بتربع الأرجل على الأرض. وقد أحضروا إلينا أيضاً بلحاً من أشجار نخيلهم. وهذه من الأطايب و لم أجد أبداً مثيلها بين كل الفواكه والثمار. والبلح الجيِّد يمكن الحصول عليه بثمن رخيص، مثله مثل الأشياء الأخرى، ولكنه لا يباع بالنقود. وخارج نطاق تبادلات جلابة القافلة فإن النقود غير مقبولة في هذه البلاد، وغير متداولة أصلاً. وفي القرية كما يقول المثل اللاتيني « إعطني وأعطيك أو «إعطني

القليل من المسامير الصغيرة، والفلفل، والإبر، والسنبل، وصوف أزرق اللون، وخشب الصندل الأبيض، وخاتم من قرون الجاموس والتي تلبسها النساء في أصابعهن وأذرعهن، كما نرى ذلك عادة في القاهرة، وأشياء أخرى مشابهة من الحلي الرخيصة والتفاتيف وسوف أعطيك مقابلها كذا وكذا مثلاً فرخ حمام، خروفاً، بلحاً، علف للجمال، حطب وقود، لبناً، كسرة، أو بيضاً أو أي شيء آخر». وكل شيء رخيص فمثلاً مقابل قبضة من الصوف يمكن أن تحصل على فرخ حمام، وفي مقابل ثمانية أو عشرة مسامير صغيرة تحصل على دجاجة، وهكذا. وإذا أردت أن أصف طريقة لبسهم فهي كالآتي، إن زيِّهم الأساس بلون الجسم حيث إنهم يتجولون شبه عراة وحفاة. والنساء يلبسن حول خصورهن أحزمة من الجلد بعرض الأصبع تتدلى منها سيور بطول شبر ونصف من الجلد الأسود. وبدت لي أشبه بشبكة طرد الذباب التي تجعل للحصين. والأولاد يتجولون عُراة تماماً حتى سن الثانية عشرة أو الخامسة عشرة، بينما أولئك الأكبر سناً يلبسون إزاراً من الجلد مثل ذلك الذي يلبسه الميكانيكيون عند العمل. وآخرون من النساء والرجال (يلفُون) حول الخصر أو الصُلب قماشا خشناً من القطن نحو ثلاثة أشبار في العرض وعدة أذرع في الطول، ويستعملونه أيضاً كغطاء لأنفسهم. وفوق ذلك فإن النساء في زمن الشتاء عندما يكون الطقس شديد البرودة في الليل، ولكنه حار جداً أثناء النهار، «حيث إننا في خط الطول الثاني عشر» يلفون أيديهم وأذرعهم وأعناقهم بقماش قيطاني، مثبت بحلقات صغيرة – زرقاء او بلون آخر– والنساء لديهن أيضاً شملة من الصوف البني مصنوعة من قطعة واحدة بطول أربعة أذرع، ونصف ذراع عرضاً، وتزيَّن بصوف أزرق اللون. وهن يلففنها حول الجسم. وبجانب ذلك فإن الجزء الأعلى من الجسم للشباب وكبار السن من الجنسين يكون عارياً تماماً في كل الأوقات.

ولا يكون ذلك لافتاً لنظر أحد باهتمام أو دهشة. وعلى المسيحيين أن يتأملوا هذا، فإن المرء لا يسمع هنا أبداً كلمة خارجة أو تعليقاً حول ذلك، ناهيك عن لمس غير محتشم أو تقبيل الخ... (بالرغم من أنهم يحيون حياة ليس فيها خجل في بيوتهم). وبالنسبة لملابس النبلاء، فإنهم يلبسون قميصاً طويلاً أزرق اللون يصل حتى الأقدام، وقد يكون بدون أكمام أو بأكمام تغطي وتصل إلى الكفين. وليس أقل انتشاراً قطعة من القماش الأزرق المخطط بالأبيض من القطن أو القطن المخلوط بالحرير وحتى من الحرير الخالص وهي تشبه الملاءات في طولها، وهم يستعملونها في محل العباءة، ويلفونها مرتين أو ثلاثة حول الخصر مثل الوشاح وحول الحقوين والأكتاف، وبذلك يتجولون بها. وليس هنالك من أحد يلبس غطاءً للرأس غير النبلاء الكبار أو الملك.

وسكان هذه البلاد يجعلون شعرهم مكان الطاقية نفسه. والرجال يضفرونه في ضفائر صغيرة خلف العنق، بينما تمشط النساء كل الشعر حول الرأس ماعدا مساحة بحيث لا تغطي خصلات الشعر الوجه كليةً. ولذلك فإن البشرة كلها تقريباً معرضة لحرارة الشمس وحتى لا تتعرض للتشقق فإنهم يدلكونها بالدهن وشحم الجمال والحيوانات الأخرى. ويخلطون هذه بمواد عطرية وطيوب ذات رائحة حلوة، وبذلك يتفادون انبعاث أي رائحة كريهة. وقبل حوالي مائتي سنة ماضية كان هؤلاء الناس مسيحيين متحمسين جداً. والآن أصبحوا مسلمين، ولكن، بالرغم من طبائعهم العامة البربرية، فإن حاكم هذا المكان «وهكذا سُمّيَ الأمير الكبير» أرسل لنا اليوم كتشريف خاص هدية، قدحاً مليئاً باللحم والثريد. وبالإضافة لهذا فقد طبخنا دجاجتين في تلك الليلة من أجل أن نستعيد قوانا. والحمد والشكر لله فإننا كنا في صحة طيبة. وبعد ذلك قام الأب جوزيف بزيارة الحاكم وحمل معه هدية مرآة، وقليلاً من الفلفل، ومسامير صغيرة، ورأس سكر وصوفاً أزرق، وخشب الصندل

الأبيض، وجذور السنبل ومواد أخرى من ذات الشاكلة. وقد رفعت هذه الهدية عالياً من قدرنا عنده. وعندما كان الحاكم يقابل الزوار كان يتربع على الأرض فوق حصيرة من السعف وكانت كل تحيته تتمثل في كلمتين يرددهما عشرين مرة، «إن شاء الله طيب... الخ» وفي لغتنا ذلك يعني «كيف حالك وأرجو أن تكون طيباً» الخ...

وبما أننا كنا متعبين وبائسين في الصحراء والتي وصفناها سابقاً، والتي والحمد لله قد تركناها وراء ظهورنا، ربما يريد القاريء المتسائل أن يعرف سبب عدم اتخاذنا طريق النيل من إسنا إلى النوبة، التي نحن فيها الآن، والأراضي المسكونة متفادين الأخطار المميتة والمحدقة والآلام لأنفسنا ولدوابنا. وأنا سوف أقدم هذا الجواب، فإننا بسلوكنا هذا الطريق الأطول قد تفادينا خطر أن نُنْهَب ونُسلب ونُقتل بواسطة العرب. فمن إسنا وحتى مملكة النوبة، «والتي تخضع لملك سنار» يحتل العرب معظم المناطق المأهولة. وهؤلاء من رعايا السلطان التركي الأعظم. ودائماً ما يثيرون الحرب على الحدود مع سكان النوبة المسلمين. والآن سأقوم بوصف هؤلاء العرب بطريقة مفصَّلة : صفاتهم الشخصية، أسلوبهم في الحياة، مساكنهم وملابسهم وصفاتهم الأخرى. فالعرب الذين في الصحراء بين مصر وأرض البرابرة، وكذلك الذين يعيشون في هذه الأرض النوبية ليسوا سوداً مثل السودانيين الأفارقة، ولكنهم يميلون إلى اللون البني الفاتح. ويعيشون حياة بائسة وقاسية. لأن الإقليم الذي يعيشون فيه قاحل تنعدم في أرضه الخصوبة. وبالتأكيد لديهم العديد من الجمال والحيوانات الأخرى، ولكن القليل من الطعام بحيث أنه بالكاد يقيهم من المجاعة.

وليس في أرضهم مكان مناسب لزراعة الحبوب ماعدا بعض القرى التي تنمو فيها أشجار النخيل والقليل من القمح. ومن حين لآخر فإنهم يبادلون

حيواناتهم بالحبوب ولكن هذه المبادلة نادراً ما تكفي هذا العدد الكبير من البشر. ولهذا السبب قد يبيعون أطفالهم حتى يمكنهم تدبير معيشتهم. وهذا البؤس يدفع هؤلاء الأعراب أكثر من الآخرين للنهب والقتل. فهم ينهبون كل من يمر بأرضهم، ليس هذا فقط ولكنهم أيضاً يسترقونه ويبيعونه. وهذا هو السبب في عدم تجرؤنا على المرور بأرضهم كل الطريق من إسنا، بالرغم من أن عددنا كان أكثر من ألفي جمل. ولذلك فضلنا أن نسير تحت الأخطار البالغة، والصعوبات خلال الصحراء في رحلة التفاف طولها يفوق المائة ميل ألماني، حتى لا نعرض أنفسنا لمثل هذه الأخطار المميتة. والعرب، الذين في النوبة حيث نحن الآن، أكثر خنوعاً، «ولكن القط لا يترك صيد الفئران».

و عندما يذهب البرابرة إلى مصر أو يعودون منها، فإنهم يسلّمون بضائعهم وما يملكون للقوافل الكبيرة، ويسيرون خلال هذه الأراضي عارين تماماً إلا من خرق تغطي عوراتهم وهذا يعني أن أمثالهم يسمح لهم بالمرور. وبما أنهم عراة ولا يحملون ما يستحق النهب، فإنهم يستضافون بل يقدم لهم المأوى خلال الليل والطعام والشراب. وقد كلفنا بعض هؤلاء البرابرة في مصر لإحضار رسائل حول سير القافلة، وأن يحملوا رسائلنا -عائدين إلى مصر- بأننا وبعون الله سوف نكمل الرحلة قريباً.

ويعيش هؤلاء الأعراب حياة لا تخاف الله، حياة خشونة ولصوصية، لا يحكمها دين أو شريعة بالرغم من أنهم يُظهِرون أنهم مسلمون. وهم قوم ضعاف البنية جائعون ومأفونون ومعتوهون، ويدفعون يومياً ثمن نهبهم وقتلهم، بالشقاء وبالرغم من أنهم يتحملون ذلك بشجاعة، ولكن هذا لا يخلصهم. وهم يحتقرون العمل اليدوي، ويعظمون الكسل ويفاخرون بحياتهم غير المسئولة وغير المبالية، لأن تلك هي الطريقة التي يعيشون بها، وهم يعتبرون أن ليس هنالك مكان (أحسن) و أطيب في كل الدنيا

و أكثر سعادة من (موطنهم)، بالرغم من أنه ليس هنالك مكان أكثر بؤساً يمكن أن يوجد (تحت) السماء و(فوق) الأرض. ويجدون المتعة الخالصة في أكواخهم وأسمالهم ويفضلونها على حياة القصور الباذخة والملابس الفاخرة للأمراء والملوك العظام. ويمكن للمرء أن (يصفهم) بأكثر النُساك سعادة لولا أنهم يحيون في ظلام حياتهم غير الدينية، التي لا تعرف رباً (بالرغم من إسلامهم) بأرواحهم وأجسامهم السوداء. ولو أضاء لهم نور الايمان المسيحي الكاثوليكي والذي وحده يهب الخلاص، فإنهم ربما – بحب المسيح – سوف يحتقرون ويضعون تحت الأقدام الأوهام في متاع هذه الدنيا الزائلة والخادعة والتي تطعن بأحدَّ من الأشواك. وينصب هؤلاء العرب خيامهم وأكواخهم بالقرب من بعضها في صفوف كالزريبة (السياج) ويحفظون كل مواشيهم بالداخل. ويجعلون الأرض الجرداء في مكان الأسرَّة المفروشة وهم لا يقيمون دائماً في مكان واحد. ولكنهم يتجولون هنا وهناك مع خيامهم التي ينصبونها حيثما وجدوا مكاناً مناسباً. والرجال والذين كان منهم عدد كبير مع القافلة ، يلبسون على رؤوسهم، بعكس طريقة العرب الآخرين، شريطاً من قماش رخيص أبيض أو أحمر، ويلفونه بطريقة خرقاء بحيث أن طرفاً منه يتدلى من الأمام والطرف الآخر يتدلى من الخلف، وليس لديهم أحذية أو جوارب، ولا قمصان (عراريق) أو ألبسة أخرى، ولكنهم يغطون أجسامهم بقطعة من القماش عرضها ثلاثة أشبار وستة أو سبعة أذرع طولاً. وهذه القطعة من القماش من القطن ولكنها خشنة جداً ومنسوجة بخيوط متفرقة متباعدة مما يمكن الرؤية كثيراً من خلالها. وهم يلفون هذه القطعة عدة مرات حول الخصر، ويغرزون طرفها على الجانب عند نهايتها. وتلبسها النساء بنفس الطريقة والأجزاء العليا من أجسامهن عارية في كل الوقت. وهن يضفرن شعرهن بطريقة تشبه رَسَن البقر متدلية في كل الجوانب. وهو

مغطى بالشحم والودك و(الدهن) حيث يبدو وكأنه تِرْس (عَجَلة مُشَحَّمَة) أكثر منه خصل من الشعر. وتنبعث منه رائحة مرعبة حقيقة، يمكن أن تصيب المرء بالإغماء. ومن أعظم وأجمل المجوهرات في اعتبارهم إذا تدلّت من هذه الخصل السوداء القذرة حِليّة من أسنان السمك والزجاج البندقي، أو حلقات من النحاس أو قطع من الزجاج أو الودع. والنساء ذوات الثراء يعلقن عليه عملات من الفضة، وسلاسل من النحاس أو تعويذات وحتى عملات من الذهب البندقي. ويرسمون بنثار مسحون من حجر أسود لا يزول أثره أنواعاً من الوشم على الجبهة، وعلى الخدود، وعلى الإبهام، وعلى الصدر والأقدام. وقد رأيت البعض يرسمون علامة الصليب، ويلبسون في أعلى الأيدي (العضد) أسورة من الخشب، الزجاج، أو قرن الجاموس، ويعلقون حلقات كبيرة من النحاس على آذانهم. وقد رأيت الكثيرين يلبسون في فتحات الأنف أزِمّة من الصفيح أو الفضة الأمر الذي يذكرنا بالطريقة التي يقاد بها الدب البولندي وهذا الاستعمال شائع عند النساء، في كل المملكة النوبية وأراضي السودان (المسلمين) الأخرى التي مررت من خلالها.

وأدوات وأواني الطبخ التي يستعملونها من واحدة أو عدة قدور فخارية يطبخون فيها الطعام. والطعام في العادة يتكون من أرز أو بقوليات (بليلة) أو عدس. ولا شيء من المشروبات غير الماء القراح ويستعملون لذلك قرعة مقسومة نصفين ومفرغة. وكنا نحن أيضاً نستعمل هذا الإناء. وفي مكان غطاء المائدة، فإنهم يجلسون على الأرض أو على برش (حصيرة) تنسج من أوراق جريد النخل. وكل بيت لديه آلة طحن (مرحاكة) لطحن القمح أو الذرة (وقد تعرضت لها في مكانها) وهذه الآلة تتكون من حجرين يدوران فوق بعضُهما بواسطة عصا أو بواسطة الأيدي كما يسحن الرسَّام ألوانه وهم يخبزون الخبز كل يوم، ويجعلون الطحين في قدر كبير ويخلطونه بالماء

ليصبح عجيناً، ومنه يصنعون قطعاً كبيرة ويخبزونها تحت الرماد. ويأكلونها وهي دافئة وبينما يكون سطح الخبز قد نضج يكون داخله ما يزال لزجاً. وهم لا يأكلون طعامين في وقت واحد فإذا كان المقدم من اللحم فإنهم يأكلونه وحده، وبعد ذلك يأكلون الخبز. وأكلهم قليل جداً ولذلك فإنهم نادراً ما يصابون بالنقرس (القاوت) والأمراض التي تنتشر عند الأوربيين. وأطرافهم قوية وأصحاء الأبدان ويعمرون في الحياة ويعيشون حتى يصلون إلى أعمار كبيرة. وطعامهم المفضل هو الخل والزيت والخبز. وعندما يموت الواحد منهم، فإن الزوجة أو أقرب النساء من الجيران تخرج من خيمة المتوفى، وتبدأ بالصياح بشدة والعويل.. وعند سماع هذا العويل فإن النساء يأتين مسرعات ويبدأن أيضاً في البكاء والعويل ويأتين بحركات مخيفة ومرعبة، وأنا عندما رأيت أحد هؤلاء الأعراب يُدفن، أصابني الخوف. وفي وسط هذا العويل والبكاء تبدأ نساء أخريات في مناحة ذكر محاسن ومناقب الفقيد، وقد بدت لي هذه الأصوات والحركات مرعبة لدرجة أن المرء يُصاب بهلع ويقف شعر رأسه. وأخيراً أخرجوا الجنازة وحملوها لدفنها على طريقة المسلمين في الساحة المخصصة للمقابر ويضعون العديد من الحجارة الصغيرة من الحصا على القبر. وهذه الحجارة يجدونها ويجمعونها من الصحراء.

و ينتخب العرب زعيماً أو أميراً يتميز بارتداء ملابس أحسن قليلاً من باقي رهطه. وتُنصب خيمته وسط الخيام الأخرى، وهو يضع شئون ورفاهية رعاياه فوق كل شيء. وفي هذا الشأن فهو يشجع السرقة، والنهب والقتل، سلوكاً وفعلاً فهو قد وُلد لمثل هذا (العمل). ومن الأسلحة يستعملون حربة صغيرة يقذفونها وسيفاً بنصف طول الرمح. وهم حاذقون في قذف هذه الحراب بقوة ومهارة ودقة كبيرة حتى أن الشخص لا يكون في مأمن منها على بُعد ثلاثين أو أربعين وحتى خمسين خطوة. و هم يحملون عادة فوق

الكوع الأيمن خنجراً عريضاً وحاداً داخل غمد من الجلد ومربوط بسيور على العضد. وهم لا يجدون موضعاً أحسن لحمل هذه السكين. فهم يسيرون عُراة تقريباً. وهم حاذقون في كيفية الإصابة بها بسرعة ومهارة. وهذا يكفي من حديث عن هؤلاء الأعراب.

في السابع والثامن والتاسع من يناير ١٧٠١م، إشترينا كل الضروريات والاحتياجات، لأنفسنا وجمالنا وحميرنا. ولأن اليومين كانا جمعة وسبتاً. فقد اكلنا القليل من القمح المجروش المغمور باللبن.

في العاشر من يناير ١٧٠١م تم استدعاؤنا لمعاينة رجل مريض، وكان يعاني من حبس بول حقيقي، وقد عالجناه ومن حسن الحظ شفي في أيام قليلة. وفي الحال أرسل لنا فرخ حمامة، مع الوعد بأنه عندما يشفى تماماً سوف يرسل لنا المزيد من الأشياء.

في الحادي عشر من يناير ١٧٠١م وقبل طلوع النهار مات أحد جمالنا. وكان أجملها وأقواها وأصغرها. وكان يحمل حمولته بخفه في كل الرحلة. وقام برابرتنا بالإجهاز عليه بسيوفهم قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة. وقد قسمنا اللحم على برابرة القافلة. ونحو منتصف النهار قام الرجل الذي شفيناه من مرضه والذي ذكرناه عاليه - بإهدائنا جملاً كبيراً وقوياً وجميلاً بمثابة تعويض. ولأنه وجد نفسه قد أصبح معافىً كما كان وأمكنه التَبوّل. وبهذا فإن الرب العظيم قد وفَّر لنا خدماتنا الطبية واحتياجاتنا.

في الثاني عشر من يناير ١٧٠١م، قام بزيارتنا إبن الأمير الذي كنا قد أهديناه حفنة ملء اليدين من الصوف وبعض البنُ، وكان يلبس كأحد البرابرة، وكانت ملابسه تتكون من القطع التالية وبالتحديد، قميص أزرق اللون، ويتمنطق حوله بقطعة (قماش) مخططة بالأبيض والأزرق ومطرزة بمثابة

عباءة، وفي يده سيف طويل يبدو أنه يعود إلى زمن حرب الأمبراطور شارلس، وجوز (حذاء) نعالين يتكون من سيور بدون جزء مغطى فوقها ومعمولة في شكل صندل (شبط). وكان حاسر الرأس ويتبعه أربعة من العبيد. وقد كان والده جاء إلى القافلة اليوم لزيارة التجار الذين يحملون بضائع ملك سنار. وكان طقم ملابسه يشمل قميصاً أزرق، (وثوباً كتاني) أبيض طويلاً موشى مع (لون أحمر) مع زيق من الكتان الأحمر. وكان يركب حاسر الرأس حصاناً أصيلاً وثميناً، وكان السرج حسب عادة البلاد أشبه بالكُرسي. وهو محيط بظهره حتى الأكتاف. ومن الأمام قربوس طويل وعالي يغطي مكان القلب،ويشكّل له حماية من طعنات السيوف، والسرج يقف متعامداً قائماً من عنق الحصان.

في الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر من يناير ١٧٠١م، كنا منشغلين بشراء احتياجاتنا من (المواد الغذائية) الضرورية لنا ولجمالنا. وقبل مدة قليلة بدأت كل الأشياء في الغلاء، وفي النهاية لم يعد هناك ما يمكن الحصول عليه. وقبل أيام قليلة كان يمكننا مبادلة ثمانية أو عشرة مسامير صغيرة مقابل دجاجة، والآن علينا – عادة – أن ندفع عشرين بطيب خاطر. ولا بد للمرء أن يعلم بأن مشُّو مكان صغير، وأن أناسه، قد خَلدوا للتبطل وبالرغم من أنهم يملكون أكثر الأراضي خصوبة وقابلة للزراعة ولكنهم لا يستغلونها كما ينبغي أو كما يستطيعون ولا توجد أشجار لفاكهة مثل الخوخ والتفاح وأشجار الثمار ذات النواة. ولكن بالتأكيد فإن البلح يوجد في هذه البلاد بوفرة كبيرة وهو أكثر فائدة وأحسن وصحي وهو ثمرة تفوق كل ماعداها، ويمكن حفظها لسنين عديدة.

من السادس عشر وحتى العشرين من يناير ١٧٠١م ما زلنا باقين هنا، ولكننا نعيش في حالة مزرية بائسة جداً، و لم نكن نستطيع الحصول على أي مواد

غذائية لأنفسنا، ولبرابرتنا ولجمالنا ولحميرنا، ولكن ساعدنا كثيراً قيامي بإعطاء علاج لكل من قصدنا من المرضى. وفي مقابل جهدي وتعبي كنت أحصل على دجاجة صغيرة أو حمامة. وفي هذه البلاد لا توجد أمراض خلاف حصر البول، والدمامل، والسعال وإلتهاب العيون، والسفلس (الحلق) أيضاً من الأمراض الشائعة. والسبب الذي جعلنا نمكث هنا هذه المدة الطويلة أنه قبل نصف سنة ماضية أصيب شخصان من قافلة مثل قافلتنا بالجدري وهو في هذه البلاد أشد فتكاً من الطاعون ويموت أكثر الذين يصيبهم المرض. ولذلك فإن شيخ أو حاكم هذا المكان، والذي ذكرته طلب أما أن تعطيه القافلة هدية كبيرة وإلا فإنه سيرسل إلى ملك سنار بأن هذا المرض قد تفشى في القافلة. وحتى نتجاوز هذه العقبة، وكان على كل واحد أن يعطيه قطعة من الصابون عن كل جمل في القافلة وبذا عطلنا القافلة لهذه المدة الطويلة بتكاليف باهظة بالنسبة لنا. وتهديده بإعلام ملك سنار، بأن القافلة ينتشر فيها الجدري يعني أنه هو نفسه لن يستطيع مغادرة هذا المكان لمدة سنة ويوم. ولكننا كنا نؤمل في مغادرة هذا المكان في ظرف يومين أو ثلاثة. وفوق ذلك فقد إستعدنا قليلاً من قوتنا وعافيتنا التي فقدناها في عبور الصحراء (ولله الحمد والمجد والمنة وأعظم الشكر) .وعندما أسترجع البؤس والشقاء، والصعوبات الكبيرة وخطر الموت في كل ساعة، والجوع العظيم، والعطش والحر والبرد، ليلاً ونهاراً وبدون راحة أو أمان وكل ما تحملناه لحوالي خمسين يوماً، عند تذكّره يقف شعر رأسي حتى نهايته.

في الحادي والعشرين من يناير ١٧٠١ وصل إلى هنا بعض البرابرة قادمين من مصر وكانوا يسافرون خلال الأراضي المأهولة (وهذا يعني الأراضي المحاذية المجاورة للنيل) وكانوا يسيرون على الأقدام. ولا يلبسون شيء سوى ملابس بالية. فهم بهذه الطريقة يمكنهم المرور بين العرب وفوق ذلك أيضاً يستمتعون

بضيافتهم وطعامهم. وقد جاءوا بأخبار بأن العرب ما زالوا في الصحراء عند الواح مسافة ستة أيام من أسيوط، ولذلك فإن الجزء الذي تبقى من أفراد قافلتنا ما زال ينتظر في أسيوط. وإذا لم يكونوا يرغبون في أخذ الطريق الذي سلكناه، فإنه من المؤكد أنهم سوف يبقون هناك حتى يصل كاشف أسيوط إلى سلام مع العرب بإعطائهم قُرى تمكنهم من كسب عيشهم، أو يتمكن من هزيمتهم بقوة السلاح في معركة في الصحراء. ومن المؤمل أن يتم الأمر الأخير لأنه إذا لم يتم ذلك فإنه ليس هناك قافلة يمكن أن تسافر إلى أي مكان. وقد أخبرنا هؤلاء البرابرة أيضاً، بأن جزء القافلة التي فارقتنا (انفصلت) عنّا في الصحراء للعودة إلى مواطنها، قد تمت مهاجمتها من قِبَل هؤلاء العربَ بالرغم من أنهم من مواطنيهم،وتم قتلهم جميعاً وأخذت جمالهم وبضائعهم ، وكان هؤلاء العرب ينتظرون قافلتنا، ولكننا لم نقع في أيديهم بفضل عناية الله، بالرغم من أنهم ساروا ليلاً ونهاراً للحاقنا.

وصف الرحلة من مشُّو إلى دنقلا

في الثاني والعشرين من يناير ١٧٠١م تحركنا في نحو الساعة الحادية عشرة صباحاً وكنا نحو نصف القافلة فقط، ثم نصبنا معسكرنا قبل مغيب الشمس بساعة في الصحراء، قريباً من الأراضي المأهولة.

اليوم خرج في إثرنا شيخ مَشّو. وكان يلبس زيّاً يتكون من قميص نوبي أزرق جميل وفوقه ثوب من الحرير الأبيض. وكان في معيته نحو عشرة أو أثنا عشر شخصاً يمتطون جياداً نوبية في غاية الحسن والرشاقة، ومجموعة أخرى راكبين على الهجن. وتتبعهم نحو خمسين أو ستين من النساء. وهم كعادتهم يتصايحون ويمرحون ويطلقون الزغاريد (قُوا... قُوا.. قُوا) ويتقدمهم شخص يركب على هجين قوي وهو يضرب على النحاس. وقد نزل «بنّة» عند ذلك البربري الذي كان قد شرفنا بإهداء الجمل عندما عالجناه من المرض في وقت سابق.

نزلنا نحن أيضاً في هذا المكان. وبمجرد أن علم هذا البربري بوصولنا أرسل لنا في الليل قدحين من اللحم كإشارة أخرى على إمتنانه وتقديره لتسببنا في شفائه.

وفي أثناء الطريق اليوم، إلتقينا بزعيم كل هذه القرى. وكان يركب برشاقة على ظهر حصان عربي أصيل وعلى فمه كدوس (غَليَون)، ويتبعه أربعة من العبيد راجلين وأربعة من الفرسان. وكان يلبس قميصاً نوبياً من الكتان بدون أكمام ،والذي إذا عَصره المرء فإنه يستخلص منه قدراً كبيراً من الدهن. وحول حُقَويه شال قُطني مُخطط بالأزرق والأبيض طوله عدة أذرع. بالإضافة لهذا فهو يرتدي بنطالاً تركياً أزرق، وعلى رأسه طاقية مصنوعة من القطن يلفها بشال من الحرير في مكان العمامة وقد سلم علينا بطريقة ودية، وأكّد لنا

بأنه علم أن الأب بريفندت من جمعية يسوع، الذي ذهب إلى أثيوبيا قبل سنتين برفقة الآباء الثلاثة، باسكويل دي مونتلا، أنطونيو ديللا تيرزا وبنديتو دا تريبالدا، قد مات في الطريق. وبعد أن أنزلنا أحمال جمالنا شغلنا أنفسنا بجمع الحجارة وكُتل أخرى من الأنقاض وضعنا فوقها صناديقنا وأغراضنا، لأنه في مشُّو وفي هذه الأنحاء يوجد هناك نوع من النمل الأبيض (الأرضة) تقرض وتشق طريقها داخل الصناديق وكل ما يقف على سطح الأرض كما أشرنا من قبل.

في الثالث و العشرين من يناير ١٧٠١م، قضينا كل النهار في المعسكر بدون حركة بأمر هذا الشيخ. وكان ذلك بالنسبة لنا من أشقَّ الرحلات.

وفي الرابع والعشرين من يناير ١٧٠١م، وبعد مفاوضات معقدة حصلنا على الإذن بمواصلةِ الرحلة. واليوم ركبنا لمسافة حتى بنَّة ، والقافلة قد سارت أبعد من ذلك. ويجب أن يعرف المرء أن مشُّو وبَيَنَه والأماكن الأخرى المشابهة ليست مجرد قرى فقط، ولكنها منطقة كاملة تمتد لعدةِ اميال بمحاذاة للنهر وكلها تعرف بهذه التسمية.

في الخامس والعشرين من يناير ١٧٠١م، جاء إلى معسكرنا عدد كبير من البرابرة متوترين غاضبين، وكان هنالك في المكان ثلاث مجموعات، نحن أنفسنا وحسن وتاجر آخر من تجار الملك. وهؤلاء البرابرة الذين كانوا في غاية الثورة علينا. وقد أبدوا إستياءهم من ملابسنا مدّعين بأننا لا نسير بملابس لائقة كما يفعلون. وقد جلسوا بيننا وعلى صناديقنا.

وعندما حاولنا المُضي قُدُماً ردوا علينا بهذه الإجابة: «هنا وليس في أي مكان آخر سوف تبقون» ونعتونا بالكلاب، والملونين وتجرأوا على الطلب منّا التحوّل إلى الإسلام (الدين المحمدي) إذا لم نكن نرغب في تجربة عنفهم وقسوتهم. وعند هذا التهديد الخطير صعد الدّم إلى رأسي واستعددت

للاستشهاد، وقد قلنا لهم «أننا مسيحيون وأننا سوف نظل نحيا ونموت في حب المسيح، الايمان الوحيد الذي سوف يأتي بالخلاص. هل تريدون شيئاً آخر منّا؟»».

ولما رأى حسن وتجار الملك الآخرين هذا الاستفزاز الكبير والعظيم دخلوا وسط البرابرة بسيوفهم وهددوهم بفقدان حياتهم، وأمروهم بالخروج من القافلة. الأمر الذي تجاهلوه و لم يستجيبوا له. وادعوا أنهم هم وليس نحن الدخلاء في أرضهم وسألوا تاجري الملك الاثنين «ألا تشعرون بالخجل من مرافقة مثل هؤلاء المتنطعين أعداء الدين المحمدي (الإسلام) وأن تحمونهم كذلك». وأنه من الأفضل تقديم قربان من الدم لله ولرسوله، وقتلنا جميعاً، وذبحنا كلنا، بدلاً من تركنا أحياء.

إستمرت هذه الملهاة لأكثر من ساعتين، في خلالهما لم يكن هناك نية أخرى غير إهدار حياتنا. وعندها قررنا جميعاً أن نسكب آخر قطرة من دمائنا من أجل ديننا، والذي وحده يجلب الخلاص. والتاجران اللذان وقفا معنا كان عليهما الآن وقف الغضب وتمرد التجمع. و لم نكن نعرف ماذا سيحدث تالياً. وفي نحو الساعة التاسعة طلبوا منّا أن نمتطي جمالنا وأن نحث الخطى نحو بقية القافلة وذلك ما فعلناه. وليكن هذا تحذيراً لكل المسافرين بأن لا يفارقوا رفقاءهم أو جماعتهم، بالرغم من امكانية التوفير أكثر إذا كنت وحدك. ولكن مثل هذا التصرف قد يكلفك كل ما تملك.بما في ذلك حياتك. وعند مغيب الشمس وصلنا زافري (Zafrie) حيث كانت القافلة كلها مجتمعة هناك.

في السادس والعشرين، و السابع والثامن والعشرين من يناير ١٧٠١م كانت كل القافلة في حالة ثبات وعدم حركة، الأمر الذي كان يضغط علينا بثقل أكثر من السير المستمر قدماً.

في التاسع والعشرين من يناير ١٧٠١م تحركنا نحن وحسن وتجار آخرون بإذن، بالرغم من أن آخرين كثيرين لم يتبعونا. وبعد ساعتين من المسير نصبنا معسكرنا وسط حقل منبسط، حيث لا توجد بمحاذاة نهر النيل مدينة أو قرية محددة ولكن كان كل بيت يجاور الآخر وكلها محاطة بحدائق جميلة من النخيل. فواحدة من المناطق تُسمى مَشُّو وأخرى زافري (Zafrie) والأخرى بنّة.. إلخ.

في الثلاثين من يناير ١٧٠١م وفي الساعة الثامنة رأينا القافلة التي بقيت خلفنا تسير نحونا، وفي هذه الأثناء جاء ثلاثة من البرابرة يمتطون جياداً تليق بالأمراء وأمرونا بعدم التحرك حتى جاءت إلينا القافلة كلها. وجرح البعض الذين لم يرغبوا في طاعة الأوامر بالسيوف. وصدر الأمر بعدم التحرك في هذه الليلة. وقد استفدنا نحن من الإذن الذي حصلنا عليه بالأمس، ولكن الآخرين أُمروا بالعودة إلى مخيماتهم السابقة. والذين يرفضون يعتبرون متمردين على الملك. و اضطر الجميع للرجوع.

منذ ثلاثة أيام وصل حاكم آخر يتبع له حاكم مشُّو، وقد طلب قطعة من الصابون من كل جمل في القافلة.

في البداية، رفضت القافلة الدفع، ولكن لتفادي المكوث هنا لشهر آخر دفعنا الأتاوة المطلوبة كما فعل كل الآخرين المسافرين معنا. وفي المساء بعون الله تحركنا إلى دنقلا. ولا شيء يمكن أن يسبب لي إزعاجاً أو توتراً أكثر من أن لا يكون الآباء الجزويت معنا. والصابون ينظر إليه بتقدير في هذه البلاد وقيمته كبيرة. ولا يعرف السودانيون المحليون كيف يصنعونه. ولكن لأن ملابسهم وأجسادهم مشربة بالدهن الصافي، والشحم فهم في حاجة شديدة له.

في الواحد والثلاثين من يناير ١٧٠١م، كنا مستعدين للسير بعد ثلاث

ساعات بعد حلول الظلام (وهنا كما دائماً فأنا أعني التوقيت الألماني وليس الإيطالي) وسرنا طوال اليوم بدون راحة حتى ولو لربع ساعة و لم نأكل شيئاً سوى القليل من التمر.

وفي السابعة وصلنا أخيراً إلى باكبري (Backbri)وهناك ركزنا أنفسنا. وخلال الطريق قابلنا بعض البرابرة الذين سألونا :من هو القديس الذي قادنا إلى هذه البلاد؟ و لم ينقض عجبهم من كوننا بيضاً ونلبس جيداً، بينما هم عرايا وسوداً بالكامل. وقد رد عليهم الأب جوزيف بإجابة طريفة ولكنها كانت مسيئة جداً بالنسبة لهم.

في اليوم الأول والثاني من فبراير ١٧٠١م، تحركنا مجدداً واندفعنا في السير كما فعلنا بالأمس قبل أربع ساعات من طلوع النهار وحتى الساعة السادسة مساءً، حيث نصبنا معسكرنا في القولد. ومررنا اليوم بأطلال كنيستين قديمتين جداً. وقد أخبرنا البرابرة أن هذه المملكة منذ نحو مائة سنة ماضية كانت ما زالت تدين بالملة (كما وصفوها بكلماتهم) ويقصدون بذلك الدين المسيحي.وقد عرجنا للنظر إليها وقد رأينا المذبح وبعض الرسومات وبالرغم من ذلك فقد اعتقدنا أن القديس أنطونيو أباس مُصوّرٌ على أحد الجدران.

في الثاني من فبراير ١٧٠١م تركنا مجدداً المعسكر بعد ساعتين من منتصف الليل و واصلنا السير لمدة ١٢ ساعة كاملة. واليوم وبالأمس كنا نمر على قُرى في غاية البؤس، ليس فيها حياة ومهجورة. وليس فيها أشجار نخيل ولا زراعة، والرمال تصل مباشرة إلى النهر على الجانبين من النيل. والصحراء تشبه بالضبط تلك التي كنا نسير فيها منذ اليوم الأول لمغادرتنا أسيوط في مصر، وبدون أن نضع قدمنا على مكان مأهول ونجد فيه مكاناً للإقامة عندما كنا نسير قدماً. وفي هذه الصحارى غير المسكونة وجدنا الحنظل، الذي ينبت في سهول الأراضي الرملية، وأيضاً أجود أنواع السنامكة، وهي تنمو

على سيقان صغيرة مثل ثمر العُلّيق، وهي تنمو كالحشائش في وفرة وغزارة، بحيث أن المرء يمكن أن يُحَمِّل سفينة كاملة من هاتين النبتتين. وفي هذا المكان الذي نحن فيه الآن فإن الليل والنهار يتساويان في الطول تقريباً، حيث أننا لم نكن بعيدين من خط الاستواء وبعد ساعتين من غروب الشمس كنا جاهزين للسفر.

في الثالث من فبراير ١٧٠١م بعد نحو ساعة من منتصف الليل مررنا بجانب عاصمة النوبة، والتي تُسمى دُنقلا(×)، وهناك أعادت القافلة كلها ترتيبها وأراد السيد حسن أن يأخذنا إلى منزله والذي يقع على مسافة أربعة أميال كاملة من دنقلا، من أجل أن يوفر علينا وجمالنا بعض النفقات. وقد وصلنا إلى هناك نحوالساعة التاسعة صباحاً ونصبنا خيامنا على بقعة جميلة على جانب النهر. وما لبث حاكم دنقلا أن سمع بأننا لسنا بعيدين، ومن فوره بعث أربعة من الفرسان لأمرنا بالرجوع. وقد رفض حسن هذا الأمر بقوة، قائلاً بأن لديه أوامر من ملك سنار، الملك الأعلى للنوبة، بأن يوصلنا إليه بحسبان أننا أطباء الملك. ولأن ما نحمله من بضائع وأغراض تتبع للملك نفسه فإن ملك دنقلا ليس له حق عليها. وعلى كل حال، أرسلنا له عشرين قطعة من الصابون لأن كل جمل عليه أن يدفع قطعتين كجمارك. والحمد لله فإننا قد قطعنا نصف مسافة رحلتنا من أسيوط إلى سنار ونسأل الله العلي القدير أن يوفقنا في المضي قُدُماً. وفي صباح اليوم التالي في الساعة التاسعة صباحاً جاءنا إبني الحاكم الإثنان ومعهما عدد من البرابرة على ظهور الجياد، ليسلمانا الأمر من والدهم للعودة إلى دنقلا. وإذا رفضنا أن نذهب طوعاً فإنهم سوف يحضران جمالاً ويأخذان بضائعنا بالقوة. ومرة أخرى رفض السيد حسن هذا الأمر من فوره وبعث بمرساله الشخصي ليُعلِم الحاكم بأن عليه أن يعي بأننا ذاهبون إلى سنار كأطباء للملك وأننا نحمل بضائع الملك.

وهنا يجب أن يذكر المرء بأن الأب باسكويل بصفته طبيب خاص لملك سنار، حصل على خطاب بمرسوم من الملك يفضي بموجبه على أن كل البضائع والأغراض التي أُرسلت أو ترسل بإسم الأب باسكويل، أو التي أحضرها بنفسه يجب أن لا تُمَس. ولكن لأن الشيخ أو الحاكم أصر بعناد على تنفيذ قراره وأراد حسن في المقابل رفض التنازل عن موقفه، كان يمكن أن تكون هنالك مواجهة أو تمرد لولا أننا تدخلنا، وقد سألنا مواطنو هذه القرية إن كنا نريد منهم إخراج وطرد إبني الملك وعساكرهما وفرسانهما بالقوة المسلحة؟ وكنا نرغب في تفادي ذلك إن كان ذلك ممكناً. والآباء الجزويت أيضاً مروا بدنقلا ونصبوا خيامهم في منزل أحد خدامهم البرابرة وحدث لهم نفس الشيء الذي حدث لنا ولكن بصورة أكثر سوءاً.

في الخامس من فبراير وفي الصباح الباكر وصل مرسال ليصطحبنا راجعين إلى دنقلا. و لم يكن في نية حسن بأي حال أن يطيع الأمر ولكننا تدخلنا. وفي سبيل أن لا نُظهر أنفسنا كمتمردين فقد أسرجنا أربعة من جمالنا، وذهب الأبوان جوزيف وكارلو إلى دنقلا لمقابلة الحاكم. وأنا بشخصي والأب فرانسيسكو دي سالمي رئيسنا بقينا مع صناديقنا وأحمالنا والجمال، ومعنا أثنان من البرابرة، وقد وافق مرسال الحاكم على ذلك.

في السادس من فبراير ١٧٠١م عانينا طوال النهار والليل من ريح باردة. وقد احتفلنا أنا والأب فرانسيسكو دي سالمي بثلاثاء المرافع بطبخ دجاجة صغيرة في المساء، ولكننا لم نكن قد أكلنا شيئاً ساخناً في الظهر.

في السابع من فبراير ١٧٠١م جاء مبعوث ملكي راكب على هجين عند المغيب، وكان في طريقه من شيخ مَشُّو إلى السلطان في سنار، يحمل خبر أن القافلة والتي كانت قوية جداً قد وصلت بسلام إلى النوبة، وأنها لا تحمل مرضاً غير عادي، وقد سجل شيخ مشُّو أسماء كل التجار ومكانتهم

وجنسياتهم وعدد الجمال التي يملكونها. هذا المبعوث أحضر إلينا خطاباً من الأب جوزيف والذي كان في دنقلا مع الأب كارلو. وقد أخبرنا في الخطاب أن الحاكم هناك يُلح على رؤية بضائعنا سواء بالعنف أو الرضى. وسوف يحجزنا إلى أن تغادر القافلة، وبأي حال فإننا لن نرضخ لهذا الأمر وبالأخص الأول، وقد حَمَّلنا المبعوث في طريقه إلى سنار العديد من الشكاوى، وخطاباً إلى سنار عنونّاه لأخينا الأب باسكويل طبيب الملك وفيه شكونا كل المتاعب والظلم التي تعرضنا له، وسألناه أن يحصل لنا على خطاب من الملك يعطينا الحق في مواصلة رحلتنا. ويجب أن ينص على أنه لا أحد يحق له أن (يفتش) صناديقنا، حيث أن لدينا عدداً من كاسات القربان وكمية كبيرة من الكتب لقراءة القداس ومثل هذه الأشياء يمكن أن تثير الكثير من الشكوك والريبة وتصعب من رحلتنا إذا ما لم تجعلها مستحيلة ومن المحتمل أن تتسبب في تجريدنا من كل ممتلكاتنا، وحياتنا معاً.

في الثامن من فبراير ١٧٠١م غادر المبعوث باكراً جداً وفي التاسع من فبراير ١٧٠١م أرسل إلينا الأب جوزيف مرة أخرى رسالة حمَّلها أحد برابرتنا وفيها أخبرنا بأن أخ الشيخ علي مندوب الملك في سنار قد وصل إلى دنقلا، وقد تكلم معه الأب جوزيف وطلب حمايته وهو صديق حميم للأب باسكويل. وقد وعد بأنه سيعيد الأمور إلى نصابها. وقد تكلم بحدة مع مندوبي الجمارك، قائلاً لهم بأنهم لا يجب أن يجرأوا على فتح الصناديق وعليهم أن يقدّروا جيداً حقيقة أننا نحمل بضائعنا وأغراضاً للملك ولطبيبه الخاص. وإذا فعلوا ذلك فإنهم سوف يبدأون عملية لن تكون في صالحهم نهائياً. وقد تجاهلوا كل هذا لأنهم لم يتنازلوا عن نواياهم الشريرة. وعلى المرء في هذه البلاد أن يعيش في كل الأوقات بمسكنة وتواضع حتى لا يجد أحداً ينتقد أفعاله أو أعماله، وإذا تصرّف بغير ذلك فإن النوبيين سرعان ما يديرون له ظهورهم.

في العاشر من فبراير ١٧٠١م هو اليوم الأول من شهر الصوم (رمضان) عند المسلمين وسوف نناقش ذلك باستفاضة في المكان المناسب. وأثناء ساعات الصوم فإن المرء عليه أن لا يأكل ولا يشرب ولا حتى أن يدخن غليونه (الكدوس)، منذ شروق الشمس حتى غروبها، وهذا الصوم يستمر شهراً كاملاً، وهم يأخذونه بجدية. يفضلون أن يصابوا بالانهيار فضلاً عن أكل قطعة أو القليل من الطعام، وليس هناك إعفاء لأحد وحتى الأمهات المرضعات.

ولننظر أيها القاريء العزيز كيف أن المسلمين يمارسون الصوم بجدية وقوة وعزيمة، وعلى المسيحيين كلهم الذين يملكون قطرة صادقة من الدماء المسيحية في قلوبهم أن يخجلوا من أنفسهم عند النظر في الصوم المثالي لهؤلاء القوم.

في السابع من فبراير ١٧٠١م، جاءنا أحد البرابرة مرة أخرى وأخبرنا بأن الأمر لم يُحسم بعد وكنا بائسين في هذا المكان، حتى لو دفعنا ضعف المطلوب فإن ذلك سوف لن يحررنا. وقررنا إذا لم يتم تسوية الأمر اليوم أو غداً، وإذا لم يمكننا المضي قدماً لبلاد أفضل، فأننا سوف نعود إلى دنقلا والإنضمام إلى الأب جوزيف والأب كارلو بكل ممتلكاتنا.

في الرابع عشر من فبراير شاهدت رحلة عجيبة بالمراكب. فبسبب نُدرة الخشب فإنه ليس لديهم مراكب في هذه المنطقة، ما عدا في (المشَرع) –المكان الذي يجب على القافلة أن تعبر فيه النهر.

وبدلاً من المركب، فإنهم يجعلون عودين بنصف طول رجُل ويضعون عليها قِطَعاً قوية متصالبة، ثم يربطون في المنتصف ست أو ثماني حزم بنصف حجم رِجل من القصب. بمعنى هذه السيقان التي تنمو فيها الذرة والتي يعلفون بها حيواناتهم ومنها يصنعون الكسرة. ويمكن لعشرة أشخاص أو أكثر الجلوس

فوقها، ويُحملون الطوف بما يريدون. وليس لديهم مجاديف ما عدا أعمدة من الخشب يربطون عليها لوحاً بطول قدم وبعرض اليد، يوجهون به الطوف. ومن أجل عبور النهر فإنهم يشدون على هذه العربة المائية التي بلا عجلات فرسين أو ثلاثة يَجُرون الطوف أثناء سباحتهم بينما واحد أو أثنان منهم يسبحان بجانب الجياد حتى يوجهانها نحو الاتجاه الصحيح مباشرة عبر النهر. وللمرء أن يعلم أن كل فرد في هذه البلاد كبيراً كان أو صغيراً يسبح مثل الأوزة. وهم يحملون ملابسهم على رؤوسهم وهم يسبحون بطريقة مختلفة جداً عنا نحن الألمان، فأنهم لا يحركون أقدامهم، بل يحركون أذرعهم الواحد بعد الآخر فوق الماء ثم إلى الخلف وتحت الماء. وبما أن الجمال ثقيلة جداً ولا تسبح بسهولة عبر النهر، فأنها تعبر بالطريقة التالية:أولاً ينفخون بالهواء أثنين من قِرَبْ جلد الماعز مثل تلك يحمل فيها الماء في الصحراء. وتصنع هذه بإتقان حتى لا يتسرب منها الهواء وبعد ذلك يربطونها بإحكام على جانبي بطن الجمل وهم في الغالب يقرنون عدداً من الجمال ببعضها البعض. ومن أجل أن تسير في الوجهة الصحيحة عبر النهر، فأن أحد الأشخاص يتعلق بالرقبة الطويلة للجمل ويوجهها بيده، وفي بعض الأحيان يكون هنالك شخصاً آخر مُمْسكاً بالذيل ليعبر النهر بصورة أفضل، وقد راقبت هذه الرحلات مرات عديدة كل يوم.

جاءنا الأب كارلو من دنقلا وأفادنا بأن الدوقتير أو موظف الجمارك الملكي هناك يطب منّا ما يعادل خمسين (سكوين بُندقي) من البضاعة. واعترضنا بشدة نحن وأخ نائب الملك. وقد تم تحديد الوقت الذي ستُحسم فيه معاملاتنا بيوم الغد.

وسيكون من الأفضل إذا أخذ أخ نائب ملك سنار والسيد حسن جماعتنا تحت حمايتهم. ولكن الآباء الجزويت الذين لا يملكون مثل هذا الادعاء، قد

مروا بفترة من العذاب أكثر مما عانينا، ولكننا عندما علمنا بذلك قمنا بضمهم إلينا بشعور من الواجب مع تصميمنا على مناصرة الواحد منا للآخر. و لم يتم إعفاؤنا من النفقات والهدايا وفي هذا الوقت كنا كلنا مرضى بالإسهال وآلام البطن الحادة، لأننا لم نأكل شيئاً غير الخبز (الكسرة) النوبية في الظهر والليل وعندما يحالفنا الحظ فأننا نرضي أنفسنا بقليل من البيض المسلوق وحساء دافيء.

وبالرغم من مرضنا فأن حماسنا التبشيري تم تحقيقه وتدعيمه، وكنا نعيش في أمل كبير بأن الله القادر سوف ينظر في حالنا البائس ويجعل مهمتنا ناجحة.

في الخامس عشر والسادس عشر من فبراير ١٧٠١م لم يحدث شيء يذكر وقد قضينا اليوم في تنظيف القمح الذي كان مليئاً بالرمل ومن هذا القمح قمنا بخبز أقراص، كان علينا أن نكتفي بها خلال الرحلة. وفي الظهر أكلنا خبزاً وشربنا الماء، وأما في الليل أخذنا بعض الأقراص المغموسة في الماء مع الجبن بدلاً من الزبدة، وعملنا لأنفسنا عجة إيطالية باستعمال أربع أو ست بيضات وقطعنا عليها بعض البصل وكان ذلك كل غدائنا.

في السابع عشر من فبراير ١٧٠١م تحسن الطقس قليلاً وهدأت موجة البرد القارس ومعها لفح الريح.

وعلى كل الذين يودون السفر إلى البلاد الغربية بما فيها الهند، عليهم أن يحرصوا بأن يكونوا مزودين بملابس دافئة تقيهم البرد. وليس هناك من ضرر من المحافظة على الجسم دافئاً في البلاد الحارة. ومن ناحية أخرى، سيتعرض الذين ليس لديهم ملابس كافية في هذه البلاد خاصة في فصل الشتاء، فأنهم سيتعرضون للرياح القارسة خاصة في الليل.

اليوم جاء إلينا من دنقلا الأب كارلو قبل المغيب بساعة وكان وحده على حماره.

وكان مازال يعاني من الإسهال ولكنه أخبرنا بأن (الدوقتير) أو مندوب تحصيل الجبايات والجمارك في دنقلا قد أثار توتراً شديداً جداً.

ولذلك في الثامن عشر من فبراير ١٧٠١م بعثني الأب الرئيس إلى هناك مع أحد برابرتنا وقد وصلنا نحو الظهر حيث أن حميرنا كانت تسير بسرعة وقد وجدت الأب جوزيف هزيلاً ومُتعباً جداً، وكان قد أمر لتوّه بأن تُشد الجمال للسير بأحمالها حيث كان قد دفع لمندوب الجمارك بأمر من الأب الرئيس مبلغ خمسين فلورين.بمثابة جبايات وجمارك على أحمالنا وصناديقنا وهذا بشرط أننا إذا لم نستلم خطاباً من ملك سنار،والذي بالتأكيد كنا نأمل في وصوله فإن علينا أن ندفع المزيد، وقد شهد على ذلك الشهود ثم تم توثيق ذلك. وعندما كان كل شيء جاهزاً للتحرك قام حاكم دنقلا بإثارة العقبات مرة أخرى وأصدر أمره بعدم التحرك حتى صباح الغد، و لم يُبدِ الأب جوزيف إعتراضاً على ذلك. ولكنه في الساعة الرابعة بعد الظهر ركب على حماره وذهب إلى تنقاسي مع جمالنا، وقد بقيت في دنقلا مع صناديقنا الثمانية ومع حماري وقد قمنا أنا والجزويت الأثنين بجمع أحمالنا مع بعضها البعض وأقمنا حفلة رومانية مع شربة من الماء، وبما أنني لم أجرؤ على قضاء الليل وحدي بجانب صناديقنا فإن الأب الرئيس أنطونيو قارنير انضم إليّ تاركاً جماعته، وبقى معي تحت السماء المكشوفة.

في التاسع عشر من فبراير ١٧٠١م انتظرنا حتى حلول الليل على أمل أن يظهر برابرتنا، والأب جوزيف والأب كارلو، ولكن خاب أملي في لقاء أي منهم، ولأنني لم آكل شيئاً طوال النهار فقد تعشيت مع الجزويت. وأثناء العشاء حضر أحد البرابرة حاملاً رسالة من الأب الرئيس مخبراً بأنه في الغد سوف يستدعيني إلى تَنْقاسي.

في العشرين من فبراير ١٧٠١م نهضت قبل شروق الشمس، وحملت على حماري كل الأشياء الصغيرة التي تركها الأب جوزيف خلفه، وتركت

الصناديق التي لديها أقفال جيِّدة ووضعتها في مكان مكشوف، تاركاً رسالة لحاكم دنقلا أنه إذا تم تحريك أي شيء فأنه سوف يحاسب من قِبَل ملك سنار، وبدأنا المسير وفي الساعة الثانية عشرة وصلت إلى رفقائي في تَنْقاسي وقد رحبوا بي بفرح وفي باقي النهار لم نفعل شيئاً سوى الحديث عن متاعبنا.

في الحادي والعشرين من فبراير ١٧٠١م، جاء حسن حاملاً أخباراً بأنه يمكننا أن نجمع صناديقنا من دنقلا شريطة أنه إذا جاء خطاب من ملك سنار يعفينا من الجباية فإن النقود التي دفعناها سوف ترد إلينا بالرغم من أنه ليس هنالك نقود متداولة بين الأشخاص العاديين في هذه البلاد، ولكن لها قيمتها عند التجار والطبقة العليا من النبلاء، ولكن الخطاب لم يصل وضاعت علينا الخمسين فلورين التي دفعناها.

وفي الثاني والعشرين من فبراير ١٧٠١م، ذهب أثنان من برابرتنا مع أربعة جمال إلى دنقلا لإحضار صناديقنا وفي هذه الأثناء بقينا نحن في تَنْقاسِي.

وفي الثالث والعشرين من فبراير ١٧٠١م عاد برابرتنا بالصناديق، ويتبعهم أثنان من موظفي الجمارك راجلين. وفي حضور حسن أكدنا على التعهد وصادقنا من جديد. «وعلى المرء أن يعلم بأن لدينا(نحن المبشرين) في أي مذهب كنا أو تخصص تفويض بابوي للقيام بذلك».

وفي ختام المفاوضة كان علينا أن نعطي لهذين الموظفين رطلاً من الصوف الأزرق ،الذي يكلف فلورين في هذه البلاد، وأعطيناهما كذلك رطلين من الكتان الأزرق، وثوبين من الدمور النوبي، وبعض حفنات من الفلفل والمحلب والشمار وخشب المُرْ وبعض المسامير الصغيرة .وكل هذه الأشياء لم تكلفنا أكثر من (رايختالثر) في أوروبا، ولكنها هنا تُباع بسعر عالٍ.

في الرابع والعشرين من فبراير ١٧٠١م واليوم الذي تلاه شغلنا أنفسنا بتنظيف

القمح. وفي هذه البلاد تُدْرس الحبوب في الحقل ولا تنظف بعد ذلك فلذلك هي مليئة بالرمل والتراب. ولتعلم عزيزي القاريء فإن البلاد التي يجري فيها النيل في كل من مصر وبلاد النوبة ومملكة الفونج، وفي الممالك المجاورة لا توجد طواحين مائية. وفي مصريطحن الحبوب ثوران أو حصان أو جمل أو حمار يدير حجر الطاحونة. وهنا في هذه البلاد يطحنون الحبوب على حجر طوله ثلاثة أشبار ونصفها عرضاً، وشكلها يشبه المسحنة التي يستعملها الرسامون لسحن الألوان. وهو عمل شاق بصورة لا تصدق ولذلك تقوم به الإماء. والقمح قليل جداً هنا بعكس مصر التي يتوفر فيها. وبدلاً من القمح فإن الحبوب التي يأكلونها هي الذرة ، منها يصنعون خبزهم. وقد تجنبنا كلياً هذا الخبز الذي لم تتعود بطوننا على هضمه بالإضافة إلى ميلنا الطبيعي للقمح. ولما كنا في حاجة ماسة لبديل فقد حصلنا على بعض دقيق القمح، وقمنا بخلطه بقليل من الخميرة. وللحصول على الخميرة عملنا على استخراجها من الدقيق ووضعها في إناء خشبي ثم عملنا على خلطها ومزجها بكل طاقتنا ثم وضعناها في الشمس وغطيناها بقطعة من القماش من أجل أن تفور. وبعد أن تضخمت صنعنا منها شرائح بحجم الأصبع. ووضعناها في مقلاة محماة جيداً وأضفنا إليها كتلة من الدهن بحجم فُستقة إيطالية حتى لا يحترق الخبز أو تفسد المقلاة. وهذا كان خبزنا (وعلى القاريء أن يتخيل كم كانت جيدة ولذيذة). ولما لم نكن ندري ماذا نأكل أثناء أوقات صومنا فقد نفعتنا هذه الشرائح بصورة طيبة.

وفي هذه الأثناء لم يكن من اليسير الحصول على شيء غير القليل من البيض نقوم بقليه مع قليل من الدهن. وكنا نضع في كل يوم بعض شرائح من الخبز مع بعض الدهن نأكلها في المساء وعند الظهر نكتفي بالخبز والماء وكان علينا أن نزدرده ونستسيغه.

في اليوم الخامس والعشرين من فبراير ١٧٠١م، انضم إلينا عدد قليل من الجلابة مع جمالهم في نحوالساعة الثالثة بعد الظهر وأخبرونا بأن القافلة ستتحرك في طريقها إلى سنار خلال أيام قليلة، وذلك ما كنا ننتظره بفارغ الصبر. وفي هذه الأثناء كنا نأمل في عودة المبعوث السلطاني الذي حملناه رسالة إلى الأب باسكويل في سنار حاملاً معه أمراً من الملك بإعفائنا من الأتاوة الثقيلة المطلوبة منا والتي دفعنا جزءاً منها لحاكم دنقلا.

في السادس والعشرين من فبراير ١٧٠١م واصل الجلابة الذين حضروا بالأمس، سيرهم نحو سنار.

أما الآباء الجزويت الذين كانوا في دنقلا وينوون مغادرتها في الرابع والعشرين، فإنهم عند رفضهم دفع أي شيء لموظفي الجمارك أُجبروا على إنزال أحمالهم من الجمال ومنعوا من التحرك. وكان عليهم أن يدفعوا أكثر مما دفعناه نحن بالرغم من أن جمالهم كانت أقل عدداً. وحتى لا يظهروا بأن لهم أهمية ،كانوا قد قسموا بضائعهم على الجلابة الآخرين ليحملوها لهم. ولكن في هذه البلاد فإن استبداد السلطة هو الذي يفرض الحق».

في السابع والعشرين والثامن والعشرين من فبراير ١٧٠١م، لم يحدث شيء يُذكر. ولكن كان يزعجنا الخضوع لوطأة وثقل المعاناة من الحر والجوع والتي لم يكن لدينا وسائل أو معرفة بكيفية التعامل معها بعد كل ما كابدناه وعشناه في المرحلة الأولى. ولكن قدرة الله وفضله والذي عليه نتوكل ونضع آمالنا سوف تقود خطانا، نحن غير المستحقين من المبشرين في هذه المرحلة الثانية من رحلتنا ، وأن يصل بنا إلى هدفنا المنشود.

وفي هذه الفترة كان تحت رعايتي عدد من المرضى. وتتملك هؤلاء الدهشة للطريقة الرقيقة والرحيمة التي يتم بها علاجهم والسرعة التي يتعافون بها.

ففي هذه البلاد تعالج أغلب الأمراض أما بالكي بالنار أو القطع أو الفصد، تماماً كما يفعلون للحمير والجمال والحصين.

إذا تأذى واحد من دوابهم تحت ثقل حمل من الصناديق أو الركوب المتواصل وأصابته القروح أو التقلصات في أي جزء من جسمه، يقومون أولاً بإلقائه على الأرض ثم يقيدونه ويوثقون الأقدام جيداً بحبل متين حتى لا يتمكن من الرفس والإنحناء والعض. ويمسكون بالرأس ويحنونه بقوة تجاه البطن. وعند اللحظة التي يُصدر فيها صوتاً منكراً، يقومون بكيّه بحلقة من الحديد المُحمَّى، أربع أو خمس مرات بالتتابع في شكل دائرة أو هلال حول القُرحة، وعندما يحترق الجلد ويتوقف المرض عن الانتشار يزيلون اللحم الميت بالسكين ويغطون المكان بطبقة من الشب (الذي ذكرنا وجوده في الصحراء). وهذا العلاج القاسي يُطبّق أيضاً على البشر في هذه البلاد. وإذا أُصيب الشخص بعرق النساء فإنهم يربطون قطعة من القماش القطني بثخانة الأصابع ثم يشعلونها وتكوى بها السلسلة الفقرية على مسافات بعرض أصبعين أو ثلاثة أصابع صاعداً حتى الرقبة. ويعالجون المغص بنفس الطريقة بالكي حول السُرة تاركين مسافة ثلاثة أصابع بين كل واحدة من الكيات والأخرى. ويتم معالجة الصداع وآلام الرأس، بنفس العلاج البربري، بالكي تحت الأذنين والصدغ. وهناك الكثير مما يمكن التحدث عنه. مثلاً إذا أصيب أحد البرابرة وتورمت قدمه، فإنهم يعالجونه بفصد القدم كلها من الأصبع الكبير وحتى الكعب. ويكون الجرح عميقاً حتى ينزف بغزارة. وهذه الطريقة وأُخريات مثلها تأتي بنتائج فعّالة. وإذا استعمل أحدهم هذه الطرق العلاجية في بلادنا لجلب على نفسه سمعة سيئة، ماعدا في حالة أولئك الذين يعانون من النقرس (القاوت).

حضر إلينا في مساء اليوم الأب أنطونيو قارنير من جمعية المسيح. وحكى

لنا، بدون أن يستطيع كبح جماح نفسه من وصف ما عاناه من الاستبداد البالغ الذي تعرض له في دنقلا و لم يتوقف إلى أن أخرج كل الهواء الساخن من صدره. وقد أجبروا على العودة إلى دنقلا – من بيت خادمهم – وكان شخصٌ ما في القافلة قد أوحى للسلطات زوراً بأن صناديقهم تحوي أشياء ثمينة وغالية، لذلك فقد طولبوا بأن يدفعوا أكثر مما دفعنا نحن.

في الأول من مارس ١٧٠١م وصلتنا أخبار بأن الكابوزيني سرقوا جملاً من الآباء الجزويت. و«الكابوزيني» إسم يطلقه النوبيون، على الأعراب الذين يعيشون في أطراف القرى والمدن وفي الصحراء ولا يبتعدون عن مصادر المياه. وهناك العديد منهم، ويتم احتمالهم لأنهم يعترفون بالتبعية لملك سنار ويدفعون له العشر من مواشيهم وحبوبهم وأولادهم.

في الثاني من مارس ١٧٠١م ذهب أبونا الرئيس لزيارة الآباء الجزويت، الذين عادوا مرة أخرى لبيت خادمهم القريب من دنقلا، لحين الوصول إلى إتفاق أو تفاهم مع حاكم دنقلا. وفي الثالث من مارس ١٧٠١م كان الأب الرئيس والجزويت قد فعلوا نفس الشيء وأخبرونا بأن الكابوزيني قد سرقوا جمالهم (أيضاً) وأخفوها في بيت وعقلوها بحيث لا يراها أحد. وقد طلبوا لإعادتها رشوة قدرها أربعة (قلدرات).

في الرابع من مارس ١٧٠١م غادرنا حاجي أحمد، التركي المسلم الذي كان برفقتنا طوال الوقت، وسار قدماً لعبور الصحراء برفقة بعض الجنود الذين يحملون قطع النقود التي جُلبت للملك في سنار. وبقينا نحن ومعنا الآباء الجزويت في انتظار أن تتحرك القافلة جميعها والتي تنتظر أن يوفر لها نائب الملك جنوداً لمرافقة تجار وبضائع الملك عبر الصحراء، المحتشدة بالأعراب والمتمردين على الملك.

الآن هو وقت حصاد الذرة وهو طعامهم التي يصنعون منها خبزهم (الكسرة). وهنا وفي بلاد السودانيين الأخرى يصنعون من الذرة شراباً مسكراً يسمونه البوظة (الجعة). وطريقة صناعتها كالآتي:– أولاً يبللون الذرة في الماء ثم بعد ذلك يجففونها في الشمس حتى تنبت (زريعة) ثم يدرشونها لتصبح عجيناً، ويصبون عليها الماء ويتركونها حتى تبرد. وبعد ذلك يضيفون إليها الخميرة حتى تصبح مخمرة مثل الجَعَة في لونها ورائحتها.

ويَعبون من هذه البيرة حتى الامتلاء، وعندما يشربونها تتراكم بقاياها في لحاهم التي نادراً ما يحلقونها في هذه البلاد. وبسبب تقززي منها فإنني لم أقربها أبداً.

في الخامس والسادس والسابع والثامن من مارس ١٧٠١م شغلنا أنفسنا كالعادة بطحن القمح وصنع شرائح الخبز. وأيضاً بمعاينة المرضى وإعطائهم الأدوية. وقد قمت بمعالجة إبن نائب الملك من الصداع بإعطائه دواءً ناجعاً «وفي هذه البلاد يجب على الطبيب أن يعطي جرعة مضاعفة مرتين أو ثلاثة. وفي نفس اليوم الذي تناول فيه الدواء ذهب للسباحة في النيل، و لم يعاوده الألم أو عدم الارتياح، ولهذا فقد أصبح صديقاً حميماً لنا. وهو في الحقيقة القائد لفرقة الجنود الذين سيرافقوننا خلال الصحراء.

وفي هذا الأثناء بدأت الحرارة ترتفع يوماً بعد الآخر. ولكن كان يمكننا دوماً تنشيط أطرافنا المتعبة بطول شهر، بالاستحمام في نهر النيل ذي الشُهرة العالمية.

اليوم قام أحد الجلابة، الذين في خدمة الآباء الجزويت، بقطع رقبة أخته غير المتزوجة، عندما وصل إلى سمعه بأنها كانت تمارس حياة بعيدة عن الفضيلة. وكانت عقوبته لهذا الفعل الشنيع أن يدفع غرامة خمسة عشر قِلدر. وتدل

هذه الحادثة أن العقوبة القانونية في حالة قتل الأخ أو الأخت، أخف من عقوبة قتل شخص غريب. وإذا قتل شخص عبداً يملكه فإن عقوبته تتمثل في فقدانه وخسارته للعبد. وإذا كان المقتول عبداً لشخص آخر فإن الأمر يحسم بالتسوية مع مالك العبد.

في التاسع من مارس ١٧٠١م ذهبتُ باكراً لزيارة الآباء الجزويت، وقد صحبني أحد عربي الذي أخذته معي من أجل الأمان. وعند وصولي أظهروا لي كل الاحترام والتشريف، وقضيت معهم ساعتين عدت بعدها برفقة الأب باوليتي.

اليوم تلقينا رسالة من أعضاء بعثتنا التبشيرية في سنار يفيدون فيها بأن أخباراً وصلتهم بأن بعض الفرنجة (الوصف الذي يطلق على الأوروبيين) قد وصلوا مع القافلة. وفي اعتقادهم أنهم لا بد أن يكونوا من جماعتهم الفرنسيسكان. وقد أرسلوا تحياتهم وأشاروا إلى أنهم ينتظروننا بالكثير من اللهفة والترقب.

والمرسال الذي جاء بالرسالة يحمل أيضاً خطاباً يخول القافلة للسير قُدماً إلى سنار. وتجدد أملنا في قرب تحرر القافلة من أوامر ملك دنقلا وتعطيله لها.

في العاشر من مارس ١٧٠١م، تحرّى البرابرة بتشوق ظهور الهلال الجديد وترقبوا الأفق بعناية بعد مغيب الشمس لرؤيته ولكنهم لم يتمكنوا من رؤيته في ذلك اليوم وكان عليهم صوم يوم غدٍ لإتمام صيامهم لثلاثين يوماً.

في الحادي عشر من مارس ١٧٠١م جاء مبعوث من مَشُّو يحمل إلينا خبر وصول باقي قافلتنا التي تركناها في أسيوط، وقد انتظروا في أُسيوط لعدم رغبتهم في أخذ الطريق الذي سلكناه، ولكنهم في النهاية أجبروا على سلوك

طريقنا لخوفهم من العرب الذين ما زالوا يحتلون الواح. وقد أخبرنا المبعوث أيضاً بان عرب الواح قد تمت هزيمتهم وطردهم من الصحراء. وهذه الأخبار أكدت لي حدسي بأن قافلتنا سوف تنتظر هنا أياماً قليلة أخرى حتى تلتئم أجزاؤها من أجل الدعم لقواتها في إتمام الجزء الثاني من رحلتها إلى سنار. وقد أخبرونا بأن دنقلا تقع في منتصف المسافة بين أسيوط وسنار.

اليوم احتفل المسلمون بعيد الفِطر، وهو يهللون ويطلقون صيحات الفرح العظيم، وبكثير من المرح والغناء، وتبادل التهاني والتحايا، ومع إيقاع ضرب النحاس كانوا يطلقون الطلقات من كل بنادقهم، وبدأوا في معركة صورية، وكل ما يمكن إظهاره من فرح وسرور. وكان من المبهج لنا أن نرى ونسمع كل هذه المظاهر.

في الثاني عشر من مارس ١٧٠١م، لم يحدث شيء يُذكر، وقد زارنا الأب قارنير، وفي الثالث عشر من مارس ١٧٠١م تناول معنا وجبة الغداء التي كانت تتكون من حساء الفاصوليا، وعَجَة من البيض، وحُسوة من الماء. وقد أقمنا هذه الوجبة المكلفة على شرفه عند الظهيرة، ولكننا اكتفينا في الليل بتناول الخبز والماء.

في السادس عشر من مارس ١٧٠١م وصلت القافلة إلى دنقلا يقودها خبيرها وزعيمها عابدين من تجار الملك. وأصبحنا مضطرين للبقاء والمكوث هنا بغير إرادتنا وبنفقات وتكلفة عالية.

تقع مدينة دنقلا على الجانب الآخر (الشرقي) من النهر. وهي مكان جميل على تَلْ مرتفع. ومبانيها شُيِّدت بطريقة يكون كل بيت يجاور الذي يعلوه. والتل يتكون من الحجر الصلد. وخلف الجبل، كما في كل النوبة وعلى جانبي النيل، تمتد الصحراء الواسعة. ولم أر في كل من مصر وبلاد النوبة

وحتى البلاد المسيحية مكاناً يصلح أن يكون قلعة حصينة أفضل من دنقلا. ولكونها في يد البرابرة فإن بيوتها ليست مميزة من باقي بيوت هذه المملكة. وقد شيدت من الطين (اللبن) وبدون تخطيط لخريطة واضحة.

في الثامن عشر من مارس ١٧٠١م نبهنا العرب بأن نكون حذرين وأن نراقب حولنا لأن أفراس النهر قد شوهدت في هذه المنطقة. ووصفوها لنا بأنها مرعبة. ولا يمكن لإنسان أو حيوان مقاومتها. وعندما تمسك بضحيتها فإنها تمتص كل دمائه عن طريق عنقه. ولا يمكن تخليص أي من مخلوقات الله العاقلة وغير العاقلة من قبضتها.

في التاسع عشر من مارس ١٧٠١م شاهدنا تمساحاً ضخماً مرعباً يسبح في النهر. وقد أطلقت عليه رصاصة وبالرغم من أنني أعتقد أن الرصاصة أصابته إلا أنها لم تخترق جلده. ذا الدرع الفولاذي. وإذا لم يصب التمساح أسفل البطن فإن كل القذائف والأسلحة ترتد عنه.

اليوم كان بالغ الحرارة التي عانينا منها لدرجة أنني لم أكن أستطيع الوقوف على الأرض حافياً لمدة تمكنني من قول واحدة أو أثنتين من الصلوات. وكلما اقتربنا من أثيوبيا تزداد الحرارة.

في العشرين من مارس ١٧٠١م كما في يوم الأحد زارنا الأب باوليتي من الجزويت وأحضر معه خطاباً من الأب هيرنميو دي تراباني وكيل البعثة التبشيرية البابوية في القاهرة. وقد جاء الخطاب ضمن خطابات أرسلها القنصل الفرنسي بواسطة أحد البرابرة التابعين له.

في الحادي والعشرين من مارس ١٧٠١م أدينا قداس خدمات الصُفح والعشاء الرباني بدون مداراة ولكن بهدوء. وقام الأب دا سالمي بقراءة

القداس قبل ثلاث ساعات من شروق الشمس ومنحنا السِر المُقدس. وقد شكلنا مذبحاً صغيراً من صناديقنا لأداء القداس. و قام أحدنا بالمراقبة أمام الخيمة، حذراً من أن يمر أو يأتي إلينا أحد البرابرة. ويظن أننا من السحرة، والبرابرة ،على كل حال ، يعتقدون أن كل الفرنجة من السحرة. ولكان قد تم قتلنا في هذه الحالة إذا تم ضبطنا متلبسين.

وفي هذه البلاد، كما في تركيا، أيضاً فإن الناس يحتقرون الفرنجة (الوصف الذي يطلق على كل المسيحيين الأوربيين) وفي القاهرة وفي أماكن أخرى تابعة للنفوذ العثماني عندما يرى الأطفال المسلمون الآخرون، أحد الفرنجة أو القساوسة يشرعون فوراً في التعوذ حسب دينهم خوف التنجس. وإذا أرادوا أن يسبوا أو يهينوا أحداً بأنه لا يعرف له ربّاً وصفوه بالأفرنجي، والمنشقين من المسيحيين يفضلون وصفهم بالمسلمين من أن يصنفوا بأفرنج.

وفي هذه البلاد نحن الأفرنج يعتبرنا الناس عامة بأننا كلاب، لا دين لهم ولا شريعة، خائنين، سحرة، وعرّافين، ومشعوذين، وموكل الكُفر، وكل ما يمكن أن تجده في شخص بلا دين ولا رب. ولكل واحد أن يتخيل نوع العزاء الذي يمكن أن يحسه المرء ناهيك عن المواساة الروحية فوق هذا التعاسات الأخرى التي كان علينا تحملها.

أخبرنا اليوم الأب الرئيس دا سالمي بأن مبشرينا الاثنين اللذين كانا في سنار، الأب أنطونيو والأب بانديتو قد غادرا سنار متوجهين إلى أثيوبيا.

في الرابع والعشرين من مارس ١٧٠١م، وفي قمة احتفالنا بالأربعاء الخضراء، أقمنا قداسنا وإخلاصنا كما فعلنا من قبل ثلاثة أيام بدون مواربة أو تورية. وللمرة الثانية أدى لنا الأب الرئيس القداس الإلهي قبل ثلاث ساعات من شروق الشمس وخلاله قدم لنا (رمز) جسد يسوع المسيح.

وبعد ذلك تناولنا غداءنا في ساعة مبكرة، فقد كان حتماً علينا التحرك وأن نتوجه أخيراً إلى سنار. وعندما كنا نسرج جمالنا وصل جلابة الملك من دنقلا التي كانوا ينزلون بها. وقد حيينا مقدمهم بإطلاق ثلاث طلقات من أعيرة مسدساتنا وبهذا بدأت رحلتنا القادمة سوياً ومجتمعين.

وصف الرحلة من دنقلا إلى سنار

في يوم الجمعة الخامس والعشرين من مارس ١٧٠١م تحركنا قبل ثلاث ساعات من طلوع النهار وسرنا مع جلابة الملك وقائدهم وخبيرهم عابدين. وكان يرافق عابدين أحد الأرمن الذي أسلم بعد أن كان مسيحياً. وكنا يحدونا الأمل في إعادته إلى الإيمان الكاثوليكي، والذي وحده يهب الخلاص للإنسان. وفي نحو الساعة الثالثة بعد الظهر، وكان الحر بالغ الشدة، وصلنا إلى (الدَبّة)، وهي قرية يسكنها والأماكن حولها (فُقرا)– أي رجال دين.

هذه القرية وما يحيط بها من اماكن يسكنها رجال دين أو (فُقَرا). وهم يختلفون شيئاً ما عن رجال الدين المصريين (الذين وصفناهم في مكان آخر) و لأنهم يستطيعون القراءة والكتابة فإن الناس يعتبرونهم علماء ومدرسين في المفهوم الإسلامي. و تتمتع هذه القرية ،بسبب وجود هؤلاء الفُقرا، بالحصانة الكاملة ويصدُر لها مَرسوم ملكي بحرمة مكانها. ويُمنع موظفي الدولة من انتهاك حرمتها وحتى المطلوبين في جرائم يُعتبرون آمنين في حمايتها ولا يستطيع أحد أن يمسهم أو يقبض عليهم. وعلى الأمراء والملوك والحكام المسيحيون أن يخجلوا من أنفسهم في تعديهم بدون تردد وخرقهم وإلغائهم بدون وخزة ضمير لحصانات الكنيسة.

اليوم وعند مطلع شفق الصباح شاهدنا نجمة مضيئة لامعة تظهر في الأفق وكانت تتدنى من يوم إلى آخر حتى غابت تماماً بعد أيام قليلة. وقد رأيناها مرة أخرى في سنار في نهاية شهر سبتمبر بعد مغيب الشمس، وبحسب مدارها، فإنها تحجبها الشمس في مارس ولا تظهر بعد ذلك إلا في السنة التالية. وقد سجلنا عنها العديد من الملاحظات حيث أكِد لنا بأن هذه النجمة لم تشاهد أبداً من قبل في هذه البلاد.

والنوع الآخر من الأولياء رجال الدين هم المتصوفة وهم يراعون كثرة الصوم في حياتهم وكذلك لهم طعامهم ولبسهم المخصوص، والسودانيون يطلقون عليهم لفظ فقيه أو رجل علم، لأنهم يعتبرون أي شخص ملم بالكتابة والقراءة بمثابة إنسان متفقه في القانون وخبير في الإفتاء. وهم يرتبون صلواتهم الطويلة والموقوتة في ساعات محددة من النهار والليل. وهم غالباً ما يحملون معهم ألواحاً من الخشب مطلية باللون الأبيض يكتبون عليها كل يوم حروفاً عربية أو نصوصاً من القرآن ويقضون كل اليوم في المدارسة والتدريس والافتاء للمسلمين الآخرين. وهم بذلك يعتبرون أولياء مثل أولئك الأولياء في مصر بالرغم من أنهم لا يسلكون سلوكاً مشيناً معدوم الحياء كرصفائهم المصريين، الذين يتجردون من ملابسهم أمام الناس ويمارسون الشعوذة والسحر، ويجلس بعضهم متربعين (بالطريقة التركية) ويقرأون ويرتلون شيئاً من قرآنهم لمدة نصف يوم.

وقد رأيت بدهشة عظيمة في سنار وفي مناطق أخرى، مثل هؤلاء الفقرا يخرجون في أشد حرارة الشمس إلى مكان عام، وهم يتصايحون وينشدون لمدة ساعتين أو ثلاث بدون توقف حتى يتهالكون من شدة العطش والإنهاك، وفي أثناء إنشادهم وصياحهم ينحنون ويقومون وينخفضون ويرتفعون وفي بعض الأحيان يسقطون في أوضاع في غاية من الغرابة والشذوذ التي يمكن للمرء أن يتخيلها.

وهنالك آخرون ، خاصة أولئك الذين يأتون من بلاد البرنو وفَزان. وقد صحبنا من سنار نحو أثنا عشر منهم، في سفرنا إلى مصر. وبالإضافة إلى ألواحهم الصغيرة، كانوا يحملون طبولاً صغيرة مجلدة بالجلد بطول شبر ومشدودة بعناية، وهي تصدر أصواتاً مثل الطبل، تؤذي الأذن. ويظنون أنهم يجعلونها أكثر جاذبية بإضافة الودع وقطع من الرصاص على جانبيها لتصدر

أصواتاً أعلى وأكثر رنيناً. وعندما ينقرون عليها، يصاحبونها بالإنشاد وأداء قفزات وإيماءات حتى يظن المرء أنهم انجذبوا وخرجوا من طورهم، وفقدوا كل المنطق والشعور الإنساني. وهذا الأمر يمنحهم سمعة لا تنقضي، بالقداسة والعلو، وسط المسلمين. وقد رأيت مثل هؤلاء الناس في أماكن كثيرة. وهم لا يتطلعون لشيء من حياتهم المتقشفة وسلوكهم المتسم بالغباء سوى نشر شريعة نبيهم، وإزالة ما يعتبرونه سلوكاً منكراً وممارسات خاطئة. وأن يبشروا وسط العديد من ممالك الوثنيين ويقودونها إلى الدخول في الشريعة المحمدية.

في السادس والعشرين من مارس ١٧٠١م تحركنا عند طلوع النهار وسرنا حتى مغيب الشمس، حيث نصبنا معسكرنا في منطقة صحراوية بالقرب من قرية للعرب وسوف ننتظر هنا حتى وصول بقية القافلة التي تخلَّفت في دنقلا. وقضينا الوقت في صنع الخبز حتى الثلث الأخير من الليل، كما فعلنا في (تَنْقاسي)، وذلك ليكون لدينا مؤونة كافية للاحتفال بعيد الفِصح.

في السابع والعشرون من مارس ١٧٠١م، حل عيد الفصح المبارك وبدأنا سيرنا في طريقنا قبل ثلاث ساعات من طلوع النهار، وبعد يوم سهل وصلنا إلى (قُشّابِي). وبعد ساعة من وصولنا انضم إلينا نحو أربعين جملاً من قافلتنا لمتابعة الرحلة معنا.

في الثامن والعشرين من مارس ١٧٠١م تحركنا كما بالأمس نحو الساعة الخامسة بعد الظهر، وبمصاحبة ضربات أربع من طبول النحاس دخلنا إلى الدَبّة الغربية.

في التاسع والعشرين من مارس ١٧٠١م تحركنا من معسكرنا قبل ساعتين من طلوع النهار ووصلنا إلى (كورتي) عند المساء. وكان ينتظرنا فيها عدد من الجلابة وفرسان قافلتنا، لمصاحبتنا في رحلة الأيام الستة عبر الصحراء المليئة بقطّاع الطرق مع جنود متمردين على ملك سنار.

وكورتي هي أفضل وأوسع قرية في بلاد النوبة، وهي تقع مباشرة في طرف الصحراء. وعند تكامل القافلة وبمشيئة الله سوف نبدأ الرحلة.

في الثلاثين من مارس ١٧٠١م وفي الساعة العاشرة إنضم إلينا جزء مقدّر آخر من القافلة، وكان من بينهم الآباء الجزويت.

في الحادي والثلاثين من مارس ١٧٠١م جاء إلى خيمتنا الإبن الأكبر لنائب الملك، وهو القائد لكل الجنود والمليشيا في النوبة وتتبع له كتيبة الفرسان التي سترافقنا في الصحراء المليئة بقطاع الطرق والقتلة، وطلب مني أن أُجري له حجامة. وقد اكتظت الخيمة بالجنود والنوبيين ووقفوا حولنا حاملين سيوفهم وحرابهم في أيديهم، وقد فرشت للأمير بساطاً جلس فوقه. وحالفني الحظ في فتح الشريان وعندما رأى الأمير الدم ينساب في شكل قوسي رقيق فإنه لم يتمالك نفسه من التعجب من هذه الكمية الكبيرة من الدم تتدفق من مثل هذه الفتحة الصغيرة. و لم يكن حديثه طوال اليوم عن شيء خلاف الأطباء المسافرين إلى سنار. وجاء نحو مائة من السودانيين يتسابقون ويزدحمون ليروا هذا للمرة الأولى في حياتهم. وتركت الدم يسيل إلى أن تغير لونه من الأسود إلى الأحمر والكمية التي خرجت كانت نحو رطل من الدم.

وفي اليوم التالي حضر إلينا مرضى آخرون، وقد عالجنا بعضهم، وأصر آخرون على إجراء الحجامة كما فعلت لإبن نائب الملك، ولكني نصحتهم بأن لا يفعلوا. وبدلاً من فتح الشريان قمت بعمل الحجامة بالكاسات المخصصة لذلك على الظهر والجانب والرقبة. وكنا قد أحضرنا معنا لهذا الغرض عشرة من كاسات الحجامة الزجاجية الكبيرة. وقد أمرتهم بالجلوس على الأرض وظللتهم من الشمس بثوب من القماش كما هو معتاد. وتناولت الموس وعملت فيهم فصداً وقطعاً بطريقة بربرية، وبما أن الدم لا يتدفق خارجاً في

هذه المرحلة لم يلقوا بالاً، فهم على كل حال يقطعون ويكوون أنفسهم مثل حيواناتهم. وبعد ذلك وضعت بعض الكحول في كأس الحجامة وأشعلت فيه النار، ووضعته في مكان الفصد ليخرج الدم. وبالرغم من أن هؤلاء النوبيين معتادون على حجامة بعضهم البعض، فإن لهم طريقة أخرى، حيث يحدثون بالموس عدداً من الجروح. وبعدها يستعملون قرن ماعز صغير فتحته العليا حوالي أربعة أصابع أو خمسة، ويحدثون فيه ثقباً صغيراً في الطرف الأسفل ويستعملونه كأداة للحجامة. وبعد ذلك يمصون بأقصى ما يستطيعون حتى تنقطع أنفاسهم. وحتى لا يسقط القرن يسدون بعدها الثقب بقطعة من الشمع بعد مضغه جيداً، وبعد ذلك يمسك القرن الدم مثله مثل كأس الحجامة. وقد أعجبهم أسلوبي أكثر، وأرادوا كلهم أن أجري لهم حجامة بطريقتي، وأن أفصد وأقطع كما أشاء فإن ذلك لن يزعجهم.

في الأول من أبريل ١٧٠١م قضت القافلة كل يومها في ترتيب وتنظيم شئونها لأننا سوف ندخل في الصحراء غداً بمشيئة الله. وقد ابتاع التجار عدداً كبيراً من الجمال من العرب المحليين ومن النوبيين، لتسهيل عبور الصحراء ونقل البضائع.

في الثاني من أبريل ١٧٠١ وفي نحو العاشرة صباحاً دخلت القافلة جميعها في الصحراء يرافقها مائة من الفرسان وكانت القافلة من الضخامة بحيث أنها مثلت جيشاً صغيراً. حيث انضمت إليها قافلة ثانية من مائتين أو ثلثمائة جمل تحمل تمراً إلى سنار. وقد صادفنا طرقاً جيدة حيث أمكن للجمال أن ترعى بين الحين والآخر، وقد دخلنا بلاداً ترطبها أمطار السماء لشهور قليلة في فصل الصيف. وفي بلاد مملكة النوبة، وفي كل مصر (ماعدا المناطق الساحلية)، فإنها عادة تمطر قليلاً أو لا تمطر البتة. والصحراء كلها مليئة بشذى الـ squinanf (المنعش)، (Junci Odoriferi (!!!!) بالإضافة

إلى النباتات الأخرى النادرة الثمينة ذات الرائحة العطرة وكذلك الأشجار، والتي لا يوجد مثيل لأي منها في الأراضي المسيحية. ولدهشتنا الكبيرة فليس فيها ما لا شوك له. وكل النباتات التي تنمو هنا والأشجار لها أشكال من الأشواك ويمكن للمرء أن يقول، في كل هذه الأراضي الملكية للسودانيين وحتى العاصمة الإمبراطورية الأثيوبية، ومقر الأمبراطور الأثيوبي ويستنتج بأن جنة الفردوس لا بد أن تكون ليست بعيدة. فإنه عند طرد أبونا الأول آدم من الجنة وبسبب قضمه للتفاحة المحرمة، فإنه نفي إلى هذه البلاد المليئة بالشوك حتى اليوم، "إنك وسط الأشواك والإبتلاء والمحنة سوف تفلح الأرض" ولا تصدق أنه في أي مكان في (الأرض)، ماعدا في هذه الأماكن وما حولها توجد مثل هذه الأشواك على كل الأشجار، والثمار، والنباتات الأخرى التي تنمو فيها. وهذه الصحارى تعج بالصيد البري الصغير الرقيق.

وفي أثناء سيرنا كنا نثير ونفزع الأرانب والغزلان وأشباهها. والكثير منها أصابتها العصي والحجارة التي أطلقها النوبيون التابعون لنا. وإذا لم تصاد وتقتل أو يقبض عليها، فإنها تعيش حتى تنفق من كِبَر السن. والنوبيون لا يطاردونها بالكلاب ولا يصطادونها بأي طريقة أخرى. والغزلان في هذه الأقاليم والأقاليم المجاورة تحمل في جسمها حوصلة ترياق السم الشرقي الأصيل. وهي أكبر من بيضة الحمامة، وقد حملت معي بعضاً منها عند عودتي. ولأن قيمتها وفائدتها غير معروفة لدى هذه الشعوب البربرية فإن العرب والناس الآخرين الذين يعيشون هنا يقدرونها قليلاً أو لا يقدرونها بتاتاً. والحرارة التي نكابدها لا تطاق والأرض والرمال تصبح من السخونة بحيث أنني لا أستطيع أن أقف عليها حافي القدمين لأقول (تحيا ماريا) وقد سرنا في هذه الحرارة ساعتين في الليل. وخلال الطريق لم يكن لدينا ما نشربه غير الماء الدافيء العَكِر الذي تحمله الجمال في القرب.

في الثالث من أبريل ١٧٠١، تحركنا قبل طلوع النهار وأمضينا باقي اليوم بدون أحداث تذكر.

وفي الساعة الأولى من المساء، عند غروب الشمس نصبنا معسكرنا.

في الرابع من أبريل ١٧٠١، تحركنا قبل أربع ساعات من شروق الشمس. وكان الطريق في غاية الخطورة، مليئاً بالحفر والشجيرات والأكمات، ولأن الظلام كان حالكاً والهلال كان جديداً في السادس والعشرين من مارس وكنا نخاف أن تضيع منا بعض الجمال. وفجأة سقط جمل، وبعثر كل شيء كان يحمله بقوة. ومما بعثره مرآة غير عادية كبيرة، كان قداسة البابا مرسلها إلى إمبراطور الحبشة وأيضاً صندوقاً في داخله زجاج بندقي. وعلى أي حال، لم ينكسر شيء بحمد الله وشكره. وقد التزمنا بطريقنا باستمرار حتى الساعة الثامنة. وكنا ننعش أطرافنا المتعبة مرة واحدة نحو الظهر بشربة من الماء الدافيء المُر وقليل من الخبز. وخبز الشعير والحنطة والذي يأكله الفقراء في بلدنا الحبيب ألمانيا سيكون من الأطايب المترفة في هذه البلاد ويمكن تقديمه على مائدة أمير.

في الخامس من أبريل ١٧٠١م، نهضنا قبل ساعة من شروق الشمس، وفي نحو ساعتين قبل المغيب وصلنا إلى (بيوضة)، وهو مكان وجدنا فيه الماء وقامت القافلة كلها بالانقسام إلى مجموعات عديدة من أجل الحفر بسرعة للماء. وكنا حوالي أربعة أو خمسة ألف جمل عدداً في كاملنا. والمكان الذي يوجد فيه الماء يقع في منخفض واسع يقدَّر بألفين من الخطوات في الطول وعدة مئات في العرض وإذا حفر المرء بعمق أربعة أو خمسة أشبار في الأرض، يجد الماء ولكنه عكر ومليء بالطين. ومنظر الماء نفسه يصيب المرء بالغثيان. ويمكنني أن أشهد بأن في كل لتر من الماء واحد على ثمانية منه إن لم يكن أكثر، عبارة عن قاذورات وشوائب. وهي كثيفة ودافئة وعكرة بحيث

أنك لا تستطيع أن ترى فيها ضفدعاً قابعاً تحت السطح. وفي هذه الصحراء، وفي أماكن أخرى عديدة، توجد العديد من المخلوقات السامة. خاصة أنواع من الحيَّات بغلظ ساق المرء وفي غاية الطول. ولها جلود جميلة تلمع فيها العديد من الألوان. وهي لا تؤذي الإنسان إلا إذا وطئها فإنها حينها تعض وتنفث سمها في ضحاياها، ويموت الإنسان من جرائها في غضون ساعتين أو ثلاث. وهنالك العديد من الثعابين السامة في هذا المكان ولا يمكن تقدير فاعلية سمومها ولدغاتها. و لدغت العقارب ،التي غالباً ما توجد بكثرة حول المكان، العديد من الأشخاص في قافلتنا، ولكن السودانيون لا يأبهون بها كثيراً ويدعكون مكان اللدغة في لحظتها بطرف من أطراف جسمهم. ويربطون مكان اللدغة قريباً من الجزء المتأثر بعمامة أو حبل أو خيط غليظ بحيث يمنع الدم تماماً من الدوران حتى لا يصل إلى القلب. وهذه العقارب مثل تلك الموجودة في مصر أكبر حجماً وأكثر سُمِّية من تلك التي توجد في أوروبا. وهي بنية أو رمادية اللون.

في السادس من أبريل ١٧٠١م، هيأنا أنفسنا للمسير في الساعة السابعة صباحاً، بعد أن سقى الجنود جيادهم، وقد شربت الكثير من الماء الذي تحتاجه لمواصلة الرحلة، حيث أنهم لا يستطيعون حمل الماء معهم. وهذا الماء الشحيح، الرديء، والمليء بالطين والوحل، القلوي الدافيء أيقظ فينا الشعور بشدة العطش والحرقان والحُموضة وخوفاً من الأخيرة لم نكن نجروء على شُرب الكثير. وكنا نعاني من شدة العطش للدرجة التي خشينا فيها من الفناء.

في السابع من أبريل ١٧٠١م، تحركنا قبل أربع ساعات من طلوع الشمس وسرنا حتى منتصف النهار، ثم استرحنا في مكان لطيف لمدة ساعة ونصف تقريباً. و لم ننصب خيامنا، و اختار كل واحد منا مكاناً قبع فيه محاولاً قدر إستطاعته أن يتفادى حرارة الشمس المباشرة. وأخذت أنا ثوبي النوبي ونشرته

فوق جملين مثل المظلة وتمددت بينهما على الأرض الحارقة الحارة حتى أنشط أعضائي المتعبة قليلاً في الظل. ونحو الساعة الواحدة استأنفنا المسير، وركبنا حتى ساعة من حلول الليل. و لا يمكن وصف حقيقة نوع المياه التي كنا نشربها في هذين اليومين الماضيين. وفي الحقيقة كلما شرب المرء من هذا الماء كلما ازداد شعوره بالعطش وكنا عطاشى بشكل لا يوصف. وكانت الحرارة الفائقة جزءاً من السبب بالإضافة إلى حقيقة أن الماء الذي كنا نشربه كان فاتراً ومليئاً جداً بالطين. وكان يتعرض للخض من الحركة المستمرة نتيجة لحركة الجمال؛ وفي داخل القِرب أصبح أشبه باللبن المخضوض، وعندما نصبه يتدفق منه الطين والقاذورات مختلطاً وعالقاً.

ونحو ساعة من حلول الليل نصبنا معسكرنا ولكننا لم نمكث هناك أكثر من ثلاث ساعات. واستأنفنا سيرنا قدماً أغلب الليل وحتى منتصف النهار بدون توقف للراحة، ثم توقفنا لمدة ساعتين تحت السماء المكشوفة كما فعلنا بالأمس. بعدها اندفعنا قدماً، حتى نخلص أنفسنا من هذه التعاسة والشقاء. وبعد ساعتين بعد مغيب الشمس أنزلنا أحمال جمالنا، ولمدة أربع ساعات فقط، ثم استأنفنا سيرنا قُدماً طوال الليل، وعلى القاريء المحظوظ أن يقدر بنفسه مدى الإنهاك والتعب والغثيان الذي كنا فيه، وأن يثمن نجاتنا وبقاءنا أحياء برغم إزعاج الحشرات والهوام والمنغصات الأخرى. فليساعدنا الله في تجاوز كل ذلك وتركه خلفنا، وأن نصل في النهاية إلى الأمل المنتظر طويلاً في الوصول إلى مركز البعثة في سنار.

في التاسع من أبريل ١٧٠١ والحمد لله سوف نترك وراءنا هذه الصحراء المضنية المتعبة والخطرة بعد مسيرة أخيرة بدون توقف.

في الرابعة بعد الظهر وصلنا إلى (تريرة) قرية على ضفة النيل. وهي لا تتبع إلى مملكة النوبة ولكن إلى الفونج، وبالتحديد إلى (قَرِّي). وكان علينا أن نتحمل

في هذه الصحراء أكثر مما تحملناه في أي مكان آخر في كل الرحلة. ففي الأيام الأربعة والنصف الأخيرة، سرنا أكثر من سبع وستين ساعة من الثلاث وثمانين ساعة التي أمضيناها. ويمكنني أن أؤكد للقارئ (المحظوظ) بأن في كل ساعة سرناها قطعنا ميلاً ألمانياً كاملاً، نتيجة للسير بالخطى الحثيثة المندفعة. وسوف أترك لكل واحد أن يقدر لنفسه كم من الأميال أنجزناها منذ أن غادرنا مصر، وكم من المصاعب قد عايشناها. وفي كل هذه الرحلة المرعبة، والتي من المستحيل وصفها، فإننا لم نتناول أبداً أي طعام دافيء ماعدا في بيوضة. ولكن كان علينا أن نعيش على الماء والخبز والقليل من الجبن والذي أعددناه في تنقاسي. و تنبع خطورة الركوب في الليل ليس من قطّاع الطرق الذين قد يكونون مختبئين لينصبوا لنا كميناً، وإنما في القفزات التي تكسر العظام والتي كنا نتعرض لها، جزئياً من الحُفَر العديدة، والطريق الرديء ، و من الخوف أيضاً ، من أننا قد يصيبنا النعاس ويدعونا للنوم فنسقط من ظهور حميرنا – وعندها لا شيء يمكن أن ينقذنا. وفوق ذلك ،كنا خائفين جداً أن تسقط بعض الجمال أو تضيع في الصحراء، ففي هذه الحال سوف يكون الفقد عظيماً.

وطبيعة هذه الصحراء الممتدة لستة أيام كالآتي: كما في الصحراء (السابقة) فإننا ،بدون أن نشعر ونلاحظ ذلك، صعدنا جبلاً عالياً، ومن خلال هذه العملية – تعرفت على كيفية طريقة تشكيل الكرة الأرضية. وهنا في تِريرا حيث نقف على خط الطول الثاني عشر أصبحنا الآن في مملكة الفونج.

وعُري وجرأة الرجال والنساء هنا هي تماماً مثل تلك التي وصفناها في النوبة، ماعدا هنا أن النساء يلبسن حُليّاً أكثر جمالاً وأغلى ثمناً مصنوعة من المرجان، وعرق اللؤلؤ والكهرمان والزجاج الملّون حول أعناقهن وعلى شعرهن وآذانهن وأنوفهن، وعلى أيديهن وأرجلهن. وأرض وتربة هذه المملكة في

غاية الخصوبة. ومليئة بالثمار. واللحم طيب للغاية. وثمن الخروف يساوي أثنا عشر أو خمسة عشر (كروتزر) والحمامة ثلاثة أو أربعة. ويمكن للمرء شراء مئة مثقال من الشحم مقابل ثلاثة أو أربعة (فلورين). وبما أن اليوم كان يوم جمعة فقد ابتعنا سمكة تزن ثمانية أو عشرة أرطال بثلاثة (كروتزر) وتُقبل النقود في هذا البلد، وبها يمكن للمرء شراء أي شيء في العالم من أفضل ما يكون. وهنا، ماعدا النقود، التي يوجد منها القليل، كل شيء في غاية الوفرة. وبالرغم من أن بلاد النوبة، مليئة بالنخيل إلا أنه لا يوجد هنا. وقد يكون ذلك بسبب الحرارة التي لا تطاق. وهذا ينطبق أيضاً على كل مملكة قرِّي والفونج، وأمبراطورية أثيوبيا الواسعة.

في وقت باكر من صباح العاشر من أبريل ١٧٠١م، غادرنا رئيسنا، الأب دا سالمي. مع اثنين من برابرتنا قاصداً سنار حيث مبشرينا الذين ينتظرون هناك. وكان عليه أن يرتب كل المسائل الضرورية لمهمتنا التبشيرية، وكذلك إرسال أحد المبعوثين للإمبراطور الأثيوبي ليعلن وصولنا إلى مملكته وعلى المبعوث حامل الرسالة أن يرجو السماح بالموافقة الكريمة باستقبال المبشرين. وأن يسلِّم الرسالة بتفويض قداسة البابا، وكذلك الخطاب المعنون للأمبراطور وكذلك هدايا البابا.

غادر اليوم قلة من الجلابة خاصة أولئك الذين يحملون بضائع إلى قرِّي. وفي هذا المكان يجب على كل القافلة أن تعبر النيل وقد ادعى جلابة الملك بأن لهم أولوية العبور لأنهم يحملون بضائع الملك- وهنا في هذه القرية التي يتم فيها عبور النيل، مركب واحد فقط متاح وهو مركب صغير.

في الحادي عشر من أبريل ١٧٠١م، غادر جزء آخر من القافلة، وكان من ضمنهم الآباء الجزويت. ونحن من الناحية الأخرى بقينا هنا ننتظر حيث إن كل أنواع الطعام التي نحتاجها لنا ولجمالنا ممتازة ومتوفرة. ووفرت لنا

ممارستنا الطبية أكثر من حمامة، وخروف وأشياء أخرى مجاناً. ومنذ عيد الفصح وحتى الساعة الحاضرة لم نبتع شيئاً لأنفسنا ولبرابرتنا، وإنما تلقينا كل شيء مقابل خدماتنا الطبية. هنا وفي القرى الأخرى حولها هناك العديد من التماسيح المرعبة، وكذلك أفراس النهر. وهي قليلاً ما تؤذي البشر، على كل حال، لأنها تجد الكفاية من الماشية لإشباع جوعها وشهوتها للخطف والاصطياد.

في الثاني عشر من أبريل ١٧٠١م، تحركنا عند طلوع النهار وفي المساء، نصبنا معسكرنا في الصحراء في مكان يسمى (هَمبِيَا) Hambiaحيث اعتادت القوافل أن تتوقف. وبما أن هذا المكان لا يبعد أكثر من نصف ساعة عن الأراضي المأهولة فقد جلب لنا الناس ما يكفي من الطعام والمؤن. وفي الثالث عشر من أبريل ١٧٠١م غادرنا همبيا قبل طلوع النهار وقطعنا نحو اثنتي عشرة ساعة من المسير. بالأمس واليوم صادفنا معادن في غاية الجمال، والرخام الثمين والحجر السماقي بكميات كبيرة.

في الرابع عشر من أبريل ١٧٠١م، تحركنا قبل الفجر وعند حلول المساء وصلنا إلى سباقي Sabagie. وفي هذه القرية يجب على القافلة أن تعبر نهر النيل و استغرقت عملية العبور هذه وقتاً طويلاً لأن المركب المتاح واحد وصغير نسبياً ولأجل العبور على الواحد أن يدفع قطعتين من الصابون وعشرة نقداً مقابل كل جمل. وكان يمكننا أن نعبر بعد المغيب بساعة. ولكنها كانت عملية خطرة. وبعد نصف ساعة غرق جمل في التيار وكذلك حمار في رائعة النهار. ولذلك أجلنا عبورنا حتى الصباح. وليس هناك نوبي واحد لا يمكنه السباحة مثل الأوزة أو كلاب البودل. وهذه للضرورة لأنه في المقابل ليس هناك وسيلة أخرى وبالرغم مع أن ضفتي النيل مأهولة فليس هناك جسر يربط بينهما.

في الخامس عشر من أبريل ١٧٠١م، وبعد شروق الشمس نقلنا جمالنا وحميرنا

عبر النهر وبدأنا في تحميل المركب بصناديقنا وأغراضنا الأخرى التي علينا أن نصحبها. وعندما تم نقل كل شيء إلى الأرض اليابسة كانت قد انقضت ثلاث ساعات من الصباح.

وفي الجانب الآخر من النهر، كان علينا أن ننتظر ثلاث ساعات أخرى حتى يصل إلينا حسن، وهو الذي يشرف علينا ويرعانا ويحمينا. ونحو الساعة الثانية عشرة تحركنا قدماً، و في ظرف نصف ساعة وصلنا إلى قرِّي، حيث اتحدت كل القافلة من جديد. اليوم حضر معنا اثنان من الآباء الجزويت وجبة العشاء، وفي العصر قضيت ساعتين أو ثلاث في مناقشة مواضيع عديدة مع الأب قرانير. وليس بعيداً عن هذا المكان يصب النهر الأسود (الأزرق) كما يسمى في اللغة العربية في النيل. ولذلك فإنني يمكن أن أقول بشيء من التأكيد بأن أغلب معدي الخرائط التي تضع (الاقتران) بعيداً جداً في مصر قد اقترفوا خطأً أساسياً، لأنهم إن كانوا صائبين كان علينا أن نمر بهذا النهر إما في الصحراء أو في مكان آخر، لأننا وحتى وصولنا إلى مملكة قَرِّي كان النيل دائماً على يسارنا، والنيل الأسود (الأزرق) يصب في النيل من جانبه الأيمن، (ومخبري كُرمب يشيرون إلى يمين ويسار عندما يتجهون إلى أسفل النهر بينما كرمب يواجه أعلى النهر)(!!!). وفي هذا المساء أخبرنا الأب قرانير، رئيس الجزويت، بأنه في الغد هو والنوبيون الذين معه ، بإذن الله سوف يواصلون السير إلى سنار، وذلك ما حدث فعلاً. وفي المساء جاء إلى قافلتنا عربي من بيوضة. وأخبرنا بأن رفقاءه قد ساروا من كورتي وعبر صحراء بيوضة وإلى الأرض المأهولة بأنفسهم قبلنا بقليل لتقليل النفقات وللتخفيف على جمالنا. وقد انضموا إلينا في تريرة، ولكن في رحلة عودتهم عبر الصحراء وقعوا في كمين من نحو ألفين من السودانيين، الذين كانوا في حالة تمرد مستحكم مع ملك سنار، وكذلك مع السكان المجاورين. وقد قُتلوا ونُهِبت جمالهم وأُخِذت غنيمة من قِبَل المنتصرين. واستطاع هذا

العربي وحده أن يهرب منهم لأنه كان يركب جملاً أصيلاً وقال بأن الألفين من الرجال كانوا ينوون الهجوم لنهب وسلب القافلة كلها وأن يقتلوا كل أفرادها. ولكن لأننا سرنا ليلاً ونهاراً، وقد ذُقنا البارود ، كنا على وعي بالخطر لذلك قد نجونا. ولو هاجمونا أثناء السير كان في إمكانهم نهب وسلب أكثر من نصف القافلة، التي كانت تفصل بين أجزائها أكثر من مسافة ساعتين وكان بإمكانهم أن يهجموا على كل مجموعة منفصلة من القافلة بدون مقاومة خطيرة عليهم وأن يغنموها ويسلبوها إلى أن تلتئم القافلة كلها – رغم أنه سوف تسفك الكثير من الدماء.

و لو كان العرب هاجموا القافلة المتحدة في معسكر تجمعها فإنها كانت سوف تتفوق عليهم عددياً وبالتأكيد سوف ينهزمون. وقد كان مكان معسكرنا في كل الأوقات محاطاً بصناديقنا في شكل قلعة. ولكن الفضل الكبير والحمد والشكر لله الذي لم يشأ بحدوث هذا. بل أنقذنا مرة أخرى من هذا المصير المؤسف.

في السادس عشر من أبريل ١٧٠١م غادر جزء مقدر من قافلتنا قبل طلوع النهار بساعة وجزء آخر أعقبه عند الشروق . ومجموعة ثالثة غادرت بين الساعة الثانية والثالثة، ومن بينهم الأب باوليتي من الجزويت. ولكننا وعلى أي حال، بقينا هنا طوال اليوم ومعنا قليل من الجلابة. وهذا لأننا فضلنا أن نسير في برودة الليل. وكذلك لأن شيخ قرّي كان ينتظر القافلة في أربجي، وهو المسئول والمفوض الأعلى المعني وله السلطة على كل المملكة النوبية وعلى دنقلا. وهو الذي في مقدوره أن ينصب ملوكها أو يعزلهم، كما يشاء. وعلى كل الجلابة أن يدفعوا له هدية – وفي حالتنا من المحتمل أن تكون أربعين أو خمسين فلورين. وبما أن هذه الهدايا هي أقرب إلى الأتاوة والإستبداد أكثر منها إلزاماً مشروعاً– تركنا القافلة تسير قبلنا بيوم كامل حتى نتفادى دفع هذه الأتاوة.

في السابع عشر من أبريل ١٧٠١/ ركبنا قبل أربع ساعات من طلوع النهار وفي الساعة الرابعة أو الخامسة وصلنا إلى (سُبايشين) (Subaichen)(١٠). حيث توجد قليل من البيوت ولكن بالرغم من ذلك فإن الناس جلبوا طعاماً لنا ولجمالنا من العديد من القرى المجاورة. وقد كان وافراً وبمساومة جيدة. فما وزنه مكيال من الذرة يمكن أن يشترى بنحو عشرين كروتزر. والحمامة المكتنزة تكلف ثلاثة أو أربعة كروتزر، وبالكثير خمسة. وقد كنا نسير على أرض في غاية الجمال تربتها سوداء خصبة ومثمرة ولكنها تظل مهجورة خالية لا حياة فيها. وحتى هذه النقطة فإن مملكة قرِّي تشبه حديقة جميلة تزرع فيها أفضل المحاصيل وأشجار الفاكهة. وهنا، على كل حال، لا يرى شيء من هذا القبيل. وبسبب الحر الذي لا يطاق، فإن السهل الذي يقع أمامنا، والذي لا يمكن أن نرى له نهاية، يبدو لنا تماماً مثل بحر من السراب؛ فالحرارة وانعكاس الشمس التي ترتد من الأرض مثَّلت لنا هذا الإقليم من الأرض كبحيرة أو بحر من الماء. وبدت لنا الجمال التي لم تكن تبعد عنَّا غير مئة خطوة لا أكثر، كأنها أشجار الأرز الضخمة الطويلة، وقد كنت أنا والأوروبيون، نشاهد هذا باستمرار وبدهشة عظيمة وبالغة منذ اللحظة الأولى التي دخلنا فيها الصحراء.

في الثامن عشر من أبريل ١٧٠١م، استأنفنا السير قبل ثلاث ساعات من شروق الشمس و عند الشروق وصلنا إلى الحلفاية، وهي مكان كبير ولطيف والبيوت تشبه في طبيعة بنائها تلك التي في النوبة، ولكنها أحسن وأوسع وأنظف وأيضاً ملساء بسبب طبقة من التزبيل، وهنا وجدنا أيضاً أرضاً في غاية الخصوبة. وفي الحلفاية التقينا مجدداً بالقافلة كلها والتي قضت فيها يوماً من الراحة.

في التاسع عشر من أبريل ١٧٠١م، تعجلنا بالسير في منتصف الليل وفي مدى نصف ساعة وصلنا إلى العيلفون. وهي مكان لطيف وجميل - وأنا لم أستطع

التخلص من اندهاشي لخصوبة التربة في هذه البلاد. واليوم وبالأمس صادفنا أجمل المساكن، ولأننا كنا نضع النهر على مسافة ساعة على يميننا - وحول هذا المكان فإن الأراضي السوداء بالغة الخصوبة كتربة للحدائق، لم تزرع. وخلال الطريق رأينا أشجاراً جميلة من نوع لا يُرى أبداً في أوروبا. وبالرغم من أنها ليست طويلة لكنها ظليلة. إنه من المُحزن أن هذه الأرض ليست في يد المسيحيين، بل في قبضة النوبيين، الذين جبلوا على الكسل. ومن المؤكد وبدون - أي شك- أن خصوبة إيطاليا لا تضاهي خصوبة هذه الأرض التي تقبع، جرداء وغير مستغلة. وبدون أي صعوبة يمكن للمرء أن يزرع كل أنواع الأشجار المثمرة، والحبوب الزيتية و(النبيذ)(!!!) بكميات وافرة تجعل من مملكة الفونج مخزناً عظيماً للغلال والإمداد لأراضٍ أخرى كثيرة. تهطل الأمطار في هذه المنطقة لمدة أربعة أو خمسة أشهر، يومّياً تقريباً، ولكن الشمس التي هي في غاية الحرارة تظهر أيضاً يومياً في نفس الفترة. والقاريء الكريم قد يريد أن يعرف لماذا لا يفيض النيل وينساح ويغطي الأرض في هذه البلاد، وخاصة أن المرء يبدأ تدريجياً في الاقتراب من منابع النهر. وحتى في مصر فإنها لا تمطر أبداً وفي كل تلك المملكة وفي أماكن عديدة من النوبة فإن النهر لا يمكن حبسه داخل ضفتيه ولكنه يفيض ويغمر كل شيء. وحول هذا سوف أجيب متفقاً مع (الأب كيرشيرو) بأنه ليس هنالك سبب آخر سوى مجرى أو بطن النهر نفسه. وهو عادة يهبط من بحيرات تقع في أماكن عالية وحسب الإرتفاعات المختلفة للأماكن، فإن الماء يجري في أعماق متواصلة وبعد ذلك يندفع وفقاً للإرتفاعات المختلفة لهذه الأماكن. وبهذا فإنه من المنطقي أنه كلما كان المجرى عميقاً للنهر الذي يجري بين الجبال، فأنه يمكنه أن يحمل مياهاً أكثر، حيث أن الجبال تمنع الفيضان. وفي الجانب الآخر، كلما كان المجرى منخفضاً، كان أدعى لأن يفيض الماء عن المجرى وخاصة

في أقاليم السهول المنبسطة، لأنه لا يستطيع أن يحبس الماء بين ضفتيه. ولذلك فليس من العجب أن أرض مصر والنوبة تخضع لفيضان النيل، بينما نجد أراضي السودانيين قَرِّي والفونج وأثيوبيا بمجراها الجبلي والضفاف العالية لا تتعرض للغمر بالفيضان. وفي هذه البلاد أقول بصدق إنني لم أر أبداً في حياتي مثل هذه الأمطار الغزيرة التي تعرضت لها مراراً في هذه البلاد. والمرء قد يثبت وبدون تعارض أن هذه الأمطار الغزيرة ونتيجتها من فيضان الأنهار، وخاصة النيل، ليس لها سبب آخر غير طبيعة الجبال الأثيوبية. والحرارة العظيمة للشمس، ومن خلالها تجمع الطبيعة الرطوبة الوافرة ومياه الأرض، ثم تجعلها تهطل بغزارة. والعلامة الأكيدة لقرب هطول الأمطار الغزيرة، والرعود العاصفة، ظهور بعض السحب أو الضباب عند شروق الشمس وحتى وإن كانت صغيرة ، حتى وإن كان باقي السماء صافية. وفي الجانب الآخر، فالمرء لا يشعر بالإنزعاج عندما تُغطِي السماء بكاملها السحب محملة بالماء، إذا لم تكن موجودة عند شروق الشمس.

وهذه الأمطار الغزيرة تستمر لمدة ساعتين أو ثلاث وتصحبها دائماً بروق ورعود لا تقاوم. والأمر الطيب على كل حال أن هذه لا تحدث صواعق، أو تحدث ضرراً لأي من مخلوقات الله الحيَّة. وعلى المرء أن يعي بأن المواسم في بلاد الأفارقة هذه، وخاصة أثيوبيا لها طبيعتها المختلفة جداً عن طبيعة بلادنا. فعندما تكون الشمس بعيدة جداً عنا في أوروبا حيث يكون منتصف الليل، يكون العكس تماماً في هذه البلاد التي تقع في ممر الشمس ، فهنا في الصيف، يكون الطقس حاراً وجافاً عندما تكون الشمس على مسافة بعيدة. وعندما تقف عمودية على رؤسهم وفي قمة السماء، فإنها تحدث طقساً بارداً وممطراً. وهذه الدورة للطقس السنوي هي ثابتة بصورة كاملة ومنتظمة في أثيوبيا، وفي مملكة الفونج والأراضي والبلاد المجاورة، وتتأخر هذه الأمطار

الغزيرة أسابيع قليلة، ففي مارس وأبريل تكون قد بدأت في أثيوبيا، التي تقع في مدار الشمس، ولكن في مملكة الفونج، والتي تقع أيضاً في (مدار) الشمس،والأماكن الأخرى حولها، فإنها تمطر في مايو أو بداية يونيو. وهي أيضاً تمطر لشهر أطول. والسبب في ذلك يكمن في أن الجبال الشاهقة التي تحيط بأثيوبيا تحبس وتعيق بقوة كبيرة مجرى السحب وتجعلها تمطر.

في العشرين من أبريل ١٧٠١، تحركنا قبل منتصف الليل ووصلنا نحو منتصف النهار إلى (كترانج). وهي قرية تقع على سهل جميل ومثمر كالسابق. والسبب في تحركنا في هذا الوقت الباكر هو تفادي الحر المخيف المرعب للشمس حيث أننا لم نعد قادرين على تحمل السفر في النهار، ولذلك فضلنا السفر ليلاً. وبالرغم من أن القمر لم يكن يظهر طوال الليل. إلا أنه في هذه الأماكن، حيث كان الطريق ممهداً ، بإمكان المرء أن يسافر طوال الليل، وبما أن الظلام لم يكن كثيفاً، بيستطيع المرء إذا أضاع قرشاً ي أن يجده بدون استعمال مصباح. واعتقد أن سبب ذلك هو أن قبة السماء دائماً مزدانة بالنجوم الساطعة واللامعة، والتي لا نرى مثلها أبداً في بلادنا.

اليوم (إبتعنا) قنطارين من الذرة لعلف جمالنا بنحو ثلاثين كروتز. وبعدها جاء إلى خيمتنا عدد قليل من العبيد والإماء. وطلبوا منا أن نأخذهم معنا عند رجوعنا إلى القاهرة من سنار، وأبدوا رغبتهم في خدمة نسائنا وزوجاتنا وأولادنا هناك، فهم اعتقدوا بأننا مصريون. وهؤلاء الإماء هم حراس المائة وخمسين محظية لشيخ هذا المكان، والذي يحتفظ بهن في حوش داخل قصره الكبير تحت حراسة مشددة.

في الحادي والعشرين من أبريل ١٧٠١م، تحرك جزء من قافلتنا مجدداً لأنه بالأمس حضر اثنان من مراسيل البريد إلى القافلة حاملين أوامر من الملك إلى جلابته للإسراع بسيرهم قدر الإمكان. ومن أجل إعداد أنفسنا وجمالنا

بأفضل صورة، قمنا نحن والبعض القليل الآخر، بالتحرُّك قبل ثلاث ساعات من طلوع النهار. وبعد أن سرنا لمدة خمس ساعات– وقد انفصلنا نحن وأثنان من الجلابة الآخرين – أخذنا طريقنا بمحاذاة النهر الذي كان إلى يميننا، وفي هذه المملكة فإن هذا الطريق يتوفر فيه الأمن ليس كما في مصر والنوبة. ونحو الساعة الثامنة وصلنا إلى (البشاقرة)، وهي قرية فيها مركب لعبور النهر وبحلول منتصف الليل عبرنا بكل بضائعنا وجمالنا وحميرنا. وقد مكثنا هناك لمدة أربع ساعات، ثم استأنفنا سيرنا لمدة أربع ساعات أُخرى، وأقمنا معسكرنا في حقل فسيح.

في الثاني والعشرين من أبريل ١٧٠١م كنا في طريقنا قبل أربع ساعات من شروق الشمس، وقد تركنا خلفنا مجدداً أرضاً في غاية الخصوبة، ولمسافة ساعات عديدة من المسير كانت تغطيها الحشائش التي أيبستها حرارة الشمس. وقد سرنا طوال اليوم في حر لا يطاق يكفي لإسالة المخ في العظام. وجعلنا في غاية الإنهاك حتى ظننا أننا سنهلك من العطش، والحر، والضعف والإغماء وانعدام النوم. وقد عسكرنا في العراء بعد ساعتين من مغيب الشمس.

في الثالث والعشرين من أبريل ١٧٠١م حَمَّلنا جمالنا قبل ساعتين من طلوع النهار، وقبل مغيب الشمس بقليل وصلنا إلى القرية الكبيرة (أبوعُشر) وهناك مجدداً مكثنا قليلاً وأعطينا جمالنا ما يكفي لطعامها وشُربها.

في الرابع والعشرين من أبريل ١٧٠١م/ غادرنا هذا المكان قبل ساعتين من طلوع النهار وعند الظهيرة وصلنا إلى قرية تسمى أبتيريAbttiri، حيث استرحنا حتى الساعة الرابعة. وبعد ذلك في نفس اليوم سرنا ساعتين من الليل. ونصبنا معسكرنا في العراء. وبمجرد أن أنزلنا أحمال الجمال جاءنا العديد من الأعراب يتدافعون إلينا. وكانوا يحملون الحراب و(السيوف) والدرق في أيديهم وطالبوا بإعطائهم دستة (Crowns)على كل جمل. وقد نهض إليهم

نوبيونا المرافقون وبكلمات قليلة وبإدعائهم بأننا أطباء الملك تخلصنا منهم.

في الخامس والعشرين من أبريل ١٧٠١م، غادرنا معسكرنا قبل أربع ساعات من طلوع النهار ونحو منتصف النهار وصلنا إلى قرية للعرب تسمى بنتريا Bentriaحيث بقينا لمدة أربع ساعات بسبب الحرارة البالغة. وبعدها واصلنا سيرنا لمدة ثلاث ساعات حتى حلول الظلام.

في السادس والعشرين من أبريل ١٧٠١م تحركنا قبل ثلاث ساعات من طلوع النهار وفي خلال سبع ساعات وصلنا إلى أربجي وهي مكان جميل ولطيف حيث يعبر كل الجلابة نهر النيل. وهناك التحمت كل القافلة مجدداً. وقابلنا القليل من الجلابة فقط، وكان الباقون ما زالوا في الضفة الأخرى.

وعلى كلٍ، فاليوم سيعبرون هم وبضائعهم، وخاصة أن الليلة مقمرة والبدر كاملاً. وقد اندهش الأب باوليتي من جمعية يسوع، من وجودنا، لأنه لم يكن يدري بأننا قد عبرنا النهر منذ مدة طويلة بدون عوائق مما قصر طريقنا بمسافة معتبرة، بالرغم من أننا كنا نسير بتمهل أثناء الطريق. وعندما سمع منا هذا تحسر على عدم البقاء معنا. وقد أفاد بأنه هو والجزء الآخر من القافلة قد اندفعوا مسرعين في سيرهم العنيف ليلاً ونهاراً مما أدى لموت عدد من جمالهم في الطريق. وأنهم هم أنفسهم أنهكوا تماماً.

اليوم تلقينا رسالة من الأب باسكويل المبشر، وطبيب الملك في سنار. وفي الخطاب أفادنا بأن الأب أنطونيو ديللا تيرزا وصل إلى أثيوبيا وأصبح في البلاط الملكي. ولكن كيف دخل، وتحت أي نوع من الادعاء بقى هناك، فإنه ، حقيقةً، أمر لم يكن بالطبع معلوماً لدينا. وكان قبله واحد من مبشرينا، وهو الأب بنديتو دي تريبالدا الذي تم ابتعاثه مع السفارة التي بعثها ملك سنار إلى الأمبراطور الأثيوبي لتوقيع معاهدة سلام معه. وكان محظوظاً في الوصول إلى

قندر العاصمة الأمبراطورية، وقد استقبله الامبراطوربكل حفاوة وتشريف ويمكن أن يكون وجوده في قندر مفيدجداً لبعثتنا، ولكن لأنه أصبح مريضاً جداً بل محتضراً، فقد أعاده الأمبراطور الأثيوبي بصحبة جنوده إلى مملكة الفونج. ومن هناك لحسن الحظ وصل إلى الأب باسكويل في سنار في شهر فبراير، وهناك ظل طريح الفراش حتى هذه اللحظة.

في السابع والعشرين من أبريل ١٧٠١م، تحركنا من هنا عند الظهيرة، وبعد تسع ساعات نصبنا معسكرنا تحت السماء الزرقاء الصافية في حقل مكشوف.

في الثامن والعشرين من أبريل ١٧٠١ تحركنا قبل طلوع النهار وسرنا حتى حلول الليل. وقد توقفنا لمدة ساعة نحو منتصف النهار في قرية على نهر النيل، وهناك تركنا جمالنا المتعبة تشرب من الماء حتى اكتفت، وأعطيناها قدراً طيباً من العلف.

في التاسع والعشرين من أبريل ١٧٠١م، كان التحرك بعد ساعتين من منتصف الليل وعند الظهيرة وصلنا إلى (أُم فُون Omfun)، وهي مكان جذاب. وهنا في مملكة الفونج هذه، هناك بعض المدن الكبيرة ذات الكثافة السكانية العالية، بينما في مملكة النوبة نادراً ما نجد عدداً من البيوت القليلة المتجاورة، على طول ضفة النيل. ونحو الساعة الثانية ثارت عاصفة رعدية وانهمر مطر غزير. وكانت العاصفة من الشدة بحيث إضطرتنا للبقاء هنا، وألجأتنا لنزع كل شيء كنا نلبسه. و لم يكن لدينا خيار سوى أن ننزعها لنغطي بها بضائعنا وأغراضنا حتى نحميها من التلف. و أحدث هذا المطر الغزير، تخريباً وخسائر كبيرة للقافلة، خصوصاً أنه هطل فجأة. وبالرغم من أننا كنا داخل قرية لم يكن لأحد الوقت الكافي لإنزال أحمال الجمال وإنقاذ ما يخصه من أغراض. وغادرنا هذه القرية في الساعة العاشرة ليلاً، ونحن مبتلين تماماً كأنما غُسِلنا ماعدا المواطنين السودانيين الذين كانوا غالب الوقت

يسيرون شبه عُراة ويجف ما عليهم بسرعة، وقضينا كل الليل في سير مستمر.

في الثلاثين من أبريل ١٧٠١م ، وفي الساعة الواحدة بعد الظهر ، وصلنا إلى حسب الله. ويمكنني أن أقول أن هذه رحلة قاسية حيث لا نوم ولا شيء دافيء في المعدة، وقد شوتنا حرارة الشمس وليس هنالك من شيء غير ماء دافيء عكر للشرب، وجلوس طوال اليوم على ظهر حمار، بالإضافة إلى أننا كنا قد تحملنا أشياء أخرى غير سارة في هذا الوقت الطويل للرحلة. وكل هذا جعلنا في غاية الضعف، ومنهكين ومرضى لحد الهلاك. ولكن من أجل حُب يَسوع المسيح و رغبتنا في تخليص أرواحِ الآخرين فقد تحملنا كل ذلك بصبر. في الساعة الثالثة بعد الظهر تحركنا مجدداً وركبنا لمدة ساعتين في الليل، وتوقفنا أخيراً لقضاء الليل عند قرية قريبة من النيل.

بعد طلوع النهار في الأول من مايو ١٧٠١م، تحركنا محاذين للنيل في درب ضيّق يشق غابة، سرنا فيه لمدة ساعتين. وفي الغابة هناك أشجار عديدة، ضخمة وطويلة تُسمى السُنُط، كانت تصدر شذىً خفيفاً. وهذه الغابة الصغيرة تعشّش فيها طيور من أجمل الأنواع من نوع لم أر مثله أبداً في ألمانيا، وكذلك تعج بالقرود، والقطط البرية وكلها تسرّ النظر. وبعد أن خرجنا من الغابة عبرنا حقلاً جميلاً وواسعاً مداه ساعتين في الطول ومزروع بكثافة بنبات ذي رائحة حُلوة وبعدها عبرنا غابة أخرى صغيرة وجميلة على الجانب الأيسر منا وعلى مرمى طلقة مسدس. وباستمتاع خالص رأينا قردة في تجمعات كبيرة تتقافز من فرع شجرة إلى آخر مثل السناجب. وهذه القردة ليست أكبر حجماً من القطط ولكنها أطول قليلاً، وهي رمادية اللون وعلى وجوهها لحى منفوشة، وكذلك لها ذيل جميل وطويل. وفي هذه الغابة الصغيرة وكل أشجارها من الأبنوس الذي ينتج الصمغ العربي، وتنتشر في هذه البلاد للدرجة التي تستخدم فيها كحطب للوقود في المطابخ. وقلب

الخشب الأسود فقط هو الذي يجلب إلى بلادنا وباقي الخشب لونه أبيض، وفي هذا المكان يمكن للشخص أن يشتري مائة مثقال منها بسعر نصف ثالر أو قِلدر. و يأخذها الجلابة للقاهرة ويحصلون منها على ربح طيب. وبعد أن تركنا هذه الغابة الصغيرة خلفنا وفي مدى نصف ساعة وصلنا إلى العاصمة الملكية سنار.

وصف ما وقع للمبشرين في سنار

بمجرد أن رسخنا أقدامنا في سنار، العاصمة والمقر الملكي لمملكة الفونج، وفي الأول من مايو ١٧٠١م، جاءنا للترحيب بنا إخواننا المبشرون الذين كانوا في انتظارنا، و أحسن الجزويت الاثنان استقبالنا خلال هذا الترحيب، وقد تحدثنا طويلاً عن البؤس والمآسي التي عايشناها، وأبدينا شكرنا لله العظيم الذي قادنا وأوصلنا أخيراً إلى المحطة النهائية التي انتظرناها طويلاً. وقد أعدّ لنا الأب الرئيس منزلاً. وأمر الأب قرانير بمنزل آخر لجماعته الجزويت الذين كانوا يقيمون في نُزُل. وقرب المساء زارنا العديد من التجار وخاصة أولئك الذين جاءوا من مصر، ولمدة ثلاثة أيام متتالية أرسلوا لنا لحماً وطعاماً مجهزاً في أقداح خشبية كبيرة؛ وكان هذا حسب أعراف البلاد، التي بموجبها يلزم أن يقدم الشخص الطعام للصديق والضيف الغريب . ومن بين الذين جاؤونا للزيارة المعلم موسى وهو صقلي بالميلاد من أسرة طيبة في باليرمو، والذي سوف أتحدث عنه لاحقاً.

في الثالث من مايو ١٧٠١ بعثنا الأب فرانسسكو دي سالمي أنا والأب جوزيف إلى نائب الملك شيخ على، وأيضاً للشيخ الأرباب آدم. وقد اخترنا الأخير ليكون راعياً وحامياً لنا، ويتوجب على المرء أن يعلم بأن كل الأجانب الذين يأتون إلى هذه البلاد عليهم أن يختاروا كحام/راع ، وأحداً من الأشخاص الأربعة الأرفع مكانة في المملكة، وهم، شيخ عليّ، شيخ أرباب آدم، شيخ نايل وشيخ إسماعيل - والذي سيكون عندها ملزماً بمساعدته في حل كل المصاعب والمعوقات التي قد تعترضه. وقدمنا للشيخ الأرباب آدم مرآةً مصقولةً كهدية، وزوجاً من الأمواس، ورأس سكر، وقليلاً من قطع الصابون، و بعض الفلفل، و ملء الكف من المسامير الصغيرة، والزبيب، والقِرْفة، والبُنْ، وبعض الحلويات. وبسط الشيخ لنا فروة من جلد النمر

على الأرض كما هي العادة عند النبلاء والشخصيات القيادية في المملكة في هذه البلاد السودانية. وقد جلسنا فوقها متربعين بالطريقة التركية وأقدامنا الواحدة فوق الأخرى، وشربنا القهوة. وقد قال لنا راعينا وحامينا الشيخ أرباب آدم بأنه يرغب في استصحابنا لمقابلة الملك في الغد، وهذا ما حدث بالفعل.

في الرابع من مايو ١٧٠١م في الظهيرة تم استدعاؤنا إلى القصر الملكي وهو منظومة من المباني التي يمكن للمرء أن يحيط بها مروراً في نحو ثلاثة أرباع الساعة. والقصر وغرفه كلها مبنية من الطين اللبن المخلوط بالقش والروث. والغرف مظلمة ولها مدخل واحد، ولكنه عالٍ نسبياً. وفي الداخل ليس هنالك كُرسي أو «أريكة» وليس هنالك ديكورات أو زخارف، ولا أثاث منزلي، ولا صناديق ولا مخدات، ولا شيء آخر غير قليل من البروش الحصائر من السعف المضفور للجلوس، و زير كبير من الفخار للماء، وقرعة، مقسومة من النصف ومفرغة، تُستخدم كإناء للشرب. وفي هذا القصر تعيش زوجات الملك الشرعيات الأربع، ومحظياته، وهن نحو ستمائة في العدد، وكذلك الأطفال الملكيون، وهن معزولات بأشد من راهبات الأدْيِرة المسيحية ، وغير مسموح لهن بالحديث مع أصدقائهم أو أقرباء الدم أو حتى رؤيتهن. وهم في غاية التشدد في هذا الأمر حتى إن الواحدة منهن إذا سقطت مريضة – ما عدا أن كانت واحدة من الملكات الأربع – فإنهم يتركونها تموت بدون علاج، مثل الحيوان الأعجم.

والجزء الأغلب من القصر محاط بسياج من الأغصان الشوكية في مكان الحائط. والغرف، كما هي الحال في كل بيوت هذه المملكة، تشابه تلك التي في مملكة النوبة، ماعدا أنها أعلى قليلاً وأوسع. والأسقف مسطحة تماماً. وللبيوت إفريز بعلو ثلاثة أشبار من الأرض، لتصريف الماء بعيداً عن أساس

المباني الطينية لحمايتها من الأمطار الغزيرة والتي تهطل لمدة خمسة أشهر وتبدأ في مايو أو يونيو.

ونحو الساعة الثانية عشرة - تم إدخالنا لمقابلة الملك. وكان جالساً متربعاً على منضدة أو مسطبة تعلو شبرين عن الأرض تغطيها سجادة حمراء. وكان الملك يلبس قميصاً من التفتا البيضاء موشاة بالأزرق، وبأكمام ضيقة جداً، وكان يضع على حقويه إزاراً بلون أبيض وأحمر، طوله عشرة أذرع وعرضه أربعة. وكان حليق الرأس واللحية، وعلى رأسه كان يلبس طاقية صغيرة من الحرير مطرزة بعدة ألوان وبالذهب. وهنالك حلق ذهبي كبير نسبياً يتدلى من كل أذن، وكذلك تحلي أصابعه خواتم مماثلة، بأحجار كريمة. وكان يحملفي يده اليمنى سيفاً تركياً مسلولاً، وفي كل جانب من مكان جلوسه كان هناك زوج من المسدسات يُظْهِر بها عظمته وأُبهته، و كانت الأبواب المؤدية إلى غرفة استقباله من القصب (القصب العادي الذي يعطيه المرء كعلف لجماله). وبدا لعيني مثل قرد تم إلباسه. وقد سألنا باللغة العربية من أين جئنا وإلى أين نريد الذهاب، وما هي مهمتنا. وعلى هذا أجبنا بأننا مسيحيون أوروبيون ونريد الذهاب إلى أثيوبيا، وبعد ذلك نعود إلى البلاد المسيحية ، وغرضنا أن نرى العالم والأراضي العديدة . ثم قدمنا له هدايانا وتشمل مرآة جميلة كبيرة، وفي الحال نظر بإعجاب واضح إلى وجهه الفاحم السواد. وقد أهديناه أيضاً ست «بكتات» من الصابون البولوني الرقيق، وقليلاً من رؤوس السكر وبعض الحلوى، ومسامير صغيرة، وقرفة وفلفلاً وبذور المحلب وأمواساً، وبعضاً من الزجاجات البندقية وقليل من المصنوعات الأوروبية الصغيرة مثل المدي (السكاكين)، والأمشاط الخ.. وقد أبدى لنا سعادته وسروره العظيم بهَذَه الهدايا قائلاً بأنه يمكننا أن نبقى في مملكته إذا رغبنا، وإذا لم نرغب فإنه لن يعيقنا. كان يقف حوله خمسة أو ستة شيوخ، وخارج الغرفة كان هناك

ثلاثين من العبيد الذين شكلوا حُرَّاسه الشخصيين وكانوا يلبسون قطعة من القماش الرخيص تغطيهم من الخصر إلى الركبتين. وبخلاف ذلك كان باقي جسمهم عارياً تماماً. وكل واحد منهم كان يحمل حربة في يده. وفي الحال، أستأذنّا وعدنا إلى مقر إقامتنا.

وصف مدينة سنار

على المرء أن يعرف أنه في كل أفريقيا، وعلى كل أراضي المسلمين السود، فإن سنار أقرب إلى كونها أكبر مدينة تجارية، فالقوافل تصل إليها تباعاً من القاهرة، ودنقلا، والنوبة، وعبر البحر الأحمر من الهند، ومن أثيوبيا، دارفور، وبَرْنُو، وفزان وممالك أخرى. وهي مدينة حرة، والأشخاص من أي من الجنسيات أو الديانات يمكنهم العيش فيها بدون أي عائق. وبعد القاهرة، فإنها واحدة من أكثر المدن سكاناً. وكل يوم يقام سوق عام في الميدان بأفضل ترتيب ونظام ممكن، ويؤمه العديد من التجار وتعرض فيه البضائع للبيع. ففي مكان هناك بضائع تجارية، وفي مكان آخر يعرض سن الفيل، وفي آخر الجمال والحصين والحمير، والحطب والخشب والبصل والبلح والقمح والذرة، والتي منها يعملون خبزهم ومنها علف ماشيتهم. وهناك أيضاً علف وقصب للجمال، واللحم والدجاج والحطب والأشياء من هذا القبيل كلها تباع وتشترى في مكانها المخصص. وفوق ذلك، فكل يوم في السوق العام يُعرض البشر من العبيد - ذكوراً وإناثاً- رجال ونساء - من كل الأعمار للبيع كالماشية. وكل يوم يساق مئتان أو ثلاثمائة منهم ويعرضون في مربع السوق، والتجار الأتراك (المسلمون) يجعلونهم يلبون أغراضهم الدنيئة، ثم بعد ذلك يبيعونهم لبلاد أخرى مثل مصر والهند، ويجنون أرباحاً طائلة من هذه الممارسة البغيضة. والعبيد في عمر أقل من أثني عشر عاماً، عُراة كما خلقهم الله ، والأكبر سناً. يسترون عوراتهم بخرق بالية. وعندما يتم عرضهم للبيع يقول الراغب للشخص المسئول عنهم: ائتني بهؤلاء العبيد. وبعدها يقوم المشتري بدون خجل أو حياء، بفحصهم مثل المواشي، ينظر إلى أفواههم وأسنانهم، وكل الجسم. وإذا أعجبه أحدهم يقوم بعرض الثمن، وفي الحقيقة فإن على المشتري أن يعرض الثمن الذي يريد أن يدفعه مقابلهم.

وإذا لم يرض البائع عن ذلك الثمن ويعتبره قليلاً يقول «يفتح الله» وذلك بمعنى «أبسط يدك لتدفع أكثر»، وهكذا تستمر المساومة حتى يقتنع البائع بالسعر المعروض، أو يعرض مشترٍ آخر ثمناً أعلى. والسعر السائد لعبد في الخامسة عشرة من عمره يساوي ثلاثين فلورين، وإذا كانت هيئته وبنيته جيّدة تصل إلى أربعين. والأنثى من الرقيق في هذا العمر، إذا كانت ملامحها صافية، تباع بخمسين أو ستين. وفي بعض الأحيان وفي حالة البنت الأثيوبية، فإنها تباع مقابل ثمانين. وفي مصر يباع مثل هذا الصبي بستين، أو ثمانين أو حتى بمائة قلدر، والبنت، إذا كانت جميلة، فإن سعرها يبلغ المائة، ويعتمد ذلك على نوع ومدى جمالها.

وعندما يموت الملك في سنار فإنهم يختارون آخر خلفاً له ويفعلون ذلك بالطريقة الآتية: كل الشيوخ والنبلاء الكبار الآخرين في المملكة يجتمعون، وينتخبون واحداً من الأمراء الملكيين، «المولود إما لزوجة شرعية أو محظية، ينصبونه ملكاً. ويقتلون جميع الأمراء الآخرين، والذين مازالوا معزولين في القصر ،بالسيف، وإذا هرب واحد منهم فإن الملك المنتخب الجديد وهو أخوه بالدم، ملزم بمطاردة (الأمير) الهارب وقتله. وهذا الفعل يتم حتى لا يكون هناك تمرد ضد الملك وسط الأمراء العديدين أو تقسيم للبلاد وبهذا يتم حفظ السلام في المملكة. وتحت هذه الظروف فإنه من الأفضل أن تكون ابناً لعبد رقيق من أن تكون إبناً للملك. وأما الأميرات فإن مصيرهن كما هي العادة في حالتهن أسعد من الذكور الأمراء، وبذلك لا يعانين حظاً سيئاً ويتم تزويجهن بتشريف. وتبعاً لعادة البلاد، فإن الملك لا يحق له معاشرة محظية أو ملكة إذا ولدت له أميراً ذكراً. وبذلك فإن الأخير قد يصبح كمولود أول مرشحاً لمنصب الملك. ومثل هذه الملكة أو المحظية تمنح وسيلة لمورد رزق للعيش الكريم إما في داخل المدينة أو مكان آخر في المملكة، ويجب عليها ترك الأمير في القصر.

في السابع من مايو ١٧٠١م. أقيم احتفال كبير بمناسبة مقدم شيخ قرّي – الذي– يحكم كل مملكة النوبة الشمالية وحتى البحر الأحمر. وقد حمل للملك مئات من العبيد، والجياد، والجمال ومبلغاً كبيراً من المال يمثل جملة مدفوعاته السنوية لسنار.

وبدأ الاحتفال كالآتي؛ ركب الملك وحاشيته من سنار لاستقباله خارج المدينة وكان عدد الجميع نحو المائة فيهم شيوخ وبعض من الجنود على ظهور الجياد، ويتبعهم عدة مئات من العبيد المشاة المسلحين بالحراب وعند اقتراب بعضهم من بعض، نزل شيخ قرّي من على حصانه وقبّل قدم الملك وعند ذلك أمره الملك بالركوب مجدداً على حصانه ، ثم ساروا معاً إلى الميدان الكبير وهو أوسع وأكبر من ميدان ميونخ وكان يتقدم موكب السلطان نحو ثلاثمائة من الإماء اللائي يخدمنه ويخدمن محظياته وهن يلبسن تنورات من الحرير وباقي الجسم عاري وفي أيديهن يلبسن أسورة من الفضة، وكان شعرهن مزداناً بعدد كبير من القطع الفضية وبعض الخرز البندقي وكلها كانت تصدر رنيناً موسيقياً. ومن آذانهن تتدلى حلقان من الفضة أو الذهب، وحول أعناقهن عقود من خرز الزجاج البندقي، والعقيق والودع. وفي أيديهن كن يحملن سِلالاً تزينها حلقات صغيرة جداً من الزجاج (الخرز البندقي)، مثل تلك التي تصنع منها الراهبات المحافظ وهذه السلال مثبت في أعلاها بارتفاع أربعة أشبار مباخر من الفخار. ومنها تنبعث من حين لآخر، روائح زكية من البخور الثمين. وقد ملأن كل طرقات المدينة بالأغاني وزغاريد الفرح (كما تعود أن يفعل صبيان المزارعين في بلادنا) وكذلك تجاوبت كل النساء الأخريات في طريق سير الملك، فكان هرَجاً مرعباً . وبمجرد أن وصلوا إلى الميدان اتخذ السلطان موقعاً إلى يمين الميدان هو وحاشيته، وكان شيخ قرّي إلى الشمال. وكان العبيد حفاة الأقدام يحملون السيوف والحراب والدرق وقد قسّموا أنفسهم إلى فرقتين، وتقدموا مندفعين

نحو بعضهم البعض وهم يطلقون صيحات مرعبة وكأنهم يقبلون على معركة. وقد وضعوا أنفسهم على هيئة تجعلهم يهزّون حرابهم في وجه بعضهم، ثم تقرفصوا على الأرض، ثم أخفوا أنفسهم تحت درقاتهم، ثم قفزوا مجدداً وهم يصدرون صيحة عظيمة. وكان المنظر ممتعاً للنظر ولكن يتعذر وصفه. وكان هنالك مئتان يحملون البنادق وهي كل ما عند الملك، وتم إطلاقها الواحدة تلو الأخرى. وأطلق أحد حملة البنادق وأشجعهم، سلاحه وهو ينطلق بأقصى سرعته؛ من على ظهر حصانه وكان الجميع مندهشين منذهلين من شجاعته. ولكنني ضحكت من كل قلبي على هذه السذاجة. وبعد إكتمال هذه الملهاة، والتي استغرقت وقتاً مقدراً، بدأ الفرسان في الاستعراض، بعضهم ركبوا على ظهور جمالهم وتسابقوا على طول الميدان، بسرعة أذهلت المتفرجين. وبعد استعراض هذه الجمال، بُدِئَ سباق للجياد كل أثنين منها، وهي جميلة للغاية ولكنها ليست قوية البنية، وهم يقودونها بعصي صغيرة لتوجيه الرأس بدلاً من اللجام. والفرسان يحملون حراباً أو سيوفاً مسلولة في أيديهم، وهذه يسلمها عبيدهم لهم عند عدوهم بأقصى سرعة، بعد أن تخلصوا من عصيهم وسياطهم. وكل واحد من المتسابقين من الأول إلى الأخير فعل هذا. والملك نفسه، وبجنوده ، حمل على شيخ قرِّي وكأنهم يريدون قتال بعضهم البعض، ولكن الأمر كله كان يتسم بالفوضى وعدم النظام. وقد سألني أحد المشاهدين هل لدينا في بلادنا مثل هذه الجياد والجنود الشجعان وعلى هذا التساؤل أجبت بأن خمسين من جنودنا على ظهور الجياد يمكنهم أن يجعلوا الملك وقومه وشيخ قرِّي وحرسه، وفي الحقيقة كل حاشية البلاط يهربون أمامهم. وهذا الرد لم يَسُرَّ البربري أبداً و لم يصدق كلمة منه. و لم أعلِّق أكثر من ذلك. وأخيراً في ختام هذه الملهاة تم إطلاق مدفع ميداني صغير، وهو كل القوة الجبارة لهذا الملك!!.

رحلة إثيوبيا المجهضة

في الثامن من مايو ١٧٠١م رتبنا ونظمنا أغراضنا وحاجاتنا لمواصلة رحلتنا القادمة. كان علينا أنا والأب (الرسولي) والأب جوزيف والأب كارلو الذهاب إلى أثيوبيا قبل حلول فصل الأمطار الغزيرة. وكان على الأب باسكويل البقاء هنا مع الأب بنديتو. وقمنا بتبادل النقود الفضية التي كانت معنا. وتتكون من (قطع الثمانية) الأسبانية لأن العملة الأكثر قبولاً هنا هي الذهب. وفي كل بلاد المسلمين لم تعد النقود الفضية تجد قبولاً ما عدا قطع الثمانية الأسبانية وكذلك عملة السيكوين البندقي الذهبية. وفي الجانب الآخر في القاهرة وأيضاً في كل مصر، فإن الثالر الأمبراطوري والقيلدر (والدوكات)كانت مقبولة أيضاً. وتوجد في مصر أيضاً عملة نقدية أخرى أصغر من (الثالر) وتُسمى (أبو كلب) لأن عليها ختم بصورة كلب الأمر الذي منحها الاسم. وهذه العملة أقل بنحو عشرين (كروترز) من قطع الثمانية وفي كل مملكة النوبة ليس هنالك نقود متداولة ويوجد القليل جداً منها متداولاً بين التجار الذين يتاجرون مع القاهرة والذين بدأُوا حالياً في قبول قطع الثمانية. و هي أفضل العملات في مملكة الفونج أيضاً ولكن يجب أن تكون كبيرة وعريضة، وهم لا يبالون إن كانت أقل وزناً طالما أنها كبيرة وفي مصر العكس هو الصحيح. في هذه المملكة أيضاً عملة فضية أكبر من الكروتزر وأصغر من (المديني) المصرية. وهي مصنوعة من أجود أنواع الفضة وتبعاً لحجمها فإن خمسة وأربعين أو خمسين او خمسة وخمسين منها تساوي قطعة الثمانية أو (الرايخ ثالر) وعلى كل حال فإن هذه القطعة يتم قبولها عند البيع والشراء بستين من النقود الفضية. بالإضافة لهذه العملات لديهم عملة أخرى من الحديد بهذا الشكل وبحسب حجمها، فإن اثنتا عشرة أو ست عشرة وحتى عشرين منها تساوي قطعة نقدية فضية صغيرة. وكل من يرغب فإن في إمكانه عمل هذه القطع

النقدية الحديدية ويمكن للواحد أن يصنعها كبيرة أو صغيرة رقيقة أو سميكة رفيعة أو عريضة، طويلة أو قصيرة. وهنالك رجل إغريقي اسمه شنشن جاء إلى سنار معنا. ومهنته في الأصل صانع سيوف، وعندما لم يجد عملاً هنا تحول إلى صناعة هذه النقود واستفاد استفادة كبيرة بصنع قطعتين نقديتين صغيرتين من كل واحدة كبيرة.

وفي مدينة سنار وهذه المملكة ليس هناك نقود ذهبية مسكوكة متداولة. ويوجد أجود الذهب العربي، ويباع بالوقية التي تزن نحو أربعة دبلون أسباني تساوي أو تكلف تسعة أو عشرة من قطع الثمانية. بالإضافة إلى ما ذكرناه ،هنالك نوع آخر من العملة في مملكة الفونج، وأيضاً في مملكة النوبة وفي الحقيقة في كل أفريقيا وسط الأفارقة – السود– وهذه عبارة عن قطع من النسيج القطني طولها أربعة وعشرون ذراعاً وعرضها نحو شبرين ويُسميها العرب في لغتهم (توب دمور) ويلبس الرجال والنساء كليهما من هذه الثياب.في البداية يُطبّق الطول مرتين ثم يلف هذا المطبوق حول الحقوين ثم يغرز في النهاية في الجنب. بهذا يغطي الجزء الأسفل من الجسد. وبهذه الثياب يمكن للمرء أن يشتري كل ما يرغب فيه. وفي أثيوبيا لديهم عملة أخرى من الذهب، وهي أرخص قليلاً من سنار. وثوب الدمور والزباد رخيصان، ويستطيع المرء أن يشتري ست وقيات من الزباد مقابل وقية من الذهب وخمسين كتلة مربعة من الملح الصخرى كل واحدة منها بطول شبر وعرض ثلاثة أصابع في جنباتها الأربعة وتساوي وقية واحدة من الذهب. والناس يعملونها كتلاً أصغر من الملح تساوي المائة أو المائة وخمسين أو مئتين منها وقية من الذهب. وهذا الملح يستعمل في الطبخ وفي أغراض أخرى أيضاً.

في الحادي عشر من مايو ١٧٠١م قمنا أنا والأب الرئيس والأب بنديتو دا تريبالدا والأب جوزيف المقدسي والأب كارلو داكلنتو وذهبنا إلى الجزويت

وأخبرناهم بأننا نرغب في السفر حاملين الخطابات البابوية التي أرسلتها قداستكم إلى الأمبراطور الأثيوبي. وقد طلب منهم الأب الرئيس أن يصبروا إلى أن يقوم بمهمته ويرى كيف يتم استقباله ومعاملته في أثيوبيا وعند ذلك سوف يقوم فوراً باستدعائهم حتى يتمكنوا سوياً من العمل من أجل الرب كما أمرنا مجمع الدعوة. وفي حالة تعرض بعثتنا لسوء وفشلت في مهمتها، كان من المعروف بصورة واسعة أننا ذاهبون إلى أثيوبيا كقساوسة لتحويل غير المؤمنين إلى الدين المسيحي. وإذا طردنا من البلاد أو حتى قتلنا فإنهم بعد ذلك يمكنهم مواصلة رحلتهم بحسبانهم مبشرين أرسلهم ملك فرنسا. وفي ردهم علينا أجابوا بأنهم لا يستطيعون الإنتظار لأن لديهم أوامر من ملك فرنسا. وعلى كل حال فإنهم سوف يخطرونا عندما يشرعون في مواصلة رحلتهم.

في الخامس عشر من مايو ١٧٠١م، جاء مبعوث بخطاب من أثيوبيا إلى ملك سنار وفيه بنود تتعلق بإتفاقية سلام بين الأمبراطور الأثيوبي وملك سنار. ومن ضمن هذه البنود أن يرسل ملك سنار طبيبه الخاص الأب باسكويل إلى أثيوبيا لأن الأمبراطور يريد أن يجعله طبيبه الخاص. ويعتبر الأب باسكويل طبيباً ورعاً وذا خبرة في هذه البلاد وهو كذلك بالفعل وقد شفي على يديه الكثيرون بالرغم من أن ذلك تم بعون الله أكثر من علم صحيح بالطب. وقد كتب الأمبراطور أيضاً خطاباً للأب باسكويل نفسه وفيه يدعوه بكلمات بالغة التهذيب هو والأب بنديتو للحضور إليه. ولكن ملك سنار لم يكن يرغب في الاستغناء عن الأب باسكويل قبل أن يجد طبيباً بديلاً آخر يحل محله، وكذلك الأب بنديتو لم يكن يستطيع السفر إلى أثيوبيا نسبة لضعفه الشديد. ولذلك اضطر الأب الرسولي رئيس البعثة لتكليف أحدنا ليحل محل الأب باسكويل في سنار وهي موقع في غاية الأهمية ويمثل القاعدة الأكبر

لأي بعثة تبشيرية في هذه البلاد حيث أن القوافل تصل إلى هنا من كل أنحاء أفريقيا. وأن علينا أن ننشيء قاعدة فيها مخازن لكل أغراضنا وزادنا والحصول على الأشياء الضرورية التي تحتاجها البعثة. وفوق ذلك فمن هنا يمكن تبادل الرسائل بسهولة مع كل الأماكن التي يرغب المبشرون في الاتصال بها، واذا دعت الضرورة يمكن استدعاء قساوسة من مصر. وبمساعدة الملك يمكن تموينهم وإمدادهم بكل ما يحتاجون. وسنار لا تبعد أكثر من خمسين أو ستين ميلاً ألمانياً من العاصمة الأمبراطورية في أثيوبيا والمعروفة باسم قندر أوكاثيما.

وقد تداول الأب الرسولي معنا طويلاً في ما إذا كان عليه أن يغادر سنار وأن يكلف أحداً آخر بمهمة رعاية الأب بنديتو المشرف على الهلاك. وفي النهاية وقع الاختيار عليَّ للقيام بالمهمة وجاءني الأب الرسولي وشرح لي بواعثه في ذلك وطلب مني البقاء هنا حيث أنني قد مارست الطب لمدة سنتين في مستشفى سانتكس سبرتس في روما ولدي ذخيرة طيبة من الأدوية. وأيضاً أنه لا يرغب في فقدان هذا الموقع المناسب كقاعدة جيدة مع إرضاء الملك وفوق ذلك فإنني سأباشر علاج الأب بنديتو وقال إنه يصعب عليه أن يفصلنا عن بعضنا البعض. وهو شخص أنهكته حياة طويلة من الدراسة والسفر الشاق وإذا كان كتب عليه أن يمرض فإنه يضع ثقته الكاملة في الله وفي معرفتي الطبية. وعندها عبرت له عن روح الطاعة بالكلمات الآتية:- « أيها الأب المحترم أنا إبن الطاعة وتحت مشيئة الله اللطيف آمل أن تكون حياتي ومماتي إذا كان ذلك هنا أو في أثيوبيا أو أي مكان آخر. فلتترك لي أدويتي وأغراضي الأخرى»، وكانت هذه الأغراض قد حُزمت وحُمِّلت وكان عليَّ أخذها من الصناديق، ولا أود أن أصف كم كان بقائي هنا قد آلم الأب جوزيف والأب كارلو والأب باسكويل وخاصة الآباء الجزويت الأثنين.

وفي الخامس والعشرين من مايو ١٧٠١م جاء إلينا الآباء الجزويت الاثنين

وودعونا حيث أنهم سيتوجهون في الغد إلى أثيوبيا وسألونا إن كنا نرغب في السير أيضاً برفقتهم. وتمنينا لهم حظاً طيباً ومباركة الله. ولكننا أخبرناهم بأننا نرغب في انتظار المبعوث الأثيوبي حتى موعد مغادرته.

في السادس والعشرين من مايو ١٧٠١م يوم عيد القُربان حضر الجزويت الاثنان معنا العشاء الرباني بينما قرأ الأب الرسولي القُداس. بعد ذلك غادروا مصحوبين بعدد من جنود الملك بمثابة حرس حتى توركين التي تقع على بُعد أربعين ميلاً ألمانياً من سنار.

وفي الثاني من يونيو ١٧٠١م قدمني الأب باسكويل إلى الملك وكل بلاطه في مقابلة عامة بوصفي طبيب الملك وكان الملك يجلس تحت الظل على منضدة من القنا مغطاة بسجادة جميلة. وحوله يقف ستة وثلاثون من الشيوخ وفي كل جانب يقف مائة وخمسون جندياً حاملين الرماح. وتقدمت مع الأب باسكويل إلى المنتصف بجانب الملك على أنني طبيب ماهر مع إضافة الكثير من كلمات الثناء. وقد أبدى الملك رضاءه التام بهذا وفي حضورنا أمر في الحال بأن أُعامَل بكل التقدير والاحترام وقد سَمى الشيخ إسماعيل ليكون الراعي والحامي الخاص لي. وقد عرض عليَّ نفس سكن الأب باسكويل ولكنني شكرته قائلاً بأنني أرغب في الإقامة في قصر الشيخ دياب والذي كانت ابنته إحدى زوجات الملك. وبعد ذلك أعطاني كتأكيد لوضعي قِربة مليئة بالعسل وجُرة كبيرة من السَمَن.

في السادس من يونيو ١٧٠١م غادر من هنا الأب الرسولي والأب جوزيف والأب كارلو وقد أخذوا معهم الأغراض الضرورية فقط وتركوا الباقي تحت وصايتي وعبروا النيل الأزرق، والذي يجري بجانب المدينة، بجمالهم وأحمالهم وانتظروا المرسال الذي وعد باللحاق بهم في الغد وقد بقي الأب باسكويل والأب بنديتو معنا في المدينة لحين مغادرة المرسال الذي كان يأمل

في التحرك غداً إن شاء الله ولكن ذلك تأجل ولا أدري ماذا كان السبب. وفي الحادي والعشرين من يونيو ١٧٠١م عَبَر المرسال ومعه الأب باسكويل النهر إلى حيث أبونا الرسولي وجماعته وبعدها في الثاني والعشرين من يونيو ١٧٠١م انطلقوا في رحلتهم إلى أثيوبيا. وبالرغم من أنها مسافة لا تتعدى مسيرة اثني عشر أو خمسة عشر يوماً سيراً متمهلاً إلا أنهم لم يصلوا إلى المقر الإمبراطوري والعاصمة قندر أوكاثيما_إلا في اليوم التاسع من أغسطس، وسنتناول مناقشة ذلك في مكان آخر بطريقة أشمل. في الثامن والعشرين من يونيو ١٧٠١م أرسل شيخ قري مرسالاً بخطاب للملك يطلب منه أن يرسل له في قَرِّي الطبيب الملكي لأنه لا يشعر بأنه على ما يرام. وقَرِّي تبعد حولي مائة ميل ألماني من سنار.

في الثلاثين من يونيو ١٧٠١م أُرسل إليَّ نائب الملك الشيخ علي وحضرت عنده بدون تأخير وأخبرني أن شيخ قري طلب مني الحضور لمعالجته. وقد أجبته بأنني نفسي لا أشعر بأنني على ما يرام وأن صحتي لا تسمح لي بالقيام بهذه الرحلة الشاقة. وأنني أعاني من إسهال حاد من ذلك النوع الذي يصيب جميع الأجانب فى سنار وهو الوباء الشائع الذي أدى لوفاة كثير من الأجانب في هذه البلاد وقبروا فيها.

في الثالث من يوليو١٧٠١م أرسل الملك إليَّ شيخ إسماعيل ،الحامي لي، ليخبرني بأنه يجب عليَّ الذهاب إلى قَرِّي. وقد حاول طمأنتي بأن تغيُّر الهواء سيجعلني أتعافى بسرعة وأستعيد صحتي، ولأسباب عديدة كان عليَّ فى النهاية أن أطيع الأمر بالرغم من العديد من الإرهاصات بأن الأمور لن تسير بصورة حسنة وقد تشاورت مع الأب بنديتو دا تريبالدا الذى تحسنت صحته كثيراً وقد نصحني بالذهاب إلى قري، حيث أنه في مثل هذه البلاد عندما يكون الملك فيها مستبداً فإنه من الأفضل عدم معارضة إرادته.

في الخامس من يوليو١٧٠١م، استدعاني الملك إلى مقابلته وطلب مني أن أذهب إلى قَرِّي وسوف يرسل معي مرسالاً ويمدني بحصان وجمل من دوابه الخاصة.

في الثامن من يوليو١٧٠١م غادرت سنار في الثانية من بعد الظهر بمعية إبن نائب الملك، والذي حدد لي كمرسال إلى قَرِّي، ومعه عشرة أشخاص آخرين على ظهور الهجن ومسلحين تسليحاً جيداً بالرماح والدرق. وقد منحني الملك هجيناً ممتازاً وواحدة من بغاله الشخصية، حتى يمكنني من تناوب الركوب عليها واحداً بعد الآخر، وبعد أن سرنا لمدة ثلاث ساعات وصلنا إلى قرية أمدتنا بكل احتياجاتنا وقامت باستضافتنا. وهذا يحدث أين ما حلَّ مرسال الملك، إذ يحضر أحدهم كبشاً للذبيح والطعام وتؤكل الكبد والأحشاء نيئة، وعلى كل فقد كنت صائماً لأن اليوم كان جمعة.

في التاسع من يوليو ١٧٠١م، تحركنا في الصباح الباكر وسرنا حتى الظهر سببت حركة الجمل المسرعة لي ألماً بالغاً في كل جسمي. وفى الظهر مرة أخرى لم أتناول شيئاً غير الكسرة. وهذا هو خبزهم. يتم خبزه على الصاج (الدوكة) وهو نصف محروق في الخارج ويظل عجيناً من الداخل. وقد شربت القليل من اللبن لأتم غدائي. وقد مكثنا نحو ساعتين أو ثلاثة ثم واصلنا سيرنا بالطريقة التي وصفتها سابقاً وحتى الليل.

في العاشر من يوليو١٧٠١م، تحركنا في الصباح الباكر وعندما قطعنا ثلاث ساعات تناولنا وجبة الإفطار على شاطيء النيل من بقايا لحم الأمس. وبعد هذا تحركنا مجدداً وعند الظهر وصلنا إلى قرية أخرى حيث طلبت دجاجة من المرسال وأُحضِرت لي بسرعة، لكن أكلها خُدَّام الشيخ، معتقدين بأنهم بذلك يخدمون نبيهم، واكتفيت بتناول بيضتين مسلوقتين. و قد أنهكني هذا الصوم مع الركوب الشاق والمتواصل، وحَر الشمس الفظيع ،والإسهال

المستمر الذي كنت أعانيه،بصورة تامة. وفي نحو الثالثة عند الظهر تحركنا مجدداً وعند المغيب وصلنا إلى قرية أخرى كان سكانها من الفقرا رجال الدين. لم يكن فقط أنني لم أتناول شيئاً من الطعام ولكني أيضاً كان عليَّ النوم على الأرض العارية ، وتحت السماء المكشوفة وسط عاصفة رعدية أعقبها هطول المطر عليَّ في الليل. وهذا الأمر أنهكني و لم تسُؤْ حالة الإسهال عندي فقط ولكنني أيضاً عانيت وأُصبت بحمى شديدة.

وفي الحادي عشر من يوليو تحركنا في وقت مبكر من هناك وبطني خالية وكان الشيخ وجماعته يحملون دائماً معهم زاداً (حماماً بارداً محمراً) يأكلون حين يرغبون وهم على ظهور جمالهم. وعند الظهر نزلنا عند بعض الأعراب في خيامهم لتفادي الحرارة التي لا تطاق. وجاء إلينا الناس ببعض الويكة وهي مَديدة من الماء والدقيق تطبخ بدون ملح أو دهن سمن ثم جاءوا لنا بنوع من الخضر والذي ينقع في الماء ثم يجفف ويمكن مطها بطول ذراع مثل الغراء ومجرد النظر لهذه المادة أصابني بالغثيان ولكنهم أكلوها بشهية مفتوحة مستخدمين أيديهم وهم جالسون على الأرض. وبالنسبة لي كان تناولها أمراً مستحيلاً لأنها كانت صعبة الهضم- وللغداء جعلتهم يسلقون لي بيضتين. وفي نحو الساعة الواحدة استأنفنا رحلتنا مجدداً من مكان العرب. وفي خلال ثلاث ساعات وصلنا إلى مدينة أربجي وهناك هاجمتني حُمى شديدة خلال الليل أحدثتها المعاناة التي تحملناها وواجهناها وعانيناها وأخذت بعض العقاقير والكبسولات التي أعطاها لي (الهِر) جوهان بابنستا ديفورا في ميونخ من أجل استعمالها في الرحلة.

وأبدى شيخ أربجي تعاطفه مع حالتي وأرسل لي دجاجة مطبوخة مع الأرز ولكني لم أستطيع تناول غير القليل من الملاعق.

وفي الثاني عشر من يوليو ١٧٠١م إزداد الإسهال سوءاً وقد استعملت دواء

للتعرق وأدوية أخرى مشابهة وأيضاً عملت لنفسي قليلاً من الملح المعدني وخلطته بماء الشعير وشربت منها حتى الثمالة .و لم تكن هنالك طريقة للهرب من الحر ولذلك أجبرنا على البقاء هنا. وقد كتبت خطاباً للأب بنديتو دي تريبالدا الذي تركته خلفي في سنار طالباً منه الحضور للعناية بي من الناحية الجسدية والروحية إلى حين أن يقدر الله في أمري كما يشاء وقد أخذ الشيخ المُرسال الخطاب قائلاً بأنه سيرسله سريعاً مع أحد عبيده وقال هذا فقط لتهدئتي، و لم يكن ينوي في الحقيقة تنفيذ وعده.

وفي الثالث عشر من يوليو ١٧٠١م أخذت الحُمى والحر مأخذها مني وجعلتني من الإنهاك والضعف بحيث أنني لم أكن أستطيع الوقوف على قدمي وكان معي بربري مسلم، مولود في مملكة النوبة يُحسن التكلم بالإيطالية. فقد قضى ست سنوات في خدمة القنصل الفرنسي في القاهرة. وكان يقود أربعة جمال محملة لتوصيلها إلى دنقلا ولكن لأن على المرء أن يعبر النهر هنا وأن يدفع ضريبة كبيرة، قام المرسال بإرسال ثلاثة من عبيده معه إلى النهر مع الأوامر بأنه يجب أن يترك ليمر معفياً من هذه الضريبة بحسبانه خادماً لطبيب الملك. وقد رفض ضباط الضرائب تركه ليأخذ المركب، بل أيضاً واجهوا العبيد بالسياط. وهناك حدثت مواجهة، وأُحضر ثلاثة من الموظفين إلى المرسال تحت الاعتقال وقد أمر بتقييد أرجلهم وأيديهم مثل الكلاب. وبعد نصف ساعة ضرب عشرة رجال الموظف، الذي استعمل السوط في وجه عبيد المرسال ،بالكرابيج ضربوه كما تُضرب غرائب الإبل حتى سقط على الأرض. وأنه تحت كل ضربة على جسده جرحاً بعرض الأصبع، لأنهم كانوا عُراة في الجزء العلوي والأسفل من الجسد. وعندما حاول الهروب أثناء الضرب جرحه المرسال بالسيف بعرض كتفيه وكاد أن يطيح برأسه لولا أن أمسكه الآخرون، وكان يريد أن يعاقب الاثنين الآخرين

كما فعل بالأول، ولكنني لم استطع احتمال مثل هذا العنف فتدخلت ورجوته أن يطلق سراحهم. وعلى كل حال فقد كان عليهم أن يدفعوا له ثمانين (قلدرا) كعقوبة لهم. وفي هذه البلاد فإن مدناً بأكملها والقرى ترتجف أمام هؤلاء المراسيل الملكيين لأنهم ملزمون بتوفير ما يلزمه وعبيده من جمال وجياد وأي شيء آخر يحتاجون أو يرغبون فيه.

في الرابع عشر من يوليو ١٧٠١م استمرت الحُمى ولكنني استعملت الأدوية التي ذكرتها عاليه.

وفي السادس عشر من يوليو ١٧٠١م نعمت بيوم طيب شيئاً ما وقد سألت المرسال إن كان قد أرسل خطابي الذي استدعيت فيه الأب بنديتو إلى سنار. وقد أجابني بأن الخطاب ما زال هنا وعندها قررت العودة إلى سنار ولكن آمالي راحت أدراج الرياح، لأننا غادرنا أربجي عند الظهيرة وعندما خرجنا من المدينة سلك المرسال الطريق المؤدي إلى قري. ووجهت بغلي تجاه طريق سنار قائلاً بأنني أريد الرجوع. وأمر العبيد بقيادة البغل إلى النهر بالقوة. وبما أنني كنت في غاية الضعف فقد سقطت من الدابة على الأرض. وقد بدأت في الشكوى للمرسال قائلاً بأنني سوف أعرض وضعي أمام الملك، لأنه لم يطع أوامره وعليه أن يعلم بأن ملك سنار ترك لي حرية الاختيار وأنه فقط طلب مني الذهاب إلى قري. وقلت للمرسال: أنت على كل حال، في حضور جمع كبير من الناس، (ففي هذه البلاد الإفريقية المسلمة يخاطب المرء كل شخص حتى الملك والأمبراطور بلغة المخاطب)، ترغب في إجباري أنا المريض المشرف على الهلاك بالقوة وتجرني جراً بالرغم من خطورة ذلك على حياتي. وقد أضفت إلى ذلك بأن الملك يهتم بصحة طبيبه أكثر من صحة شيخ قري. شعر المرسال بغاية الخجل من هذا وأمرني بِحدَّة، واصفاً إيّاي بـالكلب الكافر بأن أركب بغلي، فقد كان يتوقع هدية كبيرة من شيخ

قري، وقد أمسك بي أربعة من (السودانيين) من يديَّ وقدميَّ ورفعوني مجدداً على السرج بكل عنف وغضب شديد وبعد ذلك بسيوف مشرعة في أيديهم طلبوا مني الدخول في الإسلام وإذا لم أقبل فإنهم سوف يقتلوني بحسباني "كلب كافر" يعلن عداوته لشريعتهم. وعندما تيقنت بأنهم يريدون تعذيبي بسبب الايمان الوحيد الذي يجلب الخلاص فإن عذابي تحول في الحال إلى فرح عظيم. فإنني على الأقل سوف أحتمل شيئاً، وإن كانت نهايتي قد حانت والتي فيها أستقبل ضربة الخلاص بالسيف وأن أدعم بدمي حقيقة إيماني الذي يقود إلى الخلاص وبدون خوف وأنا أضحك. قلت ذلك مباشرة في وجه المرسال في حضور عدد كبير من (الأفارقة المسلمين)، والذين كانوا يريدون رؤية ما يجري بين المرسال وطبيب الملك، وكانوا يدفعونني ويضربونني بقوة بالكرابيج حتى أن المتفرجين قد تأسفوا ورقوا لحالي كرجل مريض مشرف على الهلاك. ورأراد أحد خدام المرسال أن يضربني بالسيف ولكن الآخرين منعوه وقالوا له إنني طبيب الملك وإذا فعلوا هذا فإنهم سيقعون تحت طائلة عقاب الملك وقد يخاطرون بفقدان حياتهم. ولذلك استمروا في ضربي بالسياط بدون رحمة ثم بعدها قيدوا قدميّ ويديّ وحملوني إلى النهر والذي كان يجب علينا عبوره من هنا. لم إنبس بكلمة ولكني كنت فرحاً وسعيداً بتحمل هذا القليل من العذاب لأجل حب المسيح. وبمجرد عبورنا للنهر قاموا بتحريري. وواصلنا رحلتنا و لم نسر أبعد من ربع ساعة عندما قام خُدام المُرسال بمصادرة جمل مُمتاز من بعض العرب وحيث أن النساء جرين خلفنا لمسافة وهن يبكين ويصرخن ويسألن ترك الجمل لهن. وفي النهاية أعيد لهن. وليس هناك رجل بين العرب يجرؤ على الظهور أمام المُرسال، ومن شدة الخوف لا يبدون اعتراضاً حتى لو أخذ المرسال أكثر من جمل واحد. وإذا اعترضوا يتم ضربهم مثل الحيوانات. ثم يتم تقييدهم وحملهم بعيداً معهم.

سرنا لمدة نصف ساعة أخرى ونزلنا في قرية مجاورة للنيل الأزرق وهناك جيء لي بدجاجة صغيرة بأمر من المرسال قمت بسلقها جيداً وأكلت أكثر اللحم. وفي هذه الليله أيضاً تناولت بعضاً من العقاقير ولكني لم أستطع أن أغمض عيني بسبب ضعفي وإنهاكي وبسبب آلام الضربات التي تلقيتها. وقرب المغيب زارني المرسال وتكلم معي بعطف ولطف.

وفي السابع عشر من يوليو ١٧٠١م تحركنا في وقت باكر جداً وسرنا لمدة ست ساعات بخبيب الجمل المسرع النشيط. ولم أشعر في حياتي بمثل هذا الضعف والإرهاق أكثر من الآن. وقد خشيت أن أسقط من على ظهر البغل في أي لحظة. ولم يكن لدي أمل في التعافي وقد جهزت أفكاري للموت بقدر ما أستطيع وكان ذلك سيجعل المرسال وعبيده في غاية السرور.

وتوقفنا عند قرية كبيرة واسعة حيث رفض السكان إعطاءنا حتى ولو كبش وعندها أخذ المرسال ثلاثة من أبرز رجال هذه القرية وقيّد أيديهم وأقدامهم وجلدوهم بدون رحمة، وأخذوهم معنا. وقد سرنا بإسراع حتى أن هؤلاء تم ربطهم على الجمال وتم ضربهم بقسوة شديدة مرة أخرى نحو المغيب قابلنا أحد العرب وقد طالبه المرسال بأن يدلنا على الطريق وعلى هذا أجاب العربي بأننا نسير في الطريق الصحيح. ولا نحتاج منه أن يرافقنا وعند هذه الإجابة أمر المرسال ستة من عبيده بجلده بقسوة حتى سال الدم من رأسه ووجهه ثم ربطوه مثلما فعلوا بالثلاثة الآخرين وساقوه معهم. وكان عليَّ أن أسير بخبب الجمال على ظهر بغلي وأكون باستمرار في هرولة. وبعد ساعة ونصف من حلول الليل وصلنا إلى قرية للعرب والذين قابلونا بالكثير من التشريف والترحاب وكانت بيوتهم مصنوعة من البروش معلقة على أغصان الشجر وهم يعيشون في هذه الأمكنة في الغابة من أجل المراعي لجمالهم ومواشيهم.

في الثامن عشر من يوليو ١٧٠١م وصلنا في وقت مبكر جداً إلى البشاقرة وقد أظهر لنا شيخ هذه القرية الكثير من الود والترحيب ولذلك بقينا كل النهار معه – خاصة أنني بسبب ضعفي وإرهاقي لا يمكنني السير والركوب أكثر من ذلك.

في التاسع عشر من يوليو ١٧٠١م تحركنا عند طلوع النهار وواصلنا سيرنا لمدة ثمانِ ساعات بسرعة خبب الجمال. وهذه السرعة تغطي ميلاً أو ميلين ألمانيين في الساعة الواحدة. وقد سببت لي ألماً لا يوصف ثم وصلنا إلى قرية كبيرة حيث قضينا الليلة. وكان ألمي وضعفي يتزايد باستمرار لأنه لا أحد جاء لي بشيء آكله وقد اشتكيت للمرسال. وفي الحال أمر بإحضار دجاجة وطبخها لي وقد تناولت نصفها هذا المساء وادخرت النصف الآخر المتبقي.

وفي العشرين من يوليو ١٧٠١م سرنا كما في الأمس ونزلنا في قرية كبيرة وقد أحسنت فيها ضيافتنا.

في الواحد والعشرين من يوليو ١٧٠١م تحركنا في الصباح الباكر ووصلنا عند الظهيرة إلى قرية كبيرة تتبع لشيخ قَرِّي وقد استقبلنا الناس هناك أيضاً بصورة طيبة وبقينا هنا لمدة ثلاث ساعات. ثم ركبنا واستأنفنا السير لمدة خمس ساعات أخرى وبعد ساعتين من مغيب الشمس جئنا عند بعض العرب والذين أرسلوا في الحال مبعوثاً ليعلن وصولنا لشيخ قَرِّي.

في الثاني والعشرين من يوليو ١٧٠١م نهضنا عند شروق الشمس ووصلنا إلى قرِّي في الساعة التاسعة وقد أرسل لنا الشيخ مندوباً شخصياً لتحيتنا والترحيب بمقدمنا وزيارتنا وليرافقنا إلى المدينة. كان المرسال وعبيده يلبسون أحسن الهندام وقد لفوا شالات حريرية حول وسطهم. وبذلك ركبنا وسرنا بنظام حسن إلى داخل المدينة وأينما ذهبنا كانت تتم تحيتنا من قِبَل النساء بزغاريدهن المعتادة (أيو يوي يوي). وعندما وصلنا أمام قصر الشيخ نزلنا من ركائبنا

ومشينا بأقدامنا لمقابلة الشيخ وأمام القصر وقف أربعة من السودانيين ينفخون قروناً ملتوية طويلة وكانت هذه كل موسيقى البلاط ثم بعد ذلك دخلنا إلى القصر خلال دعائم أقواس وقابلنا الشيخ وهو يجلس على عرشه وهذا من اللبِن (الطين) بارتفاع أربعة أشبار من الأرض وحوالي عشرين قدماً طولاً وستة عشر قدماً عرضاً وكان العرش مغطى بمفرش من الحصير بألوان جميلة وكان يجلس حوله نحو أربعين من السودانيين يلبسون شالات حريرية حول وسطهم. وملابس الشيخ كانت تتكون من قميص نصف حريري من لونين أحمر وأزرق يصل إلى قدميه وكان القميص بدون أكمام وحول وسطه لف شالاً حريرياً فاخراً وكان يغطي رأسه بطاقية حريرية صغيرة من ألوان عديدة مطرزة ببراعة في أطرافها بالفضة والذهب. وبالإضافة للسودانيين،كان يقف بالقرب نحو أربعين من العبيد مسلحين بالرماح وقد تقدمنا إلى العرش وقدمنا تحياتنا وعندها سلم المرسال ليد الشيخ الرسالة التي كتبها له ملك سنار. وقد تسلمها بالكثير من الاحترام ورفعها لتلمس جبهته ثم أنزلها وسلمها إلى سكرتيره لقراءتها علناً وكان المضمون ببساطة هو أنه يرسل إلى الشيخ طبيبه الخاص من أجل علاجه. وبعد قراءة الخطاب قام الشيخ وكل الحاضرين بالركوع على ركبهم وقبّلوا الأرض مرات عديدة وجباههم تلمس الأرض وقد فعل كل الحاضرين ذلك ما عداي. وعندما اكتملت مراسيم الاحتفال أحضرت القهوة لشخصي وللمرسال وأثناء تناول القهوة أمر الشيخ بأخذي إلى بيت علي داؤود الذي يملك بيتاً جميلاً وهذا ما تم بعد ذلك وقد تم منحي جزءاً واسعاً من منزله وبمجرد انتقالي إلى المنزل أرسل لي الشيخ جرة كبيرة من السمن وقربة من العسل وعدة قناطير من القمح وكبشا حياً وواحداً من العبيد ليقف على خدمتي.

في الثالث والعشرين من يوليو ١٧٠١م تم استدعائي باكراً إلى الشيخ والذي

أعلمني واشتكى لي من مرضه الذي يتمثل في احتباس البول حيث أنه لا يستطيع التبول إلا بألم بالغ وكنت قد تلقيت تقريراً بذلك في سنار.

في الرابع والعشرين من يوليو ١٧٠١م بدأت في علاجه وقد وجهته لأخذ كبسولات الدواء يومياً لمدة ثلاثة أيام.

في السابع والعشرين من يوليو ١٧٠١م أعطيته دواء مُدراً للبول لتنظيف الكلي وكان له أثر طيب.

من الثامن والعشرين حتى الواحد والثلاثين من يوليو ١٧٠١م بدا لي أن من المناسب أن أجعله يأخذ مجموعة من العقاقير والتي مزجتها وجعلتها جاهزة معي وكان لها مفعول ناجع عليه ووجد نفسه قد تحسن كثيراً. وأبدى لي الكثير من التقدير. وفي هذه الأثناء عالجت كثيرين بنجاح حتى أنني قد كسبت لنفسي سمعة واسعة لديهم وكأنني طبيب مشهور. وفي هذا الوقت وفيما بعد شهدت الكثير من مظاهر الاستبداد الشنيع وهو مُعتاد في هذه البلاد. في الصباح وبعد الظهر يَعقِد الشيخ محكمة علنية وفيها يختار كل من الشاكي المدعي والمدعى عليه محاميين من هؤلاء الحاضرين. والمتحدث باسم المدعي يعرض قضيته بشأن شكواه علي المدعي عليه. وبعد ذلك يقوم ممثل المدعى عليه بنقض الاتهامات وتبرير عمله ويبريء موكله. وعند ما ينتهي المحاميان من عرض قضيتهما ودفوعاتهما يشارك الحاضرون بالتدخل مع أو ضد أحد المتقاضيين، وبعد ذلك يصدر الشيخ حكمه غير القابل للاستئناف ولأنهم من العبيد المساكين. فإن مثل هذه الجنح تعاقب في العادة بالجلد. وفي كل يوم أرى واحداً أو اثنين أو أكثر تم جلدهم بقسوة وبشاعة بعصي رفيعة جاهزة محفوظة للاستعمال وبمجرد أن ينطق الشيخ بكلمة أضربوه، يمسك الحاضرون بهذه العصي الصغيرة في طرفة عين. وفي بعض الأحيان يشارك المتهمون الآخرون ويعطون كرابيج وبعدها يجلدون المذنب على

جلده العاري بما في ذلك رأسه ويديه وقدميه حتى يسقط على الأرض مجرحاً تماماً أو إلى أن يعطي الشيخ إشارة التوقف بقوله "يَكْفِي". وسوف أترك لكل واحد أن يقدر لنفسه كيف كان شعوري في هذه المملكة وحيداً وبدون رفيق.

في الأول من أغسطس ١٧٠١م كَسَا الشيخ أحد عبيده ملابس جميلة لأنه كان مخلصاً جداً له وجعله شيخاً على قرية محددة وقد أُستُدعِيَ العبد وفي وسط حشد كبير أفاض الشيخ في مدحه بسبب خدماته المخلصة وختم حديثه بكلمات تحمل المعنى بأنه دائماً سيكافيء من يقدم مثل هذه الخدمات. لكنه سيعاقب المسيئين. وبعد ذلك جعل سكرتيره يُلبسه قميصاً حريرياً جميلاً ومطرزاً مثل ما يلبسون ووشحه بشال حريري. وبعد ذلك وضع سيفاً على راحة يده وهو إشارة للسلطة وعندما قام العبد فوراً بالركوع على ركبتيه على الأرض ومس بجبهته الأرض نحو ثلاثين مرة. وقام والسيف في يده بالقفز مائة مرة في حركات غريبة مثل انحناءات البهلوان وفي النهاية دعا الحاضرين إلى الوقوف وقد كان جميعهم يجلسون متربعين على الأرض. وبقينا أنا والسكرتير جالسين، على كل حال، بجانب الشيخ على دِكة مرتفعة نحو شبرين من الأرض، وبعد ذلك قال كلاماً في مدح الشيخ وخلال كلامه كان يسأل أولئك الواقفين من حوله بكلمات مثل "أليس الشيخ هو في الحقيقة الأكبر قُوَّة مقدرة الأكثر عدلاً والأغنى مالاً، والمئات من ألقاب التشريف من نفس الشاكلة التي وصفها به. وكانت كلمة طويلة وعلى كل سؤال كان الواقفون يجيبون بالإيجاب في كل مرة مؤمنين على صحة ما يقول. وأخيراً تمنى له الجميع حظاً طيباً وأعلنوا ثناءهم على الشيخ.

وفي المساء اجتمع كل الرعايا الذين يعيشون في المدينة وكان هذا يحدث يومياً وساروا معاً، وتقدَّمهم إلى الشيخ شخص يحمل عصا طويلة (عُكاز)

في يده وهو بمثابة القائد لهم. وقاموا واحداً بعد الآخر بتحية الشيخ باللفظ "مَا نْجِلْ" وهذا هو لقب التشريف الذي يُخاطب به الشيخ، ويقول الواحد: أنا علي.. أو إسمي علي..إلخ. وكل واحد يُصرّح بإسمه. وبعد ذلك يضعون أنفسهم في أحد الجانبين. والشيخ يُردد الإسم "علي.. إلخ.. وخلال هذه الإحتفالية كان النحاس (يُضرب) باستمرار. وكنت أذهب إلى هذه المناسبة بسبب الفضول ولا أفعل شيئاً غير أن أضع يدي اليمنى على صدري وأحني رأسي قائلاً: "ما نْجِلْ" ويرُد الشيخ على ذلك بقوله "حكِيم" ومعناها (طبيب).

وبعد ذلك ينهضون ويقفون من على الجانبين وهم يسلون سيوفهم أو يحملون عِصي في أيديهم ويشرعون في الإتيان بحركات عجيبة. في البداية يتقرفصونَ ثم يقومون، ويتقافزون ويمشون بتبخْتُر هنا وهناك بدون أن ينبسوا بكلمة وكأنهم يريدون توجيه الضربات لبعضهم البعض. وهذا الأمر يستمر لربع أو نصف ساعة وبعد ذلك يتم صرفهم وكل منهم يلتمس طريقه إلى بيته.

في الثالث من أغسطس ١٧٠١م طَلبْتُ مجدداً من الشيخ أن يرسلني عائداً إلى سنار. ولأنه لم يكن يرغب في إرسالي مع عدد قليل من الجمال إلى هناك، أجابني بأنه لا يمكنه تركي للذهاب في ذلك الوقت. ويجب عليه أولاً أن يرافقني مُرسال منه "مثل ما فعل الملك"، وأن يُحمّلني هدايا قيّمة، حتى يحافظ على سمعته، كتعبير عن إمتنانه عن جهودي وخدماتي. وقد أجبته بأنني لا أريد شيئاً من الهدايا، ويكفي بأنه، وملكه قد حققوا ما يريدون من الشفاء. وأخبرني فوق ذلك "بأن هناك قافلة قادمة من القاهرة قد وصلت إلى دنقلا وأن إثنين من الأوروبيين الأفرنج جاءوا مع القافلة. ومن هذا استنتجت بأنهم لن يكونوا غير مبشرينا الإثنين الأب أنطونيو أوف مالطا والأب كارلو

ماريا أوف جَنَوَّا. وأضاف بأنهم سوف يصلان قريباً إلى (قرِّي) ولذلك عليَّ أن أتحلّى بالصبر. وأنه يريد أن يبعثني إلى سنار بمعيتهم. ووافقت على هذا.

في الرابع من أغسطس ١٧٠١م حضرت وجبة العشاء في المساء مع الشيخ، وكانت الوجبة تتكون من صحن خشبي مليء بالكِسرة، والتي وصفتها من قبل، وتُخبز فوق "الدوكة". وفوقها القليل من الثَّريد وبعض قطع اللحم. وكانت المائدة هي الأرض الجرداء بدلاً من الطاولة والمقاعد، وبما أنه لم يكن لدينا فضيات فقد تناولنا الطعام بأيدينا بدون ملاعق أو شوك أو سكاكين. وكانت هذه كل ما تحويه المأدبة الملكية. ولتفادي مثل هذه المناسبات في المستقبل أخبرت الشيخ "أن واحداً من رعاياه قد تحرَّش بي في مكان عام ناعتاً لي بالكلب الكافر، رمز الشيطان، عدو الشريعة، الذي يجب أن يُقَطَّع إلى ألف قطعة بالسيف. وبعد أن استمع الشيخ إلى هذا الإتهام سألني "إذا كنت قد تعرفت على الشخص؟" وكان يريد استدعاء رعاياه وجمعهم في حضوري وأن يُضَربْ المعتدي بالسيف كعبرة للآخرين. وقد أجبته بأنني "لا أستطيع أن أتعرف على الرجل"، وقلتَ له بأنني " لم ألقِ بالاً، وذهبت في طريقي".

في الخامس من أغسطس ١٧٠١م أراد أن يعرف مجدداً من كان هذا الرجل. ولكنني مثل الأمس أجبت بأنني لم أعد أُميِّزه. وعند ذلك أصدر أمراً أن تتم معاملتي من كل الأفراد والجميع بكل الاحترام اللازم بوصفي طبيب الملك.

في العاشر من أغسطس ١٧٠١م تلقى الشيخ إخطاراً بأن القافلة قد عبرت بنجاح الصحراء المسماة (بَيُّوضة) ووصلت إلى تريرا. وأصدر في الحال أمره بأن لا تتأخر وأن تأتي مباشرة إلى قرِّي..

في الخامس عشر من أغسطس أُخبِر الشيخ بأن القافلة تقترب من قرِّي سائرة

على ضفة النيل. وعندئذ أسرع في استدعائي، قائلاً بأن القافلة قد وصلت ومعها الأفرنج. وإذا أردت الذهاب إليهم فيجب عليَّ أن أُخبره حتى يُرتب لي الأمر. وعندها أمر شقيقه أن يعد لي جواده الشخصي المُحفَّل بالزينة الفضية والتي تتكون من لِجام فضي والرَكاب ودوائر تتدلّى من طوق واسع حول رقبة الحصان وعددها ثلاث متجاورة ، والتي نرى لها شبيهاً كبيراً على أطقُم جياد عربات الجليد في ألمانيا. وهو أي أخ الشيخ ومعه خمسة من الشيوخ سوف يرافقونني بصفة مُرسال أو مبعوث. وهذا ما تم بالفعل. وفي الساعة التاسعة صباحاً تحركنا على قرع النحاس وفي ظرف ساعة وصلنا إلى النهر، الذي كان واسعاً جداً في ذلك الوقت. وبمجرد أن رآنا الجلابة بدأوا في ضرب نحاسهم وتحيتنا بإطلاق عدة أعيرة من رصاص بنادقهم.

وجيء لنا في الحال بمركب صغير مصنوع من شجرة مجوفة عَبَر بنا النهر. وقد تركنا حصيننا تحت رعاية بعض العبيد في مكان ظليل. وبمجرد أن وصلنا إلى مكان النزول من المركب رأيت أنطونيو أوف مالطا. و لم أكن أعرف غير أنه أوروبي ، و لم يكن هو أكثر معرفة بي.

ولما كنت لا أعرف هويته الصحيحة خاطبته باللغة الإيطالية. وعند هذا تعرف عليَّ في الحال وأبدى استغرابه. فقد كان يتوقع أن يلاقي حتفه هنا أكثر من ملاقاتي. وعند ذلك قادني إلى خيمته حيث لقيت الأب كارلو ماريا أوف جنوا بكثير من الفرح والسرور. وعند ذلك صنع لي غداءً عربياً صغيراً يتكون من الماء القُراح وقليل من التمر وخبز البسكويت. وبدأ كل واحد منّا في الشكوى للآخر بمعاناته، مع حكايات عن العذاب العظيم الذي لاقاه والمحن التي كابدها، وبما أن كل واحد منّا مرَّ بنفس التجربة فإننا لم نأخذ وقتاً طويلاً في هذه الشكوى. وقام المُرسال حسب أوامر أخيه الشيخ بتسليم مندوبي الضرائب الأوامر بأن يسمحوا للأب أنطونيو والأب كارلو وقد

عَرَّفتْ الأول بأنه أخي والثاني بأنه من بلادي بأن يعبروا النهر مع جمالهم الأربعة وحماريهما، وإعفائهم من دفع الضريبة المعتادة وكذلك أن يعبرا قبل أي أحد آخر. وبعدها ودعناهما وعبرنا بالمركب ورجعنا إلى قرِّي. وهناك استقبلني الشيخ بالكثير من المجاملة. وقد أخبرته بأن أحدهم الأب أنطونيو هو أخي والآخر رفيقه في السفر. وعند ذلك تمنى لي حظاً سعيداً وكنت في غاية الفرح.

في الصباح الباكر من السادس عشر من أغسطس ١٧٠١م أرسل الأب أنطونيو خطاباً مع خادمه البربري يخبرني فيه أنه وبسبب رفضه دفع الضريبة المفروضة التي يجب على كل الجلابة دفعها – هذا بحسب إرادة الشيخ– فإن المندوبين لم يسمحوا له ولجماله بالعبور. وقد ذهبت في الحال إلى الشيخ وأخبرته بذلك. وفي الحال أرسل مرسالاً مع البربري التابع للأب أنطونيو مع أوامره بالسماح للأب أنطونيو بالعبور بدون أن يدفع الضريبة المعتادة، وبذلك حُسِم الأمر. وفي السابع عشر من أغسطس ١٧٠١م عند الظهر .

حضر الأب أنطونيو في مكان سكني بسماح وإذن خاص من الشيخ ولذلك لم يكن عليه أن يبقى خارج المدينة في العراء مثل بقية الجلابة الآخرين. وقد استقبلته بالكثير من المواساة والفرح. وأعددت له وجبة طيبة من الطعام وأيضاً المرطبات بقدر الإستطاعة والإمكان. وقبيل المساء ذهبنا أنا وهو لتحية الشيخ، حيث تحدث الشيخ إلى الأب أنطونيو بسرور خاص لأنه كان طلق اللسان في اللغة العربية، (وفي مالطا يتكلم الناس بعربية مكسرة رديئة) ولكنه استفاد من قضائه عُدّة سنين في مصر كأحد أعضاء البعثة التبشيرية.

في الثامن عشر من أغسطس ١٧٠١م أرسل إلى الشيخ ما يعادل ثلاثة أضعاف حصتي من اللحم الذي كان يمدنا به، لأنه كان يتكفل بإمدادنا بالطعام والمؤونة على نفقته الخاصة. وقد كرر ذلك في الأيام التالية.

في التاسع عشر من أغسطس ١٧٠١م حَضر أغلب الجلابة أمام الشيخ ليظهروا له كبير احترامهم وكنا أنا والأب أنطونيو حاضرين. وكان الشيخ يجلس على مكان مرتفع (دِكة) من الأرض بحوالي أربعة أشبار وعشرين قدماً طولاً وعرضها ستة عشر قدماً. وقد فُرِش عليها حصيرة من السعف مصنوعة بشكل جميل. وكنا أنا والأب أنطونيو نجلس بجانبه. بينما كان هناك نحو خمسين عبداً يحملون السيوف يقفون حوله..

وعندما اقترب الجلابة من مكان الشيخ ألقوا بأنفسهم على رُكبهم، وكعلامة على الخضوع لمسوا الأرض بجباههم. وعند ذلك قام الشيخ وبطريقة ودودة بدعوتهم للنهوض، وحيّاهم ثم تلقى من كل واحد منهم هديته الخاصة. وكانت الهدايا تتكون من أشياء متنوعة منها قطع من الصابون، ورؤوس السكر، والبن، والفلفل والمحلب. وهذه الأخيرة هي حبوب بُنيَّة تُجلب من الهند وهي في حجم بذور التفاح وذات رائحة طيبة جداً. وهم عادة يخلطونها بشحم الجمال والحيوانات الأخرى في شكل دهان. واذا لم يَمسح السودانيون باستمرار أجسامهم التي تتعرض لأشعة الشمس فإن حرارتها التي لا تُطاق تشقق جلودهم. والهدايا تضم أيضاً جذور السنبل وأشياء فاخرة أخرى من هذا القبيل والتي أشرت إليها في مكان آخر. وشكرهم الشيخ كثيراً على هذه الهدايا ومنح القافلة كلها الإذن لمواصلة سيرها.

وفي الثاني والعشرين من أغسطس ١٧٠١م استعد كل الجلابة للركوب والسير من هنا إلى سنار في اليوم التالي ولذلك طلبنا نحن أيضاً من الشيخ أن يأذن لنا أن نذهب مع القافلة. و لم يوافق على طلبنا هذا بحجة أنه يريد أن يحملنا إلى سنار مع مرساله الخاص حفظاً لسمعته ولمكانته. واذا لم يفعل ذلك فإنه قد يسيء إلى الملك وعلى كل حال فقد احتججت ضد هذه المجاملات، حيث أنني كنت أعرف بواعثه الحقيقية ولكن الأب أنطونيو وافق على ذلك ضد رغبتي.

ومن السادس والعشرين والسابع والعشرين والثامن والعشرين والتاسع والعشرين من أغسطس ١٧٠١م وضعنا أنفسنا في حالة الاستعداد للسفر في أي يوم وقلنا متحججين أنه نسبة لأن موسم الأمطار قد حَلَ فإن أدويتي وأغراضي الأخرى والتي تركتها خلفي في سنار في خطر شديد من تعرضها للتلف. وعلى المرء أن يعلم أنه في كل عام فإن أغلب أجزاء البيوت ينهار في شكل أكوام بسبب الأمطار الغزيرة. وبما أن الناس مضطرين للعيش في هذه المنازل الرطبة والقذرة فإنها تتسبب في كثير من الأمراض الخطيرة. وبدون أي اهتمام لكل أنواع الدوافع التي وضعتها أمامه فإن الشيخ لم يلقِ لها بالاً ورفض أن يتركنا نذهب بالرغم من أنه لم يكن يفكر في أي أمر آخر غير سلبنا كل الأدوية والأشياء التي كانت بحوزتنا. وكان في يوم يطلب منا هذا الشيء أو ذلك ويعرض علينا أن يدفع لنا ثلاثة أضعاف قيمته. وبدأ أيضاً بحرماننا من المؤن المعتادة، وهنا يجب أن يعلم الشخص بأن الأوروبي مهما كان وضعه ومكانته إذا كان يرغب في السفر خلال هذه البلاد فإن عليه أن لا يحمل عتاداً كثيراً معه وعليه أن يتجول ويظهر بهيئة متواضعة وفقيرة وإن لم يفعل ذلك فإنه سوف يتعرض لنهب أغلب ممتلكاته. وكل واحد يريد أولاً هذه وبعده تلك وإذا لم تعطهم ما طلبوا فإن الناس سوف يكرهونك لدرجة تعرض حياتك للخطر. ولكن إذا سافر بالقليل من العتاد والقليل من الصناديق والجمال وأن تكون ثروته من قطع الثمانية فإن المرء لا يعدم شيئاً يحتاج إليه وسوف يكون دائماً سعيداً مسروراً في رحلته وفوق ذلك يجب أن لا يكون المرء ودوداً جداً مع (السودانيين) وبالأخص يجب أن لا يقدم المرء أي خدمة إحسان فإذا فعل ذلك يكون عرضة دائماً للإبتزاز باستمرار فإذا فعل المرء شيئاً في البداية بحسن نية فإنه يصبح بعد قليل أمراً ملزماً والمرء أيضاً يجب أن لا يترك للآخرين أن يتفضلوا عليه.

في الأول من سبتمبر ١٧٠١م ظهرت أربعة من البثور على يدي اليمنى بسبب الكتابة وقد سببت لي ألماً بالغاً وقد التهبت يدي لدرجة أنه لم يمر وقت طويل حتى أصابتني الحُمى وفي الثاني من سبتمبر ١٧٠١م قمت بتطهير اليد بمحلول مطهر وكان له أثر طيب.

في الثاني من سبتمبر ١٧٠١م بقيت الحُمَى في قوتها وأخذت البثور دورتها وبدأت في الزوال نتيجة للجرعات المكثفة من الدواء.

وفي السابع من سبتمبر ١٧٠١م قضيت يوماً طيباً حيث خَفَت الحُمَى قليلاً وقمنا أنا والأب أنطونيو بمقابلة الشيخ وتكلمنا معه طويلاً وبطريقة حازمة وصارمة. وقد استاء جداً من هذا. وبعد قليل سحب العبد الذي خصصه منذ قدومي لخدمتنا وإعداد طعامنا وقضاء حوائجنا.

وفي العاشر من سبتمبر ١٧٠١م ذهبت مجدداً للشيخ وشكوت وتذمرت بالطريقة الآتية «بما أنه قد تركني مريضاً مثل الكلب وسحب منّا العبد و لم يمدنا بأي شيء من الطعام والمؤونة فإنني لا أريد البقاء هنا أكثر من هذا». وطالبت أن أتوجه إلى سنار ولكن كان كل ذلك بلا جدوى فإن قلب الفرعون ازداد غلظة رغم أنه استمر في إسماعنا القول قريباً -قريباً - سوف أترككم تذهبون.

في الحادي عشر من سبتمبر١٧٠١م أصابت حُمى شديدة الأب كارلو. في الثاني عشر من سبتمبر ١٧٠١م مسحته بمطهر وفي الثالث عشر من سبتمبر ١٧٠١م قمت بحجامته. وفي الخامس عشر من سبتمبر ١٧٠١م عاودتني الحُمى الشديدة لدرجة أن الأب أنطونيو المسكين كان عليه أن يرعى أثنين من المرضى و لم يكن يطبخ فقط ولكنه كان عليه الاهتمام بحميرنا وجمالنا فقد كان البرابرة الاثنين التابعين له قد ذهبا إلى سنار مع القافلة وكذلك عليه جلب

الماء من النهر نحو مسافة ثلاثة أرباع الساعة كل صباح ومساء على حماره ويملأ القِرَب.

في السادس عشر والسابع عشر من سبتمبر ١٧٠١م تفاقمت الحُمى عندي مع أزمة وضيق عظيم في الصدر حتى أنني توقعت أن أموت في أي لحظة و لم يكن في إمكاني تناول الطعام. ولكن أصابني عطش شديد مبالغ للدرجة التي كنت أستهلك جردلين أو ثلاثة من الماء كل ساعة من الليل والنهار لم يكن يخرج منها شيئاً سواء عن طريق البول أو الفسحة.

وفي الثامن عشر من سبتمبر ١٧٠١م بعد غروب الشمس فَصَدني الأب أنطونيو في عرق من عروق القدم اليمنى. وكانت هذه المرة هي الأَولى التي تخرج فيه قطرة من دمي من خلال الحجامة أو فصد عرق وقد ترك الدم يسيل حتى غبت عن الوعي. وبعد ذلك أصابني إسهال شديد جلب لي بعض الراحة.

في التاسع عشر من سبتمبر ١٧٠١م استمرت الحرارة والحُمى وقد ازداد شعوري بالعطش وكذلك الصعوبة الكبيرة في التنفس. ولكن الأب كارلو وجد نفسه في تحسن. وفي هذا الأثناء كان يأتي العديد من الشيوخ السودانيين في كل ساعة لزيارتي، وفي هذه البلاد ليس هناك ما يجد التقدير مثل زيارة المريض. وللسودانيين عادة أن لا يقولوا عن الشخص أنه مريض، طالما لم تفارق روحه الجسد. وحتى وإن كان الشخص في الرمق الأخير فهم باستمرار يقولون «إن شاء الله طيب» وكانوا يعطفون عليَّ كثيراً عندما يروني طريحاً ومريضاً مشرفاً على الموت بائساً وضعيفاً منهكاً أعاني وأتعذب.

وفي الثاني والعشرين من سبتمبر١٧٠١م مررت بيوم خطر ولذلك قمت بالاعتراف العام – وأعددت نفسي بقدر المستطاع لتقبل الموت وقد تخلصت

من كل شيء يخص استعمالي الخاص هنا وفي سنار، وسلمت المفتاح مع وصيتي للأب أنطونيو في مكان رئيسي وبهذا تخلصت من كل متاع الدنيا حتى أستقبل الحياة الأبدية. وبعد ذلك حاولت بقدر ما تسمح به حالة ضعفي أن أكتب وصيتي طالباً من الأب أنطونيو أن يسلمها لرئيسي الأب فرانسيسكو ماريا دي سالمي.

في الرابع والعشرين من سبتمبر ١٧٠١م شعرت بقليل من التحسن ولكن لم أتعد مرحلة الخطر. و لم يكن لدي أي أمل في مساعدة دنيوية، ولكنني فكرت في ما كتبه إليّ في روما من ميونخ أبونا الإقليمي فورتناتسي هيوبير، في خطابه للوداع. وكان قد أشار بأنه عليّ أن أبحث عن الملجأ عند الملاك ميكائيل في كل حالات المحن والأمراض، والأخطار؛ حيث أنني عندها سوف أجد العزاء والراحة دائماً. وفي الحقيقة ذلك ما قُمت به بعد الالتجاء لله ومُباركة مريم العذراء، والقديس فرانسيس والقديس أنثوني، وهو القديس الراعي الخاص ببعثتنا التبشيرية. وقد رفعت كل آمالي وتخوفاتي إلى الملاك ميكائيل، ولجأت إليه. وقد نذرت له هذا العهد «بأنه إذا أدركني وأخذ بيدي وخلصني بقدراته المعجزة، من هذا الخطر الداهم الجلي. فإنني سأقوم بذكر خاص له في كل يوم من أيام حياتي».

في الخامس والعشرين والسادس والعشرين والسابع والعشرين من سبتمبر ١٧٠١م، لم أشعر بأي قدر من التحسن في صحتي، وسوف أترك لكل واحد أن يتخيل نوع المعاناة والكدح اليومي التي كان يتحملها الأب الطيب أنطونيو والأب كارلو. كان الأول يقف على نهاراً والآخر ليلاً، وإذا لم يكن لديهما أي عمل آخر أثناء النهار سوى جلب الماء لكان ذلك كافياً. ومن الصعب تصوّر كمية الماء التي كنت أشربها. وفي كل هذه المدة لم أتناول طعاماً سوى القليل من اللحم أو مَرقة الدجاج، ومعها بعض فتات الخبز أحياناً.

وكنت غير قادر على أكل الطعام أو إخراجه، بالرغم من أنني لم أترك تناول أي نوع من الدواء الذي يمكن أن يعيد لجسمي العافية. وقد استعملت شراباً مليناً من أوراق السنامكة، والتي توجد بوفرة في هذه البلاد. ومن أجل التعرق نفعتني بدرة التعرُّق السوداء، والتي قد أعددتها بتذويبها في ماء الورد الثلاثي الغالي الثمن، والتي إشتريتها في روما. وكذلك استعملت أدوية أخرى من نفس الشاكلة والتي سكبتها في نقاط في الماء. وكان لبدرة التعرُّق، والتي أعددتها بنفسي بخلطها مع عقاقير أخرى، كان لها الأثر الأفضل. ولأنني كنت ضعيفاً منهكاً ولا يمكنني النوم فقد أعددت لنفسي دواءً مقوي للقلب ودواءً آخر، وبعد تناولهما تمكنت من النوم بطريقة أفضل قليلاً. ومن الأقوال السائدة «أيها الطبيب عالج نفسك»، ولعدة أيام لم يكن باستطاعتي النهوض من سريري الخشن بدون مساعدة. وكان سرير مرضي عبارة عن فروة من جلد الخروف، والغطاء هو ثوبي النوبي، وأثاث البيت يتكون من جُرَّة (زير كبير) للماء موضوع أمامي، وللشراب قرعة مقسومة إلى نصفين، وقدح خشبي للطعام، بالإضافة إلى القليل من الأدوية.

في الثامن والعشرين من سبتمبر ١٧٠١م، عانيت مرة أخرى من يوم سيء. وقبل نحو ساعتين من المغيب شعرتُ بحالة من الضعف ظننت معها بأنني على وشك الإنزلاق من هذه الحالة، نحو الهلاك، و لم يكن بمقدوري الحركة فكنت منطرحاً نصف ميِّت، في هذا المكان. وبدون أن أطلب منه ذلك قام الأب كارلو بدلكي ودهني تماماً بالزيت، في محاولة انقاذي ظناً بأنني سأموت. وقد أعددت نفسي جيداً لتقبل الموت، و لم أطلب شيئاً أكثر من تخليصي من هذا الجسد الفاني واللحاق بالمسيح (خالقي). وتوجهت مرة أخرى إلى نصيري الطاهر الملاك ميكائيل، والذي يصادف اليوم عشيَّة عيده، وناشدته أن لا يتخلى عني في ساعتي الأخيرة. ولكن!! يا لها من معجزة، فبينما كنت

منشغلاً تجول برأسي هذه الأفكار أصابتني سِنة من النوم الخفيف، وعندما صحوت شعرت في نفسي بشيء من التحسن.

في التاسع والعشرين من سبتمبر ١٧٠١م، وجدت نفسي أحس بأنني في تحسُّن مستمر، والحمد لله. وبالقرب من المساء خفّت الحُمى، وبدأت الكلام مرة أخرى، لأن الكلام والتمييز والقوى العقلية كانت قد فارقتني، وبالرغم من ذلك فإن كل من رآني في هذه الحالة كان لا يجرؤ على الأمل في معافاتي.

في الثلاثين من سبتمبر ١٧٠١م، عاودتني الحُمى، ولكنها لم تكن بالسوء مثل الأيام الماضية.

في الأول من أكتوبر ١٧٠١م مررت بيوم سيء آخر، و لم أتجاوز بعد مرحلة الخطورة.

في الثالث والرابع من أكتوبر ١٧٠١م، وجدت نفسي مرة أخرى أحسن حالاً، ولكن عطشي ازداد من ساعة إلى أخرى، وقد شربت من ماء النيل الصافي حتى اكتفيت وقد خفف ذلك من الحرارة الشديدة. ووضعت أثواب مبللة على جسدي من الخارج وعلى مكان قلبي وصدري والأماكن الأخرى التي كنت أشعر بأنها أكثر حرارة وفي وقت وجيز كانت تفقد رطوبتها وتجف، حيث أنني كنت أحترق من حرارة الحُمى الداخلية.

في الخامس من أكتوبر ١٧٠١م، قضيت يوماً سيئاً آخر، وجاءني الشيخ بالقرب من المساء بحجة أنه يريد معاودتي والسؤال عن صحتي ولكنه في حقيقة الأمر كانت نواياه زيارة صناديقنا وأن يأخذ منها ما يريده. وقد سأل فعلاً عن المفتاح وأراد أن يفتح الصندوق. وعند ذلك أصابني الهياج ووجهت إليه كلمات بتعابير حادة. وحتى يكون كلامي بطريقتهم، قلت للسكرتير «أليس لديكم أنتم المسلمين والسودانيين شريعة وعُرف نحو زيارة

المريض، وملزمون بتقديم يد المساعدة، وليس عمل العكس» وعلى هذا أجاب السكرتير بالإيجاب. وكيف سيكون رد فعل الشيخ – مستمراً في القول – «إذا أتهم أحد بمثل هذا الفعل من التعدي والإهانة تجاه رجل مريض على شفا الموت؟» وعند ذلك قال الشيخ بغضب « أيها الكلب الكافر، لولا أنك رجل مريض، لكنت بالتأكيد دفعت ثمن هذا الكلام وخرج يلفه الخجل والاضطراب.

في السادس والسابع من أكتوبر، بدأت في التحسن مرة أخرى وخفت حدة الحمى والعطش، وبدأت في الشعور برغبة وشهيَّة للطعام.

في الثامن والتاسع والعاشر من أكتوبر ١٧٠١م، بدأت في التحسن يوماً بعد يوم، وأصبحت من القوة مما يمكنني من المشي حول المكان، وانفتحت شهيتي، ولكني لم أجرؤ على تناول أكثر من حساء دجاجة وقليل من لحمها. والدجاج في هذه البلاد صغير الحجم وليس بحجم الدجاج في بلادنا.

في الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر والرابع عشر، في أكتوبر ١٧٠١، ظننت أنني لن أشبع أبداً من الطعام.

في الخامس عشر من أكتوبر ١٧٠١م وبعد ساعتين من مغيب الشمس توفيت إحدى زوجات (صاحب) البيت الذي يأوينا. وكنا أنا والأب كارلو نجلس أمام باب المنزل نتناقش في بعض الأمور مع بعضنا البعض. وكان القمر جميلاً كونه (قمر الرابع عشر من دورة الشهر القمري).

وبمجرد أن فارقت تلك الروح الشقية ذلك الجسد الفاحم السواد وماتت المرأة، قام زوجها وأولادها بحلق رؤوسهم، وهي عادة متبعة في بلاد (السودانيين/المسلمين) هذه. ثم بعد ذلك يهيلون على أجسادهم الرماد ويحزمون خواصرهم بقطع من الحبال وفعلت الزوجات الأخريات والبنات، والأقرباء

والمعارف، مثل ما فعل رجال العائلة ولكنهم لم يحلقوا (شعورهم).. وبعد ذلك بدأوا في الصراخ والعويل والنواح الرهيب، والذي وصل إلى أسماع كل أنحاء المدينة. وأرسل الشيخ نحاسه، والذي أصبح (يُضْرَبْ) صباحاً ومساء مصاحباً لكل هذا. وتبعهم في هذا كل أهل المدينة، وقام كل واحد منهم بنثر الرماد على رأسه كما فعل أصحاب الفقيدة. وكانوا يتصايحون ويبكون ويولولون بصورة حزينة. وهو بالتأكيد أمر شنيع عندما تراه وفظيع ومرعب عند سماعه. ولا أظن أن هناك من يستطيع أن يرسم صورة للجحيم أكثر صدقاً من هذا المنظر وكم كانت هذه (الأصوات) بما فيها ضربات النحاس مرعبة وليس لأحد أن يتخيلها ما لم يسمعها، فالكبار والصغار، العجائز والشباب، والرجال والنساء يرفعون أصواتهم معاً بالعويل والصراخ، ولجعل هذا البكاء أكثر تأثيراً ومنكراً ومخيفاً فإنهم يضعون أكفهم أمام أفواههم، والذي يستطيع أن يخرج صوتاً أكثر مرارة وحزناً يكون الأكثر تقديراً. وإذا كان هذا البكاء يتم بصورة طبيعية فإن المرء بالطبع يستطيع الاحتمال ولكنهم يتكلفونه تبعاً للعرف، حتى تصبح هذه الموسيقى الجهنمية خارجة بصورة أكثر انفعالاً. ومنذ ذلك الوقت وصاعداً فإن الناس يذبحون الإبل ليقدموا وليمة مجانية لهؤلاء المعزين المشاركين في البكاء. وقد أرسل الشيخ جملين لذبحهما في هذه المناسبة، وأرسل الأصدقاء الآخرون والأقرباء، أقداحاً كبيرة مليئة باللحم والكسرة. واستغرقت هذه المناسبة والبكاء ثلاثة أشهر كاملة وخلال هذه المدة كلها، لم يكن هنالك شخص يستخدم الغرفة التي ماتت فيها هذه المرأة النبيلة، ماعدا أولئك الذين جاءوا للعزاء. وتقدم وجبة مجانية عند الظهر وفي المساء وفي العشاء، ولذلك يجيء كل فرد للبكاء، حيث يتناول كل الوجبات ويقضي وقتاً طيباً. وفي الليل تشغل هذه الغُرف نحو أربعين أو خمسين امرأة لا يفعلن شيئاً سوى العويل والصراخ، وبعدها يقضين باقي الوقت في الأكل

والشُرب، وتبادل السخافات والحماقات والاستمرار في النحيب والعويل. وهذا الأمر جعل رأسي يسخن للدرجة التي ظننت أنني لن أحتمل البقاء هنا وخاصة أنني ما زلت أشعر بالضعف والإنهاك.

في السابع عشر من أكتوبر ١٧٠١م دعت ضربات النحاس كل المدينة لحضور تشييع الجنازة. وقد حضر كل أولئك الذين في استطاعتهم التحرك، وكانوا يصدرون من العويل والصراخ والبكاء أصواتاً مرعبة وشنيعة. وعندما حملوا (طعام الغربان هذه) إلى المقابر، بدا وكأن اليوم الأول الذي وصفته كان مجرد إعداد أو بروفة: وبدت في نظري المسيرة إلى المقابر تمثل شناعة العويل والزفير والضجيج في جهنم. وكانت المدينة كلها تضج بهذه الصرخات المنكرة التي لم أسمع مثلها من قبل طوال حياتي. وكان الرجال يسيرون في المقدمة، يرددون مناقب وأوصاف الفقيدة مع إيماءات مفزعة وكانوا يضعون أيديهم فوق أذانهم ويحركون رؤوسهم أماماً وخلفاً. ويتبعهم بعد ذلك النعش يرافقه الزوج والأولاد والزوجات الأخريات. وبمصاحبة ضربات النحاس كانوا يحاولون بقدر ما يستطيعون رفع أصواتهم بالعويل والنحيب المنكر مع الايماء بالحركات المرعبة.

وبعد أن تم الدفن على مسافة نحو ربع الساعة خارج المدينة عادوا إلينا وهم يبكون من جديد. وبعدها تناولوا وليمة مجانية وكانوا يتضاحكون ويتبادلون الحماقات والسخافات (الونسة وتبادل الحديث). ولم أستطع أن أعبِّر بما يكفي عن دهشتي لهذه البلاهة. ولكن بالنظر إلى مستوى إيمانهم الضعيف، شعرت نحوهم بالأسف.

في العشرين من أكتوبر ١٧٠١م والأيام اللاحقة، وبالرغم من أنني كنت مرهقاً جداً، منهكاً وضعيفاً ذهبت ومعي الأب أنطونيو إلى الشيخ وطالبت بإلحاح أن يسمح لي بالعودة إلى سنار. وقد وعد بأن يرسلني إلى هناك مع

الكثير من التشريف. ولكن ذلك كله كان بغير طائل، فهو لم يكن ينوي أبداً إنفاذ وعده. وكان يؤجل هذا الأمر من يوم إلى آخر وبذلك أصبحت إقامتنا أسوأ من حالة السجن الحقيقي. و لم يكن لدينا أخبار عن أعضاء بعثتنا وكيف سارت الأمور معهم في أثيوبيا، وكذلك أخبار الأب بنديتو في سنار. وهذا الانقطاع سبب لنا آلاف الأحزان. و لم نكن نظن خيراً كثيراً في الشيخ بسبب بقائنا الذي طال عنده.

في الأيام السابقة سعينا باستمرار إلى حث الشيخ على إطلاق سراحنا، ولكن دائماً بدون فائدة. ولذلك قررنا المغادرة بدون أخذ الإذن منه.

وفي الصباح الباكر من السابع من نوفمبر ١٧٠١م، حمَّلنا جمالنا وبدأنا في السير في إتجاه سنار ولكنه سرعان، ما أمر بإعادتنا بالقوة وهذا ما جعلنا أكثر تعاسة، لأنه من هنا ولاحقاً قد انسد الطريق في وجه هروبنا. وكان علينا أيضاً أن نحصل على احتياجاتنا بشرائها بأنفسنا، لنا ولجمالنا وحميرنا وأن نأخذ من المؤونة التي أحضرها الأب أنطونيو معه لاستعمال المبشرين في سنار وكلفنا مكوثنا الطويل غالياً، ولكن كل ذلك لا يقارن مع إحباطنا النفسي.

في العاشر من نوفمبر ١٧٠١م حاولت الهروب مرة أخرى. وقاد الأب أنطونيو حماره خارج المدينة في وقت باكر جداً، وقد سبقته وانتظرته هناك. وأخذت حماره والقليل من الماء للتوجه إلى سنار. وبعد أن سرت لمدة خمس ساعات التقيت باثنين من العرب. ووعدتهما بإعطائهما حماري إذا قاما بقيادتي والسلوك بطرق غير مطروقة إلى سنار. ولأنهما كانا يعرفانني جيداً وكذلك وعدي لهما بأن أعطيهما المزيد في سنار، فقد وافقا على هذه الصفقة وذهبا في الحال لإحضار جمالهم التي كانت ترعى قريباً من المكان. ولكن قبل أن يعودا جاء اثنان من الجنود الفرسان يحمل كل واحدٍ منهما سيفاً في يده مسرعين في أثري.

وأمسكا بي وأرجعاني بالقوة. وعندما وصلنا إلى قرّي بعد ساعتين من حلول الظلام، كنت منهكاً تماماً من الجوع والعطش والحر. وأرادا أن يقوداني إلى سكرتير الشيخ الذي يريد أن يقول لي شيئاً، ولكنني احتججت قائلاً بأن على السكرتير إذا كان عنده ما يقوله لي، فإنه يمكنه الحضور إليَّ – فهو خادم الشيخ، وأنا طبيب الملك الخاص. وهو الذي يجب أن يحضر إليَّ.

وفي وقت باكر جداً من صباح الحادي عشر من نوفمبر ١٧٠١ جاء إليَّ السكرتير راكباً على بغلته، مصحوباً بستة من العبيد. وقد خاطبني بكلمات في طلاوة أحلى العسل، ولكنني لم أعره انتباهاً. واستدعاني الشيخ بنفسه ولكنني بعثت إليه الأب أنطونيو بديلاً عني، متعللاً بأنني أشعر قليلاً بالتوعُّك. وقد أفهم الأب أنطونيو الشيخ بأن الملك في سنار سيتلقّى تقريراً بأنني غير راضٍ بتاتاً. وكان الشيخ بنفسه غير مرتاح لكل هذا الوضع وربما فكر في إزاحتنا من الطريق عن طريق اغتيالنا.

في الثاني عشر من نوفمبر ١٧٠١م، أرسل الشيخ إليَّ مجدداً، مبدياً لي الكثير من الحب، وقد وعد بأن يرسلني إلى سنار بعد الغد. وفي حضورنا أمر أخاه أن يتهيأ ويعد للرحلة. ولذلك في الرابع عشر من نوفمبر ١٧٠١م، قمنا من جديد بتحميل جمالنا، ولكن بدون فائدة. فلم يكن الشيخ يفكر في مكافأتنا، ولكنه (بالعكس) كان ينوي سلبنا وأخذ كل شيء كان بحوزتنا، حتى حياتنا إن تمكن أن يفعل ذلك بذكاء. ويا له من تعويق يعصف بالقلب ولا يمكن وصفه أو احتماله.

في الخامس عشر من نوفمبر ١٧٠١م، قابل الأب أنطونيو أحد البرابرة في الميدان (السوق) وأبرم معه اتفاقاً بأن يأخذني إلى سنار على جمله. وإذا قدر لي أن أصل إلى هناك، فإن الأب أنطونيو والأب كارلو سوف يحصلان على حريتهما قريباً بأمر الملك. ووعدوه بإعطائه ثمانية (فلورين) ورضي بذلك،

وقال بأنه في صباح الغد الباكر، إن شاء الله، سوف ينطلق بي في الطريق.

وتم هذا في السادس عشر من نوفمبر ١٧٠١م، ولكن ما إن تقدمنا مسافة نصف ساعة خارج قرِّي حتى تمت إعادتنا كما حدث لنا من قبل. ولا يمكنني أن أعبِّر عن الألم الذي سببه لنا هذا التأخير المُمِل والسجن البربري. وكتبنا للأب بنديتو بأن يحصل لنا من الملك على أمر للشيخ بإطلاق سراحنا وأن يقوم بإرسالنا إلى سنار. ولكن ليس من ثمة خطاب قد وصل إلينا ولا خطاب سافر إليه من جانبنا، حيث (إنه) في هذه البلاد ليس هناك طريقة لإرسال أي شيء ما عدا مع القافلة أو عندما يقوم مُرسال من الشيخ إلى الملك، وكل منهما أصبح مستحيلاً في حالتنا.

في السابع عشر من نوفمبر ١٧٠١م، أرسل الشيخ إليَّ عند الظهر. وذهبت إليه في الحال ووجدته مريضاً متغيراً بشدة وجلده منتفخاً ودمه دافئاً جداً. وسألته ما هو سبب مرضه في ظنه، ثم أدركت أنه من الهيجان الشديد. فقد كان حاجِبُه قد أعطى إحدى زوجات الشيخ شيئاً، أرسله عن طريق إحدى الإماء التي كانت تخدم الزوجات.

ولهذا غضب غضباً عنيفاً وأمر بالحاجب وهو من العبيد – بأن يُقيَّد من يديه وقدميه بالحديد والحبال، وأن يتم جلده حتى الموت. وقام بتطليق الزوجة، وباع البنت الأمة. وبعد أسابيع قليلة، بقدر ما يستطيع المرء أن يؤكد أمر بتقطيع الحاجب إرباً إرباً بسيوف ثمانية من العبيد. وبعد أن فهمت كل هذا فإنني أعطيته كبسولات من حبوب التعرُّق وجعلته يعرق بشدة. وفي المساء قمت بفصده وإخراج الدم عن طريق شريان في قدمه اليمنى.

في الثامن عشر من نوفمبر ١٧٠١م قمت بإعطائه مسهلاً وكان أثر ذلك طيباً. وفي هذه البلاد الحارة يجب على المرء أن يعطى جرعات مضاعفة مرتين أو

ثلاث أو أربع من الجرعة العادية من الدواء. واليوم تم استدعائي لمعاينة إبنة السكرتير التي تبلغ من العمر خمس سنوات وأصابتها حُمى شديدة. ولما لم يكن هناك أمل في شفائها، قمت سراً بتعميدها، وقد ماتت بعد أيام قليلة.

في الثاني والعشرين من نوفمبر ١٧٠١م، تعافى الشيخ وأصبح في حالة صحية جيدة، ولذلك وبدون تحفظ انتهزت الفرصة وألححت عليه مجدداً أن يطلق سراحي وكانت إجابته غداً سوف أتركك تذهب. في الثالث والعشرين من نوفمبر ١٧٠١م تعلل بمختلف الأعذار، وكان غرضه أن يبقى معه على الأقل الأب أنطونيو بغرض الحصول على الأدوية. ولكن بسبب خشيته من الملك لم يجرؤ على حبسي أكثر من ذلك. وليرضينا قليلاً، أعطى كل واحد منّا جملاً بالإضافة إلى صبي سوداني صغير في الثالثة عشر من عمره، مع الوعد بأن يتركنا نغادر في الغد.

في الرابع والعشرين من نوفمبر ١٧٠١م وضعنا أشياءنا ورتبناها في الصباح الباكر ناوين أن نتحرك. ولكن الشيخ أخبرنا بأن هناك قافلة آتية من دنقلا قد وصلت إلى تريرا، وسوف تكون هنا في ظرف يومين أو ثلاثة. وسيرسلنا معها إلى سنار. وقررنا أن نلزم الصبر لهذه المدة القليلة. واليوم علمنا لاحقاً، بأن الأب بنديتو قد تسلم رسالتنا والتي شرحنا له فيها ببعض التفصيل كيف ساءت أمورنا. وعند ذلك ذهب في الحال إلى راعينا وحامينا الشيخ إسماعيل وقدَّم له دعاوينا على شيخ قرِّي. وقام الشيخ إسماعيل من فوره بعرض الأمر على الملك، وقد أمر الملك الشيخ يوسف والذي كان يستعد في هذه الأيام للذهاب إلى قرِّي لمقابلة الشيخ. وأن ينقل أوامره إلى شيخ قرِّي بأن يقوم بإعادتي إلى سنار بدون تأخير.

في السادس والعشرين من نوفمبر ١٧٠١م جاء إلى قرِّي مرسال من الجيش الذي يتبع للشيخ في البحر الأحمر. وحمل المرسال تقريراً بأن الجنود

الشجعان قد هزموا الأعداء المتمردين، بحيث أنهم لن يسببوا بعد ذلك أي متاعب وإزعاج. وهنا تجدر الإشارة إلى أن هذا الشيخ يتولّى حكم كل بلاد النوبة وحتى البحر الأحمر وأربجي. ولذلك فهو يستطيع بموافقة الملك في سنار، والذي يعتبر حاكمه الأعلى، أن يعيد المتمردين إلى الطاعة. كرد فعل لهذه الأخبار الطيبة أعلن الشيخ احتفالاً كبيراً وأمر بذبح ستة من الجمال شكراً لله ونبيهم. وقد نثروا الدم على عتبات كل باب ومدخل في القصر، وقسّموا اللحم على الناس وتكرّموا به، وقد حصلنا نحن أيضاً على قدر كبير منه، ولكن لأنه قُربان (مزيف) باطل امتنعنا عن تناوله (أكله). وفي هذه البلاد درج الناس على ذبح هذه القرابين (الكرامات) أما لتفادي المصائب التي تواجههم، أو بمثابة شكر وعرفان لما يصادفهم من حسن الطالع، وأثناء إقامتي هنا كانت مثل هذه الكرامات تتكرر وتُقام باستمرار.

في الثامن والعشرين من نوفمبر ١٧٠١م، وصلت القافلة إلى هنا قريباً من المساء.

في التاسع والعشرين من نوفمبر ١٧٠١م، طلبنا الإذن من الشيخ أن نذهب مع القافلة كما وعدنا دائماً.

في الأول من ديسمبر ١٧٠١م رتبنا مع أحد البرابرة (برابرة دنقلا) والذي كان صديقاً حميماً لنا، أن يقود الأب كارلو إلى سنار بصحبةجمل من جمالنا. وكنا في غاية الشك من أن الشيخ سوف يسمح لنا بالمغادرة على الإطلاق، أو أننا سوف يتم سلبنا تماماً من كل ممتلكاتنا وحوائجنا. ولذلك حزمنا أفضل أشيائنا وجمعناها مع بعضها وحملناها على أقوى جمل لدينا، وأرسلناها اليوم ليلاً (إلى مكان القافلة). و لم يكن أحد في القافلة يعلم بها – وبذلك– مهما فعل الشيخ فإن الأب كارلو سوف يُحمل ويصل إلى سنار بأقيم ما عندنا. وفي الصباح الباكر طلبنا من الشيخ أن يمنحنا الإذن

بالانطلاق. والذهاب مع القافلة ولكنه أخبرنا بأن القافلة لن تغادر لعدة أيام.

في الثاني من ديسمبر ١٧٠١م غادرت القافلة في الصباح الباكر ومعها الأب كارلو. ولذلك شكونا وأبدينا تذمرنا للشيخ والذي تظاهر بأنه سيأمر بالقبض عليهم وإيقافهم.

وفي حضورنا أرسل جُنديين على ظهور جيادهم لإيقاف القافلة. وقد فعل هذا لذر الرماد في أعيننا، وفي حقيقة الأمر فإن الجنديين قد حملا أمراً للقافلة بمواصلة السير سريعاً وبدون توقف.

وفي الثالث من ديسمبر ١٧٠١م طالبنا الشيخ مجدداً بإخلاء سبيلنا، ولكن كما هو الحال دائماً، بدون جدوى. ولا يمكن وصف ما تحمّلناه خلال هذه الفترة. وامتنع الشيخ بعد ذلك من إعطائنا أي شيء، وكان علينا أن نوفر احتياجاتنا بأنفسنا وصرنا ندفع أموالاً مضاعفة لكل شيء. وكان علينا أيضاً أن نطبخ ونجلب الماء، ونقود جمالنا للمرعى إذ لم يعد لدينا ما ننفقه على حيواناتنا لإطعامها. وكان علينا أيضاً خفض نفقات طعامنا.

وفي الرابع من ديسمبر ١٧٠١م قمنا مجدداً بتحميل أحد الجمال بما تبقّى لنا من عتاد، فقد كان العتاد الأثقل والأفضل قد تم إرساله (أمامنا). وقد ركبت على جمل ثانٍ، والأب أنطونيو على جمل ثالث، و الشابّان السودانيان ركبا على جمل رابع. وكان جملنا الخامس قد مات علينا في قرِّي. وكنا نريد فرض الواقع والذهاب إلى سنار. ولكن أعادنا بواسطة الجنود وتم اقتيادنا فوراً إلى الشيخ. ولما رأى أننا نقود جملاً واحداً فقط مُحمَّلاً بالأمتعة و لم تكن كثيرة، سألنا أين باقي أشيائنا. وأجبناه على هذا بأن رفيقنا الأب كارلو قد أخذها معه إلى سنار. عند ذلك أصبح في غاية الغيظ ولكنه لم يكن يجرؤ على إظهار هذا الغيظ بصورة واضحة. وقال لنا برقة «أبقوا معي، وبعد غدٍ سوف

يرافقكم مرسالي». من الذي كان يتخيَّل أن هذه السياسة الشيطانية توجد أيضاً وسط هذا الشعب البربري؟.

في الخامس من ديسمبر ١٧٠١م، وصل المرسال الذي بعثه الملك إلى قرِّي. ولأنه كان من أعلى النبلاء مقاماً في الإقليم فإن شيخ قرِّي وكل حاشيته ركبوا خارجين لاستقباله. وكان دخولاً مشهوراً شبيهاً بذلك الذي وصفته عندما قابل به ملك سنار شيخ قرّي. وبعد إكمال مسيرة الدخول إنتظرنا الشيخ وأخبرناه بأننا حتماً سوف نغادر غداً. واليوم وقبل غروب الشمس ذهبنا مع جمالنا إلى ذلك المكان الذي يقع خارج المدينة والذي اعتاد الجلابة أن ينصبوا معسكرهم فيه. وقضينا ليلة مُسهدة بلا نوم وأحمالنا وأغراضنا في العراء تحت قُبَّة السماء المكشوفة. وأرسل إلينا السكرتير رسالة بأن لا نغادر حتى يرسل معنا الشيخ مرسالاً. ولكننا رددنا عليه بأن يقول للشيخ بأن لا أحد يطلب منه شيئاً وأننا الإفرنج وخاصة أنا طبيب الملك، لسنا عبيداً له.

في السادس من ديسمبر ١٧٠١م، عند طلوع النهار تحركنا من هنا بدون انتظار الإجابة. وبعد أن سرنا لمدة ست ساعات، وتناولنا وجبتنا من التمر والخبز تحت شجرة، رأينا أربعة من الجنود يحملون حراباً ممتطين حصينهم متجهين نحونا. وأرادوا أن يخبرونا بكل تهذيب بالعودة إلى قرِّي. وقد أجبناهم من كل قلبنا بأنهم يستطيعون أن يأخذوا جمالنا وكل ما نحمله معنا، ولكن الشيخ سوف لن يرانا أبداً مرة أخرى. و لم يدر هؤلاء الجنود الطيبون ماذا يفعلون إزاء هذا الرفض.

وأخيراً ألحّوا علينا أن نذهب معهم إلى القرية التالية حيث أرسلوا واحداً منهم عائداً للشيخ ليخبره بشأن قرارنا.

في السابع من ديسمبر ١٧٠١م ركب أحدهم عائداً إلى قرِّي في وقت باكر،

وأخبر الشيخ بكل القصة وكل ما حدث معنا وأثناء سرده القصة كان مرسال ملك سنار حاضراً أيضاً. وسلّم للشيخ الأمر الملكي بأن يرسلني بدون تعويق، مع أمر آخر بأنه إذا قابلني المرسال في الطريق فإن عليَّ الذهاب بأسرع ما يمكن مع وكلاء الملك وعلى (نفقته) إلى سنار. وعند ذلك أرسل إليَّ الشيخ ثلاثين (قلدر) هدية مع أحد جنوده وأخبرني بأنه في الغد سوف يبعث مرسالاً لمرافقتي حتى أربجي.

في الثامن من ديسمبر ١٧٠١م، عيد حمل العذراء (النقي)، جاء المرسال إلينا عند منتصف النهار، وسرنا نحو سنار بابتهاج عظيم. (فقد انفك أسرنا من مصر) كما يُقال.

كنا نقطع في كل يوم ستة أو سبعة أو ثمانية أميال ألمانية، وكل ليلة نبيت في إحدى القرى الصغيرة ويأمر المرسال بتوفير كل احتياجاتنا وتُحضَر إلينا. وفي الطريق وبما إننا كنا نسير باستمرار فقد كنا نعاني من شدة الجوع، ولكننا كنا نتمسك بالإلتزام بصيامنا المفروض كما هو الحال دائماً في رحلتنا، تماماً وكأننا نعيش في أديرتنا. وكُنّا دائماً نطلب البيض والدهن ونطبخ لأنفسنا حساءً دافئاً، وفي بعض الأحيان مع قليل من الدقيق. وكنت أصنع هذا بمفردي، بينما يقوم الأب أنطونيو بالعناية بالجمال.

في العاشر من ديسمبر ١٧٠١م سرت بتمهل وتركت المرسال يتقدمني مع الجمال. ولأن الوقت كان باكراً وبارداً، فقد تابعت عادة السير راجلاً، لترديد بعض المزامير من أجل الذين ماتوا، كما وجهنا بذلك أبونا الرئيس. وفجأة وبدون أي إنذار جاء أثنان من العرب يجرون نحوي شاهرين سيفيهما. و لم يكن في إمكاني الإسراع للحاق بالمرسال وباقي المجموعة، ولذلك أشهرت مسدسي الكبير والذي كنت دائماً أحمله معي ووقفت في مواجهتهم. وهددتهم بأنني سأقتل بالرصاص أول من يحاول الاقتراب خطوة أخرى

نحوي. ولما رأوني ثابتاً وفي يدي مسدس جريا بعيداً بأسرع من جريهما نحوي. والعرب يخافون من مسدس واحد أكثر من خوفهم من عشرة سيوف لأنهم يعتقدون بأن طلقة واحدة من المسدس يمكنها قتل العديد من الرجال. وهكذا وبعناية الله نجوت هذه المرة أيضاً من خطرٍ داهم، ليس فقط نهبي وسلبي، ولكن أيضاً فقدان حياتي. واليوم كما في الأيام الماضية رأينا عدداً لا يُحصى من طيور القُمري تجوس هنا وهناك في الحقول أو تطير، ولأن الناس لا يقتلونها، فإنها تموت فقط موتاً طبيعياً أو تأكلها النسور والصقور.

في الخامس عشر من ديسمبر ١٧٠١م دخلنا إلى أربجي حيث قابلنا بعض التجار في حالة استعداد للذهاب إلى سنار، وقد انضممنا إليهم وتركنا المرسال ليعود إلى قرّي ومنحناه رايختالر كإكرامية.

في العشرين من ديسمبر ١٧٠١م، والحمد والشكر لله وصلنا سنار ونحن بغاية السرور والفرح، ثم أُستقبِلنا بغبطة زائدة من قِبَل الأب بنديتو والأب كارلوماريا. وفي هذه الأيام، كان سيرنا بمحاذاة الطريق الأيمن، والجهة اليمنى تتجه نحو مساكن العرب. وبجانب من مساكنهم كانت هناك حفائر يحيطها سد ترابي وكذلك الأشجار. وتملأ الأمطار الغزيرة هذه الحفائر بالماء، وهي تستخدم في وقت الشح والجفاف كمصدر لمياه الشُرب لأنفسهم ولحيواناتهم.

وسار ركْبُنا خلال الغابات الجميلة ذات الأشجار التي يُجنى منها الصمغ. وقد رأينا في مسيرنا مجموعات لا تُحصى من دجاج الوادي الجميل. وهي أكبر قليلاً من دجاجنا. وعلى رأسها تاج بلون سماوي في شكل شجيرة، وذيل صغير من الريش الأزرق والأسود الجميل. والريش الذي عليها منقط باللونين الأبيض والأسود، ولكن صدورها مغطاة بالكامل باللون الأزرق السماوي الجميل. و يرى المرء الآلاف من هذه الطيور في مجموعات تتنقل

في هذه الغابات. ويؤخذ العديد منها إلى مصر، حيث يتاجر بها التجار الفرنسيون ويرسلونها إلى فرنسا كطيور نادرة. وهناك الكثير من النحل - وخاصة في غابات أثيوبيا- والذي يبني خلاياه في تجاويف الأشجار. وبالرغم من أن السكان لا يستخلصون منه أكثر من نصف العسل، لكن بالرغم من ذلك فهو متوفر بكميات كبيرة وبأثمان رخيصة جداً. وبمجرد وصولي إلى المدينة أرسل الملك - الذي كان يعلم بوصولنا- أرسل مرسالاً لمكان إقامتنا يستفسر عن بقائي هذه المدة الطويلة في قرِّي. وعلى هذا السؤال أجبت أنني كنت مريضاً لأنني إذا أخبرته كيف عاملني شيخ قرِّي، لكان قد أرسل مرسالاً خاصاً ليُعاقبه بطريقة قاسية. وعند ذلك سيتعرض أي مبشر يريد المرور بذلك الطريق لدفع الثمن. ومن أجل هذا فقد أخفيت كل ما حدث لي بصبر كبير وصمَتٌّ. وبعد ذلك أصبحت - أُستدعى كل يوم لمعالجة المرضى وبحمد الله فقد حالفني الحظ بمعالجتهم وشفائهم جميعاً.

السنة ١٧٠٢م، في الثاني عشر من يناير أرسل الملك إليَّ مرسالاً يأمرني بالحضور إليه لمعالجة جُرح أحدثه بإهمال لنفسه وبسيفه في القدم اليمنى. ولحسن الحظ فقد عالجته، بإعطائه بلسماً، وشُفي الجُرح في بضعة أيام.

في السادس عشر من يناير ١٧٠٢م، مرض شيخ إدريس ابن (نائب الملك)، وفي خلال عشرة أيام وبعون الله عالجته من اليرقان.

في السابع عشر من يناير ١٧٠٢م، مرض الإبن الأكبر للقاضي، ولكن في ظرف وجيز تعافى مثل الآخرين.

في العشرين من يناير ١٧٠٢م، جاءني للعلاج أحد العرب الذي وطأ حصان على قدمه اليمنى، وكانت في حالة سيئة. ولكن لحسن حظه أنهم في هذه البلاد لا يستخدمون حِدوة الحديد للحصين كما عندنا. وقد عالجته وشفيته

في وقت وجيز و لم أستخدم في علاجه غير الزبدة الطازجة ومسحوق التبغ والعسل والتي عملت منها لبخة (مرهماً).

في السادس والعشرين من يناير ١٧٠٢م جاءني أحد الشيوخ وهو يعاني من السفلس (الزهري) طالباً العلاج. وقد كان في حالة سيئة ولكنني عالجته وشفي في ظرف خمسة عشر يوماً. وكمكافأة لي فقد شرفني بإهدائي سيفه الموشى بالفضة.

وفي هذه البلاد ليس هناك مرض يماثل انتشار السفلس (الزهري) (المرض الفرنسي) أو كما يقول البعض (النابليوني). وبعون الله وحُسن الحظ كنت موفقاً في علاجه في أغلب الحالات، بجانب أمراض أخرى من نفس الشاكلة.

في السابع والعشرين من يناير ١٧٠٢م تم استدعائي لمعالجة طفل في الثالثة من عمره أصابته حُمى شديدة. ولأنني لم أكن مؤملاً في أنه سيعيش، قمت بتعميده، وقد توفي في الثلاثين من هذا الشهر.

وخلال كل هذه المدة لم نتلق رسالة من أثيوبيا، ولذلك لم نكن نعرف إن كان مبشرونا والجزويت أحياء أم أموات. وهذا جعلنا عُرضة للكثير من التخمينات.

في الثالث من فبراير ١٧٠٢م، أصابت حُمى شديدة الطوباتشي، سيدي حمد وهو نبيل (تُركي) من مصر، وقد عالجته وشفيته في وقت وجيز، ولهذا أراد أن يعطيني في المقابل ملء يده من قطع الثمانية ولكني رفضت ذلك. وقلت أن المسيحيين يأتون لزيارة بلاد البرابرة ليقدموا خدماتهم الطيبة للأفراد والجماعات من أجل حب يسوع المسيح إبن الله الحقيقي، وبعونه لنا، وليس لدينا رغبة في المال والربح والفائدة. فإننا نقف إلى جانب

المرضى، ونعالجهم و نمنحهم الصحة بقدر ما نستطيع. وفي مقابل العلاج هذا نأخذ فقط تلك الأشياء الضرورية لمعيشتنا. وكان هذا مدهشاً لكل من المصري المسلم والذي يعرف جيداً من نكون وكيف نعمل، ولكل الناس الآخرين. وقد أثنوا كثيراً علينا وعلى طريقتنا.

في العاشر من فبراير ١٧٠٢م، أُستدعِيت لعلاج الإبن الأصغر لـ(نائب الملك) وهو في الشهر الثامن من عمره، ولأنني رأيت أن لا فائدة من علاجه، طلبت إحضار القليل من الماء بادعاء أنني أريد إزالة المواد التي طلوا بها رأسه وفي سرِّية قمت بتعميده. وقد استخدمت أيضاً طرقاً مماثلة للتعميد في مرات أخرى. وأخيراً قمت بدلكه بدهان من مستخلص الورود كان معي. وبعد أيام قليلة إستدعاني النائب شيخ علي وقال لي أن إبنه قد توفي، وحقيقة، كان ذلك في الوقت الذي توقعته. وقد عّزيته بالقول المعتاد (مكتُوب)، وهذه الكلمة تُسهل الأمور للمسلمين في كل الأحداث غير المرغوب فيها والأوضاع غير السارة، فهم يؤمنون بروح هذه الكلمة وأن كل شيء مقدَّر في الأزل.

وفي الثاني عشر من فبراير ١٧٠٢م جاء إلينا أحد البرابرة خدام الجزويت بخطاب من الأب باوليتي، وكان الخطاب معنوناً لي، وقد كتب إلينا فيه بأن الأب قرانير مريض وأنه في الرابع عشر من يوليو وصل إلى العاصمة الأثيوبية قُندر. وقد حظي بالسماح له بمقابلة مع الأمبراطور الأثيوبي، بمعية الأب أنطونيو ديللا تيرزا، والذي يجد تقديراً كبيراً من الملك. ولكنه لم يعطنا تقريراً ومعلومات عن الأب الرئيس وجماعته لأنهم وصلوا بعد شهر من كتابة الخطاب. وقد مرض هذا البربري أثناء الطريق. وقد أخبرنا بأنه التقى بمبشرينا في (توركين) مسافة أربعة أيام من قُندر العاصمة الأثيوبية. وكانوا كلهم في حالة سيئة بسبب الأمطار المتواصلة الغزيرة وخاصة الأب الرئيس.

ومن هذا استنتجنا أنه مريض جداً لأن المسلمين في هذه البلاد لا ينقلون الأخبار السيئة. ويقولون دائماً أن الشخص طيب وحتى وإن كان قد مات بالفعل. وهذا قد أثار فينا الكثير من الهواجس. ووضعنا في كرب وجزع ورعب عظيم.

في الرابع والعشرين من فبراير ١٧٠٢م في عيد القديس ماثيو ظهر مُذنَّب كبير ورهيب بعد نحو ساعة من مغيب الشمس. وبالتأكيد ليس كبيراً بقدر ذلك المذنَّب الذي شوهد في العام ١٦٨٠م في ألمانيا، ولكنه أحدث نفس القدر من (الرهبة) والخوف عند النظر إليه. و لم تكن هناك نجمة على رأسه، ولكنه شكل ذنباً طويلاً جداً ينحني في اتجاه أوروبا. وقد بقى مستقراً في السماء لتسعة أو عشرة أيام. و لم يكن (السودانيون) يدركون ماذا يمكن أن يعني ذلك لأن حدثاً مثله لم يُعرف أو يُشاهد في ذاكرتهم الحيّة. ولكننا ،على كل حال، استنتجنا بسرعة أنه لا بد أنه يشير إلى مملكة أسبانيا، والتي كانت في ذلك الوقت بدون رأس. وقد تغيَّر ضوء القمر أيضاً بصورة واضحة، وكلها كانت لا تنبيء بخير..

في السادس من مارس ١٧٠٢م، جاء عدد قليل من الأثيوبيين إلى سنار حاملين أنباءً بأن ثلاثة من الفرنجة قد توفوا هناك. و لم يكن في استطاعتهم إفادتنا عن ماذا حدث بالفعل، ولذلك كان علينا أن ننتظر معرفة الحقيقة بصبر. وسوف أترك للقاريء الكريم أن يتخيل بنفسه كيف زادت هذه الأخبار غير المتوقعة من أحزان قلوبنا.

في السابع عشر من مارس ١٧٠٢م استدعاني الشيخ إسماعيل وقال لي إن ثلاثة من الفرنجة قد توفوا، ولكن الآخرين كلهم في طريقهم إلى سنار وسوف يصلون قريباً إلى هنا. يا إلهي يا لها من حالة من الإنزعاج كنا فيها و لم نكن نعرف من الذي مات ومن الذي لا زال حياً، أو قد تم إنجاز أي عمل

أم لا. و لم نكن قادرين على الوصول إلى الحقيقة، غير أن الواضح أن الأمور لم تسر كما خطط لها. ومن المحتمل أن تكون قد سارت بصورة سيئة جداً.

وقد استنتجنا بأنه قد تم طردهم بخزي وسخرية من قِبَل الأمبراطور. ولذلك انتظرنا النتيجة بغاية الألم، وكل لحظة بدت لنا وكأنها يوم كامل وإلى أن نعرف الوضع الحقيقي للأمور، من المحتمل أننا عملنا أكثر من مائة تقويم. و لم نكن نتحدث عن شيء سوى أمر مبشرينا وقدر لنا المولى القدير أن تكون هذه محنتنا التي نتناولها مع خبزنا اليومي. وإن كانت هناك محنة أو ابتلاء أو اضطهاد فقد توقعنا بأن الأسوأ و(الأكبر) سوف يلحق بنا قريباً.

في الثامن والعشرين من مارس ١٧٠٢م علمنا أن هناك أربعة من الفرنجة جاءوا من أثيوبيا، وأنهم وصلوا الآن إلى شاطيء النهر.

في التاسع والعشرين من مارس ١٧٠٢م، وصل الأب جوزيف المقدسي، والأب باسكويل دا مونتللا، والأب أنطونيو ديللا تيرزا والأب أنطونيو باوليتي من الجزويت. أما أبونا الرئيس، والأب كارلو دا سيلنتو والأب قرانير من الجزويت. فتوفوا وتركوا عظامهم تحت تراب أثيوبيا. وكان الأب باوليتي مريضاً على شفا الموت وقد أحضر الأب جوزيف ثمانية من الصبيان الأثيوبيين الذين ينوي أخذهم لروما. وكان مع الأب باسكويل أثنان، وواحد مع الأب باوليتي. و أحاط الأخير المشرف على الهلاك، عُنقي بيديه والدموع تبلل عينيه وقال «أيها العزيز الأب ثيودورو، عليك أن تشكر الله في كل يوم في حياتك على أنك بقيت هنا. وإذا كنا سمعنا نصيحتك لما مات رفقائي و لم أكن أنا مريضاً على شفا الهلاك. وأنا أسألك بحق حُب الله أن لا تتركني بل أن تبقى معي إلى حين أن أُبدِّل هذه الدنيا الفانية بالحياة الأبدية. ثم سلمني كل مواده التبشيرية، ونقوده، وأي شيء آخر بحوزته، مع رجائه بأنه بعد موته أن أقوم بأخذها بنفسي أو تأمين إرسالها إلى الآباء الجزويت الأثنين في

القاهرة. وقد وعدتُه بأن أفعل ذلك بأمانة وبدون أن أفقد أي ثالر، وقد فعلتُ ذلك. ولأن عينيه بدأتا تغمضان وحديثه يخفت، لم أتمكّن من حبس نفسي عن البكاء. وقُدته إلى حجرتي، وهيأت له مكاناً ليضطجع بأفضل ما أمكنني، وحاولت أن أهوّن عليه بقدر الإمكان. ولأنني رأيت أنه سيموت قريباً، سألته إن كان يرغب في الاعتراف.. وقد فعل ذلك. بالرغم من أنه أخلى ضميره من خلال طقس قداس سر الغفران قبل أيام قليلة. وقد أعددت له شيئاً يسيراً من الطعام، ولكنه كان من الضعف بحيث أنه كان غير قادر على الأكل. وكان الإسهال الذي عانى منه لمدة ثلاثة أشهر قد أنهكه حتى أصبح جلداً على عظم، وكان من الضعف بحيث لا يستطيع الوقوف على أرجله. وقد قضيت كل الليل بجانبه. وتحملتُ أحزانه بالتذكير المستمر بأبيه المقدّس إقناتيوس، والمقدس فرانسيس إكسافير، المبشرين الرسوليين المتحمسين. بالإضافة إلى ذكر آخرين من جمعيته التي تستحق الإشادة، والذين من خلال خدماتهم وشفاعتهم سوف ينضم إلى مجموعة الشهداء المقدسين كجزاء على جهده، وكدحه، والجوع والعطش الذي عاناه وكذلك العديد من الأخطار المُحدقة بحياته وجسده التي مرَّ بها في هذه الدنيا.

كان يستمع إليَّ بسرور، وقام بإبداء مائة من الإشارات البطولية الصغيرة. وبعد منتصف الليل، صار متعباً جداً وقد قمت بمسحه بالزيت، كما طلب بنفسه. وقريباً من الصباح بدأت ملامحه في التصلب بالتدريج، وتحدثت إليه إلى نحو الظهر، حتى أسلم روحه بين يدي خالقه.

وهكذا في الثلاثين من مارس ١٧٠٢م توفي. وبمجرد انتقاله للرحاب الأعلى ذهبت فوراً إلى مربع السوق وابتعت قطعة من القماش القطني ناصع البياض بطول أثني عشر ذراعاً. وهو قماش يستعمله أيضاً النبلاء لجنائزهم. وقد لففت به الجسد بقدر الإمكان، وبعدها ذهبت إلى أحد المسيحيين المصريين، وهو

صديق طيب لنا، وطلبت منه أن يساعدني في مسألة حفر قبر، على نفقتي في مكان المقبرة التي يدفن فيها المسيحيون عادة موتاهم. وللمسيحيين المصريين والأجانب هنا مقبرتهم الخاصة، لأن المسلمين يعتقدون أنه من المكروه جداً أن يُدفن معهم شخص ليس من مِلتهم. وبعد ذلك قمت بدعوة كل المسيحيين للتشييع ودفن الجنازة، وهم المسيحيين المصريين، وكانوا من الأقباط، وكان عددهم خمسة عشر، وأيضاً البرتغاليّين الأثنين، وأثنين من اليونانيين الذين يتبعون المذهب الكاثوليكي المسيحي الأصيل. كلهم حضروا ما عدا بعض الأفراد. وقد وضعناه في مَحفة (عنقريب) مصنوع من أربعة أعمدة منسوجة مع بعضها بشرائح من جلد الجمال بطول جسد الرجل. وقد وضعت سجادة نظيفة تحته وأخرى فوقه، وحملنا الجنازة لمسافة نحو نصف ساعة لمكان المقبرة، أنا والأب أنطونيو ديللا تيرزا والأب كارلو ماريا أوف جَنّوه، والأب باسكويل دا مونتيلا، والأب بنديتو دا ترابالدا والأب جوزيف المقدسي. وكان ذلك قبل ساعتين من مغيب الشمس. ووضعنا صليباً كبيراً من الحجارة فوق القبر الذي كان يقع في اتجاه الشرق. وكان المسلمون مندهشين لأننا لم نكن نصرخ أو نبكي عند الدفن. ودعوت هؤلاء الذين رافقوا الجنازة لتناول العشاء. فلترقد روحه في سلام مقدس.

في الرابع من أبريل أصاب الإسهال الأب أنطونيو ديللا تيرزا وكذلك الأب باوليتي وأصبحا طريحي الفراش. وتبعهما في ذلك الصبيان الأثيوبيون الذين أحضرهم مبشرونا، الواحد بعد الآخر. ولأنهم لم يستطيعوا أقلمة أنفسهم والتعوّد على الطعام المطبوخ، كنت أُحضِر اللحم إلى المنزل، خروف (كبش) أو عجل أو حمام ليتم ذبحه وإعداده. وبمجرد أن يتم ذلك، فإن الأثيوبيين الشباب، ما لم أكن متحوطاً ، يهجمون على اللحم مثل ما تفعل القطط تجاه الفئران ويأكلونه أما نيِّئاً تماماً أو يدفئونه قليلاً على الفحم. ولم أتمكّن من

تعليمهم وإجبارهم على ترك ذلك طوال الرحلة. وكثيراً ما كنت أدعي بأنني لا أرى، وأتركهم يفعلون ذلك لإسكات جوعهم حسب طريقتهم وعادتهم إلى أن يصيروا معتادين على الطعام المطبوخ.

وفي أثيوبيا يأكل الواحد منهم اللحم إما نيّئاً تماماً أو يقطّع ويُدفأ قليلاً على الجمر. والكبد والرئة والأحشاء الأخرى لا تُطبخ أبداً في هذه البلاد، وتؤكل نيّئة كمطايب فاخرة. والطريقة التي تُعد بها كالآتي: يغسلون الكرش، والأحشاء قليلاً، وفي الحال يقطعون الرئة والكبد والمصران قطعاً صغيرة، ويضعون عليها الفلفل والملح وقليلاً من البصل، وبعد ذلك يأخذون كيساً الصفراء ويسكبونه فوق هذا الخليط، غير المطبوخ. وبما أن الرئة والكبد والمصران ذات طعم حُلو طبيعي، فهم بهذه الطريقة يضيفون إليها مذاقاً طيباً. وبعد ذلك يخلطونها بأيديهم. وكان مذاقها طيباً لذيذاً جداً بالنسبة لي. ولذلك عندما عُدت إلى ألمانيا كنت أشعر بالغثيان لرؤية كبد مطبوخة ناهيك عن أكلها.

ملخص للأحداث في أثيوبيا:

في السادس من أبريل ١٧٠٢م، أعطى الأب جوزيف المقدي تقريراً مفصلاً لكرمب عن النشاطات التي قام بها المبشرون في أثيوبيا. وكان الأب فرانسيسكو دي سالمي قد وقع ضحية لأمراض فصل الأمطار قبل أن يصل إلى قُندر، ولكن تم استقبال الأوربيين الآخرين المتبقين بصورة جيِّدة في البلاط. وقد منحهم الإمبراطور العديد من المقابلات خلال شهر أغسطس ١٧٠١م، وهيّأ لإجراء مناقشات حول الشئون الدينية بينهم وبين بعض كبار (القساوسة) رجال الكنيسة والنبلاء من غير رجال الدين في المملكة. في الثاني من فبراير ١٧٠٢م، سمح الإمبراطور لنفسه أن يُعَمَّد ويدخل في الكنيسة الرومانية. ولكن نفوذ الأوربيين في البلاط، على كل حال، أثار امتعاض العديد من رجال الدين الأقل شأناً والعامة من المواطنين المتحمسين، مما دفعهم للتجمهر في طرقات العاصمة، لمنع ولو بالقوة إن دعت الضرورة، أي خيانة لموروثاتهم الوطنية التقليدية. وقد تم التحفُّظ على الأوربيين في الاعتقال المنزلي لحماية أنفسهم. وفي نهايات فبراير ١٧٠٢م، تم اصطحابهم بطريقة مشرفة إلى خارج المملكة. وقد أرسل الإمبراطور معهم عدداً من الشباب الأثيوبي لتدريبهم في روما ليكونوا قساوسة ومبشرين، وكذلك طلب من البابا إرسال المزيد من المبشرين البارعين في الطب والموسيقى والرسم والكتابة والميكانيكا.

وصف ما وقع لاحقاً في سنار

الآن أنوي مجدداً أن أواصل وصف رحلتي بعد هذا التوقف الطويل. وقد ذهبتُ مرة أخرى لزيارة مريضنا الأب أنطونيو ديللا تيرزا ووجدت في السادس من أبريل ١٧٠٢م أنه بالرغم من إعطائه كل ما يمكن تخيله من دواء إلا أنه لم يكن من المتوقع حدوث أي تحسن في حالته الصحية.

في التاسع من أبريل ١٧٠٢م أُصيب واحد من صبيان الأب باوليتي (طيّب الله ذكراه) الأثيوبيين بمرض مماثل لمرض الأب أنطونيو ديللا تيرزا، مع حُمى شديدة.

وخلال عشرة أيام، بعد أن أدى طقس الايمان، انتقل إلى رحمة الله القدير.

في العاشر من إبريل ١٧٠٢م، سمعنا بأن هنالك قافلة تتجمع وتنوي المغادرة إلى مصر في نهاية الشهر. و منحنا هذا الخبر قدراً كبيراً من السرور والفرح، وتداولنا حول هذا الأمر، وفي الأيام التالية، في كيفية ترتيب شئون بعثتنا التبشيرية. ومن الذي يعود إلى روما برفقة الأب جوزيف ومن الذي سيبقى في سنار مع الأب باسكويل؟ وإلى أين سنرسل الباقين؟ وبالنسبة لي فإن أي من الخيارات كان جاذباً مثل الآخر.. ولكن الأب جوزيف ولأسباب عديدة، ومن بينها أن يكون أحدنا برفقته، رأى أن أذهب أنا معه إلى روما.

وعلى مسافة ثمانية أيام من سنار في اتجاه الغرب ولأن قُندر تقع جنوب سنار، هناك مملكة معيّنة يُطلق عليها اسم فازوغلي، ومنها قندر تقع باتجاه الشرق. وفازوغلي باتجاه الجنوب من سنار. وكانت منذ نحو خمسة عشرة سنة ماضية أخضعها الأمبراطور الأثيوبي بالقوة المسلحة وفرض عليها وعلى كل رعاياها المذهب الكاثوليكي مع ما فيه من أخطاء في العقيدة يمارسها الأحباش الأثيوبيون. وقبل ذلك كانوا وثنيين تماماً يصلّون للشمس والقمر. وأرسل

إليهم الإمبراطور عدداً كافياً من القساوسة من قندر ليلقنوا ملك فازوغلي أمور الدين المسيحي. ولكن هؤلاء لم ينالوا رضاء الملك الجديد على المسيحية لأن أحدهم كان يقول أسود والآخر يقول أبيض، وكانوا في بعض الأحيان يناقضون أنفسهم، وكانت خبراتهم متواضعة في الكتاب المقدس (الإنجيل) وشئون القانون.

ولذلك وقبل عامين مضيا. وبعد مناقشات أولية كافية ومرضية، أرسل الأب باسكويل خطاباً مهذباً إلى الملك من خلال سكرتيره، والذي كان يأتي إلى سنار عدداً من المرات في السنة. وفي الخطاب أشار إلى أن الإتحاد واتباع الكنيسة الرومانية الكاثوليكية المسيحية هو الطريق الوحيد المفرد الذي يقود إلى الخلاص الروحي. ثم أشار إلى «أنه يقيم هنا في سرية كمبشر وقسيس مُكرَّس ومعه آخرون، وهناك أيضاً آخرون من مجموعته (رفقاوه ومساعدوه)، بعضهم معه حالياً بينما آخرون ينتظرون في مصر. وإذا كانت للملك رغبة في اتباع هذا المذهب الصحيح وغير المُحرَّف، فإنه سيقوم بإرسال أثنين من القساوسة تحت الإدعاء بأنهم أطباء وأنهم سوف يزيلون عن جلالتكم كل الشكوك والأخطاء، ويقودونك في الطريق الصحيح الذي يقود إلى الخلاص. ويقدمون كل الإرشادات في كل مسائل وشئون الايمان الضرورية». وقد أبدى الملك سروراً بالغاً وغير عادي حول هذا الأمر، وقام الأب باسكويل على الفور بتقديم طلب مكتوب إلى أبرشية الدعوة والتبشير في روما. وقد أخبرنا الأب باسكويل بما قال لهم في خطابه، مدعماً موقفه بالخطاب الأصلي الذي تلقاه من الملك والطلب الشفوي الذي قدمه سكرتير الملك، والذي كان في سنار في ذلك الوقت.

وقد أنبأنا السكرتير بأنه يحمل تعليمات من زعيمه بأن يحضر معه إلى الملك أثنين من القساوسة عند عودته على أن يكون أحدهم طبيباً، وذلك على نفقة

الملك. عندها عقد الأب جوزيف مجلساً للتداول معنا حول هذا الأمر، وفي النهاية قررنا أن يتم إرسالي والأب كارلو ماريا أوف جنوا، وأن نترك الأب باسكويل والأب بنديتو هنا في سنار. وسيحل مكاني الأب أنطونيو دي مالطا. وقد اعتبرنا الأب أنطونيو ديللا تيرزا غير صالح للمهمة نسبة لمرضه، وفي الحقيقة كان أشبه بالميت. وتقبل كل واحد منا هذا التكليف راضياً، وشرع بأفضل ما يمكن في إعداد نفسه للرحلة وأخذ المؤونة الضرورية. ولكن كما يقول المثل «العبد في التفكير والرب في التدبير» والله يقدّر الأمور كما يشاء. وذلك ما سارت عليه الأمور فعلاً لأن الأب أنطونيو في الخامس عشر من أبريل أصيب بهبوط في قواه تحول في وقت وجيز إلى حُمى شديدة. وازدادت الحُمى سوءاً. وفي الثالث والعشرين من أبريل ١٧٠٢م. قدمنا إليه قربان الموت، ومسحناه بالزيت المقدس، وكان لدينا كل احتياجات القداس وكذلك الزيت (المكرس). و في كل يوم أحد والأيام المقدسة، كان يقوم واحد منا بإقامة القداس، بينما يتلقى الآخرون العشاء الرباني. وكان البرتغاليان الإثنان والإغريقيان الرومان الكاثوليك الإثنان، الذين يقيمون في سنار، يحضرون هذه المناسبات.

ولعدم وجود النبيذ استعملنا الزبيب، ومنه استخرجنا النبيذ بالطريقة الآتية. يضع المرء الزبيب في ماء نظيف ويتركه حتى ينتفخ وعندما يثقل بما يكفي فإن الواحد يأخذ قطعة من القماش النظيف والرقيق ويجففه بقدر المستطاع حتى لا تبقى أي رطوبة خارج القماش. ثم بعد ذلك يسكبه المرء في كيس من الكتان، مصنوع لهذا الغرض، وأن يوضع تحت العَصَّارة (المكبس) والتي أحضرناها معنا لهذا الغرض. ويتم إخراج العصير ويخضع بعد ذلك للتصفية في دورق زجاجي ويتحول إلى نبيذ ذي مذاق في غاية الجودة. ولكنه لا يمكن حفظه طويلاً بدون أن يصبح مُر المذاق.

وكان ضُعف الأب أنطونيو يزداد يوماً بعد يوم حتى فقدنا الأمل في أن يتعافى.

وعليه فإننا أضطررنا لتغيير خططنا مرة أخرى. وقد قرر الأب جوزيف إلغاء البعثة التبشيرية إلى فازوغلي، في الوقت الحالي، نسبة لأنه كان لدينا إثنان من القساوسة المرضى المشرفين على الهلاك هما الأب أنطونيو ديللا تيرزا والأب أنطونيو أوف مالطا. وقد وافق الجميع على إرسالهما عائدين إلى مصر بدلاً من بقائهما في هذه البلاد غير الملائمة. وكان رأي الأب كارلو ماريا أوف جنوه، متوافقاً معنا. ولكن بالنسبة لي كان الأمر سَيَّان. وعند ذلك أمرني الأب جوزيف للترتيب والإعداد للرحلة إلى مصر حيث أننا أُجبرنا على اصطحاب ليس فقط القسيسين المريضين المُتعبين تعب الموت وإنما كذلك الأولاد الأثيوبيين الثمانية. وقد حزمنا أمرنا بصورة قاطعة ونهائية، كان علينا أن نصحب معنا الأب كارلو الذي لم تعُد لديه أي رغبة في البقاء في هذه البلاد، تحت هذه الظروف. وفوق ذلك ،أنَّ واحداً منا قد يُضطر للبقاء مع أحد المرضى الاثنين إذا صار من الضعف بحيث يصبح غير قادر على مواصلة السفر، أو حتى إذا توفي. وفي هذه الحالة سيكون من الملزم أن يُترك معه أحد القساوسة لرعايته والاهتمام به حتى لا يضيع روحاً وجسداً، وسط هؤلاء المسلمين البرابرة، وعلى هذا وافقنا جميعنا. وفي سبيل تقاسم أعباء رحلتنا القادمة بيننا، فقد أمر الأب الرئيس بأن أقوم أنا بالإشراف على المرضى وأن أتحمل وأخفف من أحزانهم. وقد أوكل أمر الأولاد الأثيوبيين الثمانية إلى الأب كارلو. وهو والأب جوزيف سوف يوفرون كل الاحتياجات الضرورية بقدر الاستطاعة. وسوف يُراقب ويضع عينيه جيداً على خدمنا وحيواناتنا حتى لا نفقد منها شيئاً. وهكذا سوف ترتب الأمور بهذه الطريقة.

في الثاني والعشرين من أبريل ١٧٠٢م قمت بزيارة الشيخ إسماعيل مودعاً له. وقد شكرته على كل الأفضال والمعونة الطيبة التي تلقيتها منه. وقد طلب

مني أن أحضر له أثنين من جراء الكلاب البولونية إذا قُدِّر لي العودة إلى سنار.

وأراد أن يعطيني في المقابل أثنين من قطط الزباد الممتازة. ولكنني شرحت له المصاعب والمخاطر التي تواجهنا في هذه الرحلة الطويلة. وقلت أنني قد ألاقي حتفي في الطريق أو أصبح مريضاً مما يعوق عودتي إلى هذه البلاد.

ونسبة لهذه الظروف فإنه لا يمكنني أن أعطي (وعداً) وعندئذ قال لي «في حالة أنه لم يُقدر لي العودة إلى سنار بنفسي فإنه يمكنني إرسال الكلبين مع الجلابة أو صديق. ولكن لأن ذلك أمر خطر أيضاً فإنه لم يمكنني الموافقة. ولكنني وعدت إذا قُدر لي أن أزور هذه البلاد مرة أخرى فإنني سأحضر له الكلبين معي. و لم آخذ قطط الزباد.. وكل واحد من هذه القطط يعطي أكثر من عشرة جرامات من الزباد في كل أسبوع. وهي توجد بأعداد كبيرة هنا وفي البلاد المجاورة وخاصة أثيوبيا.

وبالرغم من أن الناس يطلقون عليها لفظ قطط، لكن هذا الحيوان أكثر شبهاً بذئب صغير أكثر من القط لأن رأسها طويل، ولها أنف وأوداج صغيرة وبارزة مثل القط. وأسنانها مثل أسنان الكلاب، ولونها مبيض ورمادي ومُرقط بنقط سوداء مثل الذئب، وقوائمها وأرجلها وأقدامها أقرب للقصر من الطول، وصغيرة نوعاً ما. ويغطيها شعر أسود. وفي كل قدم لها أربعة مخالب، وأظافرها مثل أظافر الكلاب صغيرة وقصيرة وسميكة، وليست محنية. والذيل يتميز بالطول والشعر المنقط بألوان مختلفة. وصوف جسمه يتدلى إلى الأرض. وأخيراً فإن أُذنيها في غاية القِصر. والمرء يستخرج منها الزباد بالطريقة الآتية: يُنخس ويُلكز، الحيوان وهو داخل قفصه بواسطة عصا ملفوف رأسها ببعض الخرق حتى لا تؤذي القط. ويُفعل هذا إلى أن يصبح القط في غاية الإنزعاج والغضب والهياج، وفي النهاية وبسبب الهياج الكامل فإن الزباد ينسكب من كيس صغير جعلته الطبيعة لهذا الغرض. وبعد

ذلك يمسك المرء القط من ذيله ويجرّه إلى قُضبان القفص ويستخرج الزباد الثمين بملعقة صغيرة خاصة مصنوعة لهذا الغرض. وإذا كان القط جيداً فإنه يُعطى ما يعادل عشرين جراماً من الزباد في الأسبوع. والزباد رمادي في لونه، ولكنه يصبح بنياً نتيجة لطول الزمن أو سوء الحفظ.

وفي الثالث والعشرين من أبريل ١٧٠٢م كما في الأيام التالية، تجمع جزء كبير من القافلة المسافرة إلى مصر، خارج المدينة. وقد كانوا يحملون كمية كبيرة من سن الفيل، ففي كل البلاد الأفريقية لا توجد أفيال بمثل الكثافة التي توجد فيها في الإقليم المتاخم لأثيوبيا. و ينتشر الفيل في أفريقيا وخاصة في الأحراش والسهول في بلاد السودان العليا، وحول شواطيء نهر النيجر، وفي ثنايا جبال الأطلس، وكذلك في أماكن أخرى وخاصة أثيوبيا وفزان وبرنو. وهناك العديد من أنواع الأفيال. فأفيال المستنقعات لها أنياب أقرب للزرقة، وفيها ثقوب هنا وهناك ومن الصعوبة استخلاصها، وهناك صعوبة في تقطيعها وتصنيعها. والأفيال الجبلية سيئة الخلق ويمكن إثارتها بسهولة، ولها أنياب صغيرة ولكنها أقرب للبياض وجيدة التكوين. وأفيال السهول، والتي يعتبرها الناس ذات طبيعة طيبة ودية وهادئة ويمكن تتبعها، تحمل أنياباً كبيرة وناصعة البياض وسهلة التقطيع. وأفيال الأحراش مثل تلك التي توجد في مملكة سنجة. وهي من الكثرة بحيث من الممكن أن تشاهد منها قطعان كاملة، مثل الغزلان، والخنازير التي في أماكن معينة في أوروبا. ويمكن للمرء أن يكتب الكثير المثير للتأمل عن الفيل. ولكن بما أن العديد من المؤلفين المتنوعين قد كتبوا عن ذلك، فإنني سوف أحيل القاريء الكريم إليهم. وسوف أتناول، شيئاً عن صيد الأفيال، لأن المؤلفين في كتبهم لم يتفقوا حول ذلك. ففي أفريقيا وخاصة أثيوبيا، فإن الفيل يُصاد بالطريقة الآتية: يقوم أثنان أو ثلاثة من الرجال على ظهور جيادهم السريعة العدو، وبالإضافة لحرابهم

فإن الواحد منهم يحمل سيفاً طويلاً وحاداً مثل تلك التي يحملها العرب عادةً. ثم يتوجهون إلى الأمكنة التي يأملون العثور فيها على الفيلة، وعندها يطردون واحداً منها خارجاً، إذا كان ذلك في الغابة أو في مكان آخر، ثم يطاردونه بالطريقة الآتية:- يقوم أحدهم بالعدو أمام الفيل، ولكن ليس بسرعة كبيرة، حتى يستطيع الفيل متابعته. والفيل حيوان مشاكس يبدأ في المطاردة بأمل أن يلحق بالحصان وراكبه. وبمجرد أن يصل الراكب أمام الفيل إلى مرحلة التوازن التي يجد فيها مساحة كافية للالتفاف فإنه ينحرف، أما إلى اليسار أو اليمين، وبما أن الفيل حيوان ثقيل ولا يمكنه الإلتفاف بسهولة وسرعة، وحركته بطيئة، فإن ذلك يعطي الفرصة للذين يتبعونه من الخلف على أقدامهم أن يقطعوا بسيوفهم الحادة عصب العرقوب، وهو واحد في كل من قوائمه الخلفية. وبذلك ينهار الجسم الثقيل للفيل على الأرض وعندها يعملون فيه تقطيعاً وجزراً بسيوفهم. وللآخرين أن يكتبوا ما شاءوا عن صيد الفيل. وقد سمعتُ ما كتبته وسجلته هنا ليس مرة واحدة ولكن مرات عديدة من أولئك الذين شاركوا بأنفسهم في صيد الأفيال وأحضروا الأنياب لبيعها في سنار. والعرب والفقراء الآخرين من الناس يأكلون لحم هذه الأفيال.

في الأول من مايو ١٧٠٢م، حظينا أنا والأب باسكويل بمقابلة الملك. وقد ابتدرت أنا الكلام بالقول «بما أن الأب باسكويل طبيب الملك الشخصي الأول، قد عاد، فأنا أرغب في العودة إلى مصر مع القافلة للبحث عن حظوظي». وبالرغم من أن الملك كان يرغب في أن أبقى هنا ولكنه لا يريد عرقلة طموحاتي. وفي الحال أمر الشيخ إسماعيل أن يسلمني واحداً من أفضل جماله الهجين من الاصطبل الملكي. ثم بعد ذلك أمر سكرتيره بإعداد خطاب ملكي من أجلي والأب أنطونيو ديللا تيرزا والذي رشحه

الأب باسكويل ليكون مساعداً له. وأن يذكر في الخطاب «بأنه أينما ذهبنا خلال الرحلة يجب على الناس أن يمدونا، كمستخدمين عند الملك – بكل شيء ضروري لنا ولجمالنا ولخدمنا». وقد شكرته من كلِ قلبي على هذه المنّة والفضل. وفي ظرف ساعات قليلة، أُحضر مرسالاً إليّ في مكان إقامتنا خطاب التوصية، ومعه جمل هجين في غاية الجمال والإمتياز ، وقد أخبرني المرسال أيضاً بأنه قبل مغادرتي يجب أن أحضر مرة أخرى لمقابلة الملك، لأن الملك يريد أن يعطيني العديد من أواقِ الذهب كمكافأة على خدماتي المخلصة لجلالته ولرعاياه. وأنا على كلِ حال بالرغم من أن مصلحتي الشخصية كانت من أقل اهتماماتي، فقد شكرته بتهذيب شديد.

وأرفق هنا صورة من خطاب التوصية الذي أصدره الملك لي وللأب أنطونيو ديللا تيرزا وهو مكتوب باللغة العربية، والذي ترجمته للغة الألمانية بنفسي. وقد جاء فيه:

من حضرة السُلطان المبرور المؤيد المنصور الذي أيده الله بالنصر والتمكين والرفعة والتحصين، زاد الله في أيامه، وجعله ظلاً ظليلاً يأوي إليه كل مسكين، الذي هو في الدنيا سعيد وفي الآخرة إن شاء الله شهيد. سلطان الإسلام ومدمر أهل البغي والطُغيان، سيف الله القاطع وسهامه اللامع، من انطوى باطنه على الصفا وظاهره على الصدق والوفا. الصادق في قوله الأمين في فعله الذي إذا قال صدق وإذا تكلّم بالحق نطق. ناشر لواء العدل في العالمين، ناصر شريعة سيد المرسلين، أحق من ملك تحت الخلافة باستحقاق وأولى من ولّى الولاية في الآفاق، وهو الذي وجّه عنان العناية لحماية الإسلام بشهادة الإجماع، وتلك شهادة لا يتطرق إليها النزاع. وجدد بناية الهداية بعدما اندثرت آثاره وانطمست معالمه، ومهد بساط العدل بعد أن لم يوجد إلا مظلوم وظالمُه، ذو المفاخر التي شهد بفضلها الخاص والعام. والمآثر التي ترتفع على الثريا وتكاثر الغمام. سُلطان المسلمين وخليفة رب العالمين القائم بأمر الدنيا والدين،

المنتصب لمصالح المسلمين، من أصلح الله به العباد وأنار به البلاد. مولانا وأولانا وأعلانا وناصرنا ومعيننا على أعدائنا ، السُلطان بادي إبن السلطان أونسه، المظفّر المعان نصره الله الرحمن الرحيم بجاه القرآن العظيم والنبي الكريم، آمين آمين يا رب العالمين.

فإن السلطان يخصك بجزيل السلام يا شيخ محمد(*) ويقول لك الذي نعرفك به، إذا حضر إليك المُعلّم يونس(*) والمعلم سليمان، اللذان يريدان التوّجه إلى مصر وأظهرا لك هذا الجواب، أن تؤكد لناسك وجميع الشيوخ والمقاديم والجراي الذين تحتهم إلى حد ملكي بأن لا يتعرض لهم متعرض ولا ينازعهم منازع ولا يظلمهم أحد ولا يقف لهم على طريق، لأن المعلم يوسف كان حكيمي سابقاً وقد فعل من الخير الكثير لي ولمملكتي ورعاياي، وترك في محله المعلم يونس. والمطلوب منك أيها الشيخ أن تراعيهم وتقدم لهم ولخدامهم وللجمال كل ما هو ضروري، إفعل ذلك من أجل شأني. وإن كان رأيهم أن يقيموا في بلادك أو التوّجه يساراً أو يميناً لا تعترضهم، وساعدهم فيما يحتاجون، وهذا مرادي وأمري لا يتبدل، وفيه الكفاية ولا يحتاج إلى مزيد من مكتوب غيره. وأؤكد لك أيها الشيخ أن تقول لملك دنقلا أن يقوم لهم بكل شيء يحتاجون له. والسلام مع بركة النبي الكريم عليك وعلى كل مملكتنا(*).

ملحوظة:

يُطلق على المسيحيين في تركيا لقب «مُعلّم» وهي تعني ببساطة سيد، وهي غالباً ما تُطلق على التجار وأصحاب الحِرَف، وكان في سنار إسمي (يُونس)

---

* يورد المؤلف بأن شيخ قري "هو الذي تقع تحت مسئوليته وحكمه كل مملكة النوبة وقري حتى البحر الأحمر" والحكام الآخرون أيضاً يطلق عليهم لقب شيخ
* قمت بإعادة ترتيب الخطاب من خلال مضاهاة لغة المكاتبات الصادرة عن سلاطين سنار، على حسب ما ورد عنها من وثائق: في محمد إبراهيم أبو سليم وج. ل. سبولدنق.
* سنار على حسب ما ورد عنها من وثائق في محمد ابراهيم أبو سليم (الفونج والأرض: ٦٧٩١)

والأب أنطونيو ديللا تيرزا سليمان، ويوسف للأب باسكويل. وكان علينا أن نتخذ أسامي معروفة لكل من المسيحيين والمسلمين.

كان يحدونا الأمل في مغادرة هذا المكان خلال أيام قليلة، ولكن تأجل هذا لشهر كامل آخر. وقد كان وضعاً مؤلماً جداً لنا، وجزء من السبب في ذلك أننا سنسافر في موسم الحر الشديد وجزئياً لأن واحداً بعد الآخر من عربنا والأولاد الأثيوبيين والأب جوزيف أُصيبوا بالإسهال، وسبب آخر هو أن نفقاتنا بدأت تتراكم، خاصة أننا اشترينا مؤخراً، أثني عشر جملاً وثلاثة حَمير، والسبب الثالث أن الأب أنطونيو أوف مالطا لم يعد يطيق الإقامة هنا. فالجو غير صحي الهواء وملوث، برائحة الفضلات البشرية. والواحد كثيراً ما يمر في الطرقات العامة والميادين بجيفة متحللة لجمل أو حِمار أو حيوان آخر، وهي تصدر روائح منتنة (كريهة) إلى أن تجففها الشمس. وأخيراً قررنا الذهاب إلى الريف خارج المدينة حيث كانت تعسكر القافلة.

و غادر الأب جوزيف الذي صار الآن بمثابة رئيسنا، المدينة بمعية الأب أنطونيو. والأب كارلو والأولاد الثمانية،كلهم تقريباً مرضى، وللأسباب التي ذكرتها عاليه.

وصف الرحلة من سنار إلى مَشّـو

في الخامس عشر من يونيو ١٧٠٢م، تحركت جميع القافلة، وبعد وداع أخوي للأب باسكويل والأب بنديتو. قمنا بالإنضمام إليها. وطوال اليوم حافظنا على السير البطيء خطوة بخطوة، ولما كان الأب أنطونيو ديللا تيرزا المريض والمشرف على الهلاك – وكذلك أحد الأولاد الأثيوبيين – غير قادرَين على الوقوف على أقدامهما، فقد اضطررنا على وضع الأب أنطونيو على حمار؛ ثم كلفنا أحد البرابرة للإمساك به وإسناده ومنعه من السقوط.

في السادس عشر من يونيو ١٧٠٢م، سرنا نحو عشر ساعات، أحدثت في المريضين حالة إعياء لدرجة الإشراف على الهلاك، ولكن بالرغم من ذلك فإن أحداً، تحت كل الأحوال لم يتمكن من إقناعهما وحملهما على العودة إلى سنار.

في السابع عشر من يونيو ١٧٠٢م، أصبح الأب أنطونيو في حالة من الضعف حتى ظننا أنه سيموت في تلك اللحظة و لم يكن الولد الأثيوبي أفضل حالاً. ولذلك حاولنا بشتى الطرق التي يمكن تخيُّلها إقناعه بالعودة إلى سنار قبل فوات الأوان حيث يكون في رفقة زملائه الاثنين اللذين سوف يرعيانه بعناية فائقة ويقومان بتلبية حاجاته الجسدية والروحية. ولكنه لم يبد أي موافقة على ذلك قائلاً بأن بداية الرحلة قد أنهكته ولكن لديه أمل كبير في أن يسترد عافيته. وتابعنا سيرنا بعناء كبير ووصلنا في الثاني والعشرين من يونيو ١٧٠٢م إلى أربجي، وأضطررنا للبقاء فيها لمدة خمسة أيام نسبة لإعاقتنا بسبب المرضى الذين معنا. وفي هذه الأثناء توفي أحد الأولاد الأثيوبيين.

وحدثت وفاته في الثاني والعشرين من يونيو ١٧٠٢م وقد أرعبت وفاته السبعة الآخرين للدرجة التي حملت اثنين منهم على الهروب، آخذين معهما القليل جداً من البسكويت (الخبز) وكانا يؤملان في الهرب إلى سنار ومنها إلى إثيوبيا. وقد أُصبنا بصدمة كبيرة لهذا الفعل وأرسلنا العرب الذين معنا (لإحضارهما) وقد أعيدا في اليوم الثاني. وقد تحدثنا إليهما بلطف و لم نتعامل معهما على أساس أنهما فعلا شيئاً يعاقبان عليه، وذلك حتى نحافظ على عاطفتهما نحونا.

كان مرض وضعف أبينا الطيب أنطونيو يزداد يوماً بعد يوم ولذلك أجبرنا على البقاء هنا حتى يتعافى أو يتوفى. وكان هذا صعباً علينا كلنا، لأنه كان علينا أن نترك معه قسيساً للعناية به. وفي هذه الحال احتار الأب جوزيف في كيفية المساعدة أو اتخاذ قرار، لأنه كان يريد أن يصحبه أحدنا إلى روما، وكان يفضِّل أن أكون أنا. ومن ناحية أخرى، فإن خدماتي الطبية ستكون مطلوبة للأب أنطونيو ديللا تيرزا المريض والضعيف المتهالك، ولذلك طلب من الأب كارلو أن يبقى هنا ليرعى الأب أنطونيو تيرزا حتى يتحسن، وقد أبدى الأب كارلو كل الاعتذارات الممكنة، وعلى كل حال، في النهاية التجأ الأب جوزيف إليَّ. وقال إنه كان ينوي أن يصحبني معه كمرافق له إلى روما، ولكنه الآن يطلب مني أن أبقى ولا أترك هذا الأخ المسكين، والمشرف على الهلاك، وأن أقف بجانبه في ساعة حاجته الماسّة. وقد طلب أن أقوم بهذه المهمة من أجل حب الله والواجب المقدّس في ديننا، والذي يوجب على المرء أن يرعى مثل هذا الشخص المريض كما يحب أن يجد الرعاية لنفسه في مثل هذه الحالة. وقد طمأنني بأنه سيوفر لي كل احتياجاتي وما يكفيني. وفي حالة أن المريض لم يطول به الأمر وانتقل من هذه الدنيا وتوفي، والقافلة

لم تعبر بعد صحراء بيوضة، فإنه يمكنني أخذ جملي واللحاق بالقافلة. وإذا لم تحدث الوفاة وأخذت وقتاً طويلاً، فإنه عليَّ الرجوع إلى سنار والانضمام إلى المبشرين هناك. ولهذا الأمر سوف يعطيني المال اللازم لسنة كاملة من الذي يوفره مجلس الدعوة الذي يمنح لكل واحد. و لم أرفض هذا الرجاء خصوصاً و أن الأمر يتعلق بأخ مريض. وذهبت في الحال إلى المدينة لمقابلة الفقيه محمود، وهو رجل ثري أصبح من أصدقائي الحميمين بسبب خدماتي الطبية. وقد طلبت منه المشورة في كيفية الحصول على مسكن مريحٍ يمكنني أن أقيم فيه مع رفيقي المريض. ولعلمه بأن لي نفوذاً كبيراً عند مَلِكه. فقد عرض عليّ بدون مقابل وبأريحية، أن يمنحنا واحداً من بيوته وخادماً ليخدمنا. ومثل هذه الطيبة القلبية يجب أن تحدث علامات الخجل على خدود الكثيرين من المسيحيين، والذين ليسوا يحجمون فقط ويضنون عن المساندة للأجانب والمرضى بل يطردونهم بكلمات قاسية وخشنة. وقد عدت بكثير من الرضا إلى رفقائي المنزعجين المهمومين. وأعطاني الأب جوزيف خمسة أواقٍ من الذهب، بالإضافة إلى تلك التي منحها الأمبراطور الأثيوبي للأب أنطونيو ديللا تيرزا كهدية وداع.

وفي الخامس والعشرين من يونيو ١٧٠٢م، أحضرت الرجل المريض إلى مدينة أربجي وإلى منزل الفقيه محمود وقد وفر لي مكاناً مسوَّراً (حوش) وفيه باحة كبيرة فيها منزل صغير، وعبد ليقف على خدمتنا والعناية كذلك بالجمال التي كانت معنا، وكذلك جاءنا بكلبين للحراسة في الليل حتى لا يهاجمنا الأعراب والقتلة.

وفي السادس والعشرين من يونيو ١٧٠٢م، جاء إلى مسكننا الأب جوزيف والأب كارلو والصبيان الأثيوبيان. وكان الأب أنطونيو أوف مالطا بقي

مع القافلة لأنه كان لا زال يعاني من أثر المرض. وهنا وبحزن عميق تبادلنا عبارات الوداع وتمنّي السلامة ، وبعد ذلك ذهبوا لمواصلة رحلتهم. وقد زاد المرض على المريض وأصبح في حالة من الضعف والإسهال المتزايد لدرجة أنني لم أنعم بالنوم ولا الراحة ليلاً ولا نهاراً. وقد قررت أن أرسل أحد الثقاة مع جمالنا الأثنين إلى سنار، ليخبر الأب باسكويل والأب بنديتو بالحالة الصعبة التي يعانيها حبيبنا الأب أنطونيو ديللا تيرزا، وبما أنني أقف معه وحدي وقد طلبت على الأقل أن يأتي واحد منهم إلينا في أربجي حتى يمكننا أن نتناوب في رعاية الرجل المريض.

في الأول من يوليو ١٧٠٢م، حضر إلينا الأب بنديتو دي تربالدا بعد مغيب الشمس بساعة. وبالرغم من أنها كانت مسافة أكثر من ثلاثين ميلاً ألمانياً، إلا أنه قد قطعها فوق ظهر جملي في نحو ثماني عشرة ساعة. وقد أنهكها هذا السفر العنيف والركوب غير المعتاد للدرجة التي أصيب فيها بإسهال شديد مصحوب بنزيف دم وفي ظرف ثلاثة أيام كان يعاني من الإنهاك الكامل وخارت قواه. وهذا جعلني في غاية التعاسة، وبالرغم من أنني الآن أصبح عليَّ رعاية مريضين بدلاً من واحد، فإنني لم أفقد يقيني وعزمي. وقد أصبح الأب أنطونيو يزداد ضعفاً للدرجة أنه في الرابع من يوليو ١٧٠٢م لم يعد في استطاعته رفع رأسه من الوسادة. وازداد إسهاله يوماً بعد يوم. وبما أنني لم أعد أستطيع حمله من السرير، فإنني أحدثت فتحة في السرير حتى تأخذ الطبيعة دورتها. ولكل واحد من القراء أن يتخيل لنفسه مدى الصعوبات والمعاناة التي كنت أواجهها ليلاً وصباحاً فقد كان عليّ الذهاب للسوق لشراء الاحتياجات، وبعد ذلك أطعم مريضيّ العزيزين كما يطعم الإنسان الأطفال و عليَّ المراقبة المستمرة لحالة مرضهما والسهر أحياناً ، و لم أحظ إلا بالقليل من النوم ولذلك ناشدني المريضان أكثر من مرة بأن أهوِّن

الأمر على نفسي، وقد شكراني آلاف المرات على هذه الخدمات الكبيرة العظيمة والتي أؤديها بإخلاص تام. و قال كل منهما إنه عندما يلاقي وجه الرب فإن صلاته الأولى ستكون من أجلي. وبالرغم من أن الأب بنديتو بدأ في التحسن قليلاً إلا أنني رفضت تركه يقوم بالعناية برفيقي المشرف على الهلاك، لمراقبته بالليل أو تحمل أي أعباء نحوه. وقد أخذت كل المسئولية على عاتقي.

في الثامن من يوليو ١٧٠٢م بدا لي أنّ الأب أنطونيو ليس على ما يرام ومن ثم رجوته أن يقوم بالاعتراف بالرغم من أنه قبل مغادرته لسنار كان قد قام باداء كل الطقوس الروحية. وقد فعل هذا ثم عرق عرقاً شديداً ولكنه لم يتمكن من إخراج شيء من جوفه. وقد طلب مني أن أسقيه شربة ماء ولكن لأنني رأيت أن الموت يحدق به وأنه قد يُشرق بالماء، فقد رجوته أن يصبر حتى يجف العرق الكثيف إذ لم أشأ أن أقصر حياته بهذه الطريقة. وقد ذكّرته بالعطش العظيم الذي عاناه مُخلّصنا المسيح يسوع عندما كان على الصليب المقدَّس. وفي نهاية هذا صاح بأعلى ما قدر عليه من صوت، «أنا أعطش يا يسوعي أنا أعطش». وبهذه الكلمات انهار راقداً. على السرير، وبعد ربع ساعة خرجت روحه إلى بارئها فلترقد روحه في سلام قُدسي.

وبعد وفاته ذهبت مباشرة إلى مربع السوق وابتعت قطعة من قماش الكتان الأبيض وكفَّنته فيها كما فعلنا للأب أنطونيو باوليتي من الجزويت في سنار. وبعد ذلك طلبت من بعض العبيد والبرابرة أن يحفروا قبراً. ولكن لم يقبل أحد منهم القيام بذلك، قائلين بأنه ليس من اللائق للمسلم أن يدفن كافراً أو منافقاً – كما كانوا يعتبروننا وفي النهاية ذهبت إلى الفقيه محمود وأخبرته بوفاة الأب أنطونيو، ورجوته أن يتم معروفه بأمر بعض البرابرة أو العبيد

بدفن الأب أنطونيو، الأمر الذي سأدفع فيه ما يطلبون بطيب خاطر. وقد كان هذا طلباً صعباً، ولكنه في النهاية رق لحالنا وأرسل ستة رجال بعضهم عبيد والآخرين من البرابرة والذين تفاوضت معهم على الدفن. فالقبر سيكون على مسافة ربع ساعة من المدينة تجاه الشرق، وأنني سوف أدفع لهم نصف وقية من الذهب لحفر القبر وحمل الجنازة إليه. وقبل ساعتين من المغيب رافقت الجنازة حتى مكان القبر. وقد كنت وحدي تماماً فالأب بنديتو كان لا يزال ضعيفاً وبقى في المنزل. وقام السودانيون بوضع الجنازة بجانب القبر ووقفوا بعيداً. وقد ناشدتهم بكل وسيلة أن يقوموا بوضع الجنازة في القبر وأن يساعدوا في إهالة التراب عليها ودفنها ولكن لم تُجدِ معهم كل الوعود التي بذلتها. وقالوا أنهم لا يريدون قدراً كبيراً من المال، وأنهم لن ينتهكوا شريعة نبيهم الكريم محمد وينجسوا أنفسهم بلمس كافر كلب. ولذلك فقد اضطررت للقيام بذلك بنفسي وأن أنزل الجنازة في القبر العميق بكل ما أقدر عليه بدون أي مساعدة من أحد. وقد سحبت السجادة النظيفة التي لففته بها ودحرجته على الأرض من العنقريب (السرير) الذي مات عليه، وهو إطار من شرائح خشبية وأربعة أرجل خشبية، ومنسوج بسيور من جلد الجمال. ويضجع عليه من الأثرياء في هذه البلاد. وبعد ذلك حملته من تحت الكتفين وجعلته ينزلق في الحفرة. ولكن الجزء الأعلى من جسده كان ثقيلاً جداً بالنسبة لي، ولذلك فقدت توازني وقد انزلق مني بكل قوة متصالباً في عمق القبر. وظننت أنه سيتمزق شراذم ويتقطع. وقد ضحك السودانيون عديمي القلب. وفي الحال أصابتني صدمة و لم أدر ما أفعل. وفي النهاية نزلت إلى القبر مع الجنازة ثم سويته بكل ما استطعت. ثم بعد ذلك بدأت في إهالة التراب على القبر وقد ساعدني السودانيون بعد أن وعدتهم بعطاء آخر.

وبمجرد أن عدت للمنزل، طلبت من الأب بنديتو، من أجل الحُب، أن يبقى معي حتى يتحرك الجلابة الذين ما زال بعضهم موجوداً للإلتحاق بالقافلة الكبيرة. وقد قررت الانضمام إليها حتى أنفذ بالكامل تعليمات الأب جوزيف. وقد أبدى موافقته قائلاً بأننا نرغب أن نقضي الوقت المتبقي في الاعتكاف. ولكن تأمل، بعد غياب الشمس بقليل عندما كنا نتناول عشاءنا، حضر إلينا مرسال على هجين، وقد ركب من سنار قاطعاً ست عشرة ساعة ليحضر إلينا خطاباً من الأب باسكويل إلى الأب بنديتو، قال فيه أنه يجب عليه أن يسرع في الحضور فوراً إن كان يرغب في رؤيته حياً مرة أخرى حيث أنه أصيب بالمرض وبحمى شديدة، و لم يعد يعتقد أو يأمل في أن يعيش ويتجاوزها حيًّاً. وقد صُدمنا بهذه الأخبار المحبطة التي لم نكن نتوقعها وقد ذرف الأب بنديتو دمعاً غزيراً و لم يستطع التوقف عن البكاء. وبالرغم من أن هذه الأنباء أثرت في قلبي مثله، تجلدت وتصرفت كأنني لم أتأثر تماماً. وقد واجهته بكل ما أملك من قوة، ووعدته بالرجوع معه إلى سنار إذا كان يرغب في ذلك، وأن أقوم بالعناية اللازمة به وبالأب باسكويل، حتى وإن كلفني ذلك حياتي. وقد شكرني على ذلك. ولكنه قال بأننا سوف لن نعرف ماذا فعل الأب أنطونيو والمبشرون الآخرون في الرحلة، وأن الكل يعلم مدى رغبتي للذهاب إلى روما برفقة الأب جوزيف. وبهذا فقد اقتنعت مطمئناً. وعندها قال الأب بنديتو الكلمات التالية «أنه يبدو أن الله برحمته الواسعة لم يرد أن يرفع عنّا الابتلاء نحن المبشرين المساكين، في هذه الأراضي البربرية بأي قدر من المواساة والعزاء «وهذا قد يستخلصه المرء من الكثير في كل ما كتبته» ولكن لا بد لأفكارنا أن تحلق عالياً ويجب أن نؤمن بدون أي شك بأننا سنلقى جزاءنا على المحن والابتلاءات والمصاعب التي تحملناها، في الدار الآخرة. وبهذا فقد عزينا أنفسنا، واستمررنا في الحديث حتى

وقت متأخر من الليل. وقد أعطيت جمل الأب أنطونيو وملابسه للأب بنديتو، ولكنني احتفظت معي بالخطاب الموجه لقداستكم البابوية الذي أعطاه الأمبراطور الأثيوبي للراحل الأب أنطونيو. وهذا بموجب التعليمات التي كلفني بها قبل موته، وذلك بأنه إذا قُدِّر لي الوصول إلى روما بأن أسلمه وأضعه بنفسي في يد قداستكم البابوية.

في التاسع من يوليو ١٧٠٢م، وبعد الكثير من عبارات الوداع غادر الأب بنديتو والمرسال عند طلوع النهار. وما مر يومان وبينما كنت نائماً في منتصف الليل، تسلق الحائط إلى داخل مكان إقامتي ستة من الأعراب حاملين سيوفهم وحرابهم وكانوا يريدون قتلي وأخذ كل ما كان معي ولكن لأن الكلبين المراقبين قد نبحا بشدة، استيقظت من النوم. وعندما رأيت ثلاثة من العرب كانوا في الساحة (الحوش) وثلاثة آخرين فوق الحائط، أصابني غير قليل من الخوف، ولكنني تلبست بقلب بطل ألماني، وقفزت من على الأرض. وقد كنت راقداً بالقرب من الباب تحت السماء المكشوفة، والذي تعودت عليه في كل رحلاتي في أفريقية وأخذت مسدّسيَّ الاثنين من داخل الغرفة، ووقفت بشجاعة أكثر مما كنت أحس بها. وأمرتهم بأن يخرجوا في الحال، وإذا لم يفعلوا فإن أكثرهم سيقتل. وعندما رأوا سلاحي الناري وقد وضعت الزناد وسيفي على السرير، أصابهم غير قليل من القلق، ولكن عندما رأيت أنهم مازالوا يريدون مهاجمتي، أطلقت واحداً من مسدسيّ وأرسلت رصاصة تصفر وسطهم. وعندها أصابهم الذعر وجعلهم يتخلون عن المحاولة وقفزوا راجعين فوق الحائط. وهذا أعطاني الوقت الكافي لإعادة حشو المسدس مرة أخرى. ولكن فقط برصاصة زائفة. وقمت بإطلاق المسدس الآخر الذي كان محشواً بالرصاص الحي فوق رؤوسهم حتى أحدث فيهم مزيداً من الرعب. وعند هذا هربوا بعيداً، ولكنني

أطلقت خلفهم المسدس المحشو، على كل حال. ويبدو أنني قد أصبت واحداً منهم، محذراً لهم للأبد من نواياهم الشريرة القاتلة.

في الثاني عشر من يوليو ١٧٠٢م، كان الكُلَ وخاصة الفقيه محمود يسألوني عن معنى إطلاق الرصاص في بيتي في الليل، وقد أخبرتهم بكل ما جرى من أحداث من البداية للنهاية، وقد علَّقوا بأن عليَّ شكر الله على نجاتي من هذه الحادثة القاتلة الواضحة، وأنني لو لم أطلق النار، فإنني بدون شك كنت قد قُتلت. وأنني يجب أن لا أطمئن لأنهم قد يجرؤون على معاودة الكرة مرة أخرى. وقد أمدَّني الفقيه محمود باثنين من العبيد الأقوياء المسلحين بالسيوف لحراستي بالنهار والبقاء والنوم بجانبي في الليل.

في الرابع عشر من يوليو ١٧٠٢م، عاود العرب المحاولة مرة أخرى في منتصف الليل. وقد فضح مجيئهم، نباح الكلاب، وبعدها طردناهم وبأيدينا السلاح وبإطلاق المسدسات والبندقية. وليس هناك من شيء يخافه العرب مثل إطلاق النار، لأنهم يعتقدون أن الرصاصة الواحدة في إمكانها أن تقتل العديد من الرجال.

في الخامس عشر من يوليو ١٧٠٢م، نصحني التجار أن أنقل ممتلكاتي إلى مكان مؤمَّن. وأن أنام في منزل آخر، لأن العرب لن يَرعووا حتى يقتلونني. وقام أحد (الُترك) (المسلمين) المولود في مكة – والذي كنت قد عالجته من الحمى أثناء إقامتي هنا– بعرض منزله الخاص لهذا الغرض. وقد قبلت ذلك مع الشكر، وبذلك وضعت نفسي بعيداً عن كل خطر.

في التاسع عشر من يوليو ١٧٠٢م وصل إلى هنا إبن المَانْجِل واسمه الشيخ إدريس. وقد قمت بزيارته والاستفسار عن أحوال الأب باسكويل وقد أجابني «إن شاء الله طيب». ومن إجابته استنتجت بأنه إما أن يكون قد

توفي أو مريضاً مرضاً خطيراً وكان هذا بالفعل ما حدث. وقد علمت مؤخراً بأن الأب باسكويل قد بدَّل هذا العالم الفاني بالحياة الأبدية في الرابع والعشرين من هذا الشهر، فلترقد روحه في سلام قدسي. وكيف كان حال وشعور الأب الطيب بنديتو؟ أنني سأترك لكل واحد أن يقدر ويتخيَّل ذلك في ذهنه. وأراد ابن الشيخ بحماس أن يأخذني معه إلى قرِّي، حيث أرسله الملك، وأن يوفِّر عليَّ كل نفقاتي. فقد كان محباً جداً لي، ولأنني وبعون الله قد عالجته وخلّصته من مرض مميت. ولأسباب معينة شكرته كثيراً على عرضه الكريم، بالرغم من عدم استجابتي له.

في العشرين من يوليو ١٧٠٢م، أخبرني الجلابة هنا، وكان عددهم ثمانية ، بأنهم ينوون التحرُّك في الصباح الباكر من بعد الغد للحاق بالقافلة. وإذا كنت أرغب في مرافقتهم عليَّ إعداد نفسي للرحلة. وبالفعل قمت بذلك.

في الرابع والعشرين من يوليو ١٧٠٢م عبرنا النهر وخيّمنا تلك الليلة في (مُقاشا). وكان لدى كل واحد من التجار نحو عشرين جملاً، وليس أقل من ذلك من العبيد والإماء لبيعهم في مصر. والبضاعة التي كانوا يحملونها تتكون من العاج (سن الفيل)، تمر الهند، والصمغ العربي والأبنوس والجلود والتبغ والذهب وكل منها يمكن بيعه في مصر بربح كبير.

في السابع والعشرين من يوليو ١٧٠٢م، كنا في البشاقرة.

في الثامن والعشرين من يوليو ١٧٠٢م، وصلنا إلى الحلفاية، وقبل مغيب الشمس، وبعد أن نصبنا معسكرنا، ثارت ريح قوية أثارت الرمال والغبار في الهواء فوق رؤوسنا بكثافة جعلت النهار ليلاً، وكان الظلام كثيفاً لدرجة أننا كنا لا نرى الشخص الذي بجانبنا ، وجرى كل واحد منّا ليمسك الجمال ويحجزها من الشرود والتشتت. وأمسكت بجملي ووقفت وسط

الآخرين. وكنت في خطر ماحق، لأنه في مثل هذه الظروف تزعزع جملي ورفض أن يثبت في محل واحد، ويريد أن ينطلق بعيداً، و لم أتمكن من رؤية الجمل الذي يقف بجانبي بسبب الرمال والغبار الذي تكوّم وغطى وجهي وعيني. و أعقبت هذه الرياح القوية أمطار غزيرة، ولم تترك خرقة غير مبللة على أجسامنا وأغرقت كل شيء لم نتمكن من حمله إلى الخيام. وفي التاسع والعشرين من يوليو ١٧٠٢م، سرنا حتى سوبايشين(Subaichen) ووصلنا في الأول من أغسطس ١٧٠٢م إلى قرّي. وقد التقينا بأثنين من الجلابة أخبرانا بأن القافلة ما زالت تنتظر في تريرا، ولكنها تستعد في أي يوم للدخول في صحراء بيوضة من هناك. وليس لدينا وقت نضيّعه إذا أردنا اللحاق بها والانضمام إليها لعبور الصحراء.

وفي الثاني من أغسطس ١٧٠٢م بقينا هنا لتقوية جمالنا وأنفسنا لمجابهة وتحمُّل حرارة الشمس القاسية وعبور الصحراء بصورة أفضل.

في الثالث من أغسطس ١٧٠٢م عبرنا النهر في معية جمالنا وبما أننا خشينا أن تتحرك القافلة قبل وصولنا، انطلقنا اليوم عند الظهر مع جمالنا واثنين من البرابرة، وأحدهما كان خادمنا عندما جئنا إلى سنار. وقد أسرعنا بالسير المتواصل الذي مكننا في ظرف ثماني ساعات بالإقتراب من تريرا، بالرغم من أنه طريق يبلغ في طوله خمسة عشر ميلاً ألمانياً. وبعد غروب الشمس كانت الحركة العنيفة للسير قد أصابتني بألم في البطن ورضوض في جسمي مما اضطرني للنزول عن ظهر الهجين أتلوّى على الأرض مثل الدودة و لم يحدث لي في حياتي أن عانيت من مثل هذا الألم المُريع. وقد بدا لي أنه من المستحيل علي أن أخطو خطوة أخرى.

وبعد نصف ساعة، بينما كنت أرقد منهكاً فوق الأرض أخبرني البرابرة

الأثنان بأننا قريبون جداً من القافلة وأنهم يريدون السفر بتمهل وببطء شديد، وعند ذلك ركبت على هجيني وفي الحقيقة فإننا وصلنا إلى القافلة وانضممنا إلى مبشرينا في ظرف ساعتين. وقد أبدوا فرحاً عظيماً عند وصولي ولكنهم تأسفوا لرؤيتي في هذه الحالة المُزرية. وفي الحال أحضرت زيت الخشب الدافيء من صندوقي ودعكت الجزء الأسفل من جسمي حتى أصبح دافئاً وعندها شعرت بتحسن كبير. وبعد منتصف الليل بدأت آلام البطن والرضوض في العودة من جديد مع إسهال شديد، استمر لمدة يومين وليلتين كاملتين. و لم أكن أخرج شيئاً غير الدم الصافي مع (البراز) ومن ذلك استنتجت بأنني قد حدث لي احتقان في الجانب الأيمن بين رئتي والكبد، والذي انفجر نتيجة للحركة العنيفة في المسير. و لم يكن هذا بدون أساس لأنني منذ أن عانيت من المرض الشديد الذي تجاوزته في قرِّي فقد أصبحت أعاني من انقطاع النفس في الجانب الأيمن، وأعاني من العطش المستمر. وكل هذا انتهى بحمد الله، وتركني في حالة صحية طيبة شعرت معها وكأنني ولدت من جديد. وعندما أخبرت مبشرينا بما وقع لي، وللأب أنطونيو والأب بنديتو والأب باسكويل أبدوا لي تعاطفاً قلبياً مع كثير من الدموع المنسابة. ولكن فإن الله القادر قد قدرها كلها. وفي اليومين التاليين من مرضي زارني أنبل رجال القافلة وأبدوا لي تعاطفهم العميق. وضمن الآخرين زارني الطبوتشي، وهو مصري نبيل مسلم، وكنت من حسن الحظ قد عالجته من حمى شديدة في سنار. وهو يقيم في مسكن خاص هنا، دفع مقابله، حتى يتجنب التعرض لحرارة الشمس الحارقة التي لا تُطاق. ولأنني قدمت له علاجاً ناجعاً جداً في سنار، ورفضت أن آخذ المال الذي عرضه عليَّ مقابل ذلك، دعاني بمجاملة وبلطف شديد أن أنضم إليه في بيته ومائدته. وقد سُرَّ رئيسي ووافق على ذلك، لأنني سأجد رعاية أفضل هناك.

وقد بقيت معه إلى أن تحركت القافلة. واعتقد أنه في كل العا لم لا توجد أمة، أكثر تقديراً ووفاءً وحفظاً للجميل للأعمال الطيبة، أكثر من التُرك المسلمين.

في السادس من أغسطس ١٧٠٢م دعا عابدين، خبير وقائد القافلة ،بضرب النحاس المعتاد، كل الجلابة ليتجمعوا قبل مغيب الشمس وبعد الصلاة جلسوا على الأرض متربعين في شكل دائرة، وألقى عليهم خطبة حوت الأربعة نقاط التالية. أولاً إنه في الغد ينوي إن شاء الله أن يدخلوا في الصحراء، (صحراء بيوضة) الخطيرة جداً، والتي تعج بالعرب والرعايا المتمردين. والمسلمين يستعملون هذا التعبير(إن شاء الله) لِما ينوون فعله في المستقبل، ولأن العدو في غاية القوة، يجب على كل فرد أن يقاتل ويدافع عن نفسه بالسلاح بضراوة. وإذا كانت هنالك معركة، عليهم القتال والدفاع عن أنفسهم كالفرسان إلى آخر رجل.

وعلى هذا ألزموا أنفسهم وتعاهدوا بقسمهم المعتاد (والله..)، وعَقِبْ ذلك أمر القافلة التي تتكون من أكثر من ألفين وخمسمائة جمل في مجملها ويمكنها أن تشكل مقاومة صلبة للعدو، أن عليهم أن لا يتفرقوا بعيداً عن بعضهم البعض، وعليهم أن يسيروا متحدين مع بعضهم كل الوقت. وأخيراً أضاف إذا كان واحد أو آخر من الجلابة غير مستعد تماماً للرحلة عليه أن يقول ذلك بوضوح، حتى يمكن للجميع مساعدته ولن يتم منعه من القيام بالرحلة. وفي مثل هذه الظروف لن يتخلى أحد عن رفقائه. وأمَّن كل واحد على هذا الحديث، و لم يبق شيء يُقال. فقاموا بالصلاة وعادوا إلى أماكن إقامتهم على ضرب النحاس. وأثناء إقامة الجلابة هنا، أرسل شيخ قرِّي الذي كان يقيم قريباً من هذا المكان، أرسل عدة مرات مرسالاً إلى القافلة يأمر بأن أذهب إليه، قائلاً بأنه يريد إعطائي هدية تناسبه مقابل خدماتي المخلصة له

أثناء مرضه. وحمدت الله بأنني لم أكن مع القافلة، الأمر الذي أعفاني من قول أي شيء يستفزه – ويجعله يعرقل مغادرتي إلى أن تغادر القافلة وتدخل الصحراء. وفي تلك الحالة سوف أبقى معه كعبد، بدون أمل بأن أكون مفيداً للبعثة التبشيرية والله وحده يعلم إلى أي مدى من الزمن سيطول ذلك.

في السابع من أغسطس ١٧٠٢م، تحركنا عند طلوع النهار ودخلنا الصحراء الخطيرة جداً.

وفي العاشر من أغسطس ١٧٠٢م، وصلنا بالسلامة إلى بيوضة وهي المكان الذي يوجد فيه الماء. ولا يمكن وصف والتعبير عن مدى قسوة الحرارة التي تحملناها في هذه الرحلة، حيث أننا كنا في الصحراء في شهر أغسطس حيث كانت الشمس في قمتها. وكانت الحرارة تحرق كل شيء، وليست هناك من نسمة ولو صغيرة تهب علينا. وكان كل شيء في حالة ذوبان. وفي كل الشهر الذي قضيناه في الرحلة لم يمرض أو يموت أحد من هذا العدد الكبير من السودانيين الأفارقة أو الجمال بالمقارنة بما حدث خلال الأيام الأربعة الأخيرة وخاصة العبيد المساكين، والذين كان عليهم السير على أقدامهم. وكان العديد منهم قد مات في الصحراء نتيجة لهذه الرحلة الطويلة والشاقة التي أنهكت صحتهم. والسودانيون (الأفارقة) في هذه البلاد لا يعاملون عبيدهم كبشر، ولكن بطريقة أسوأ من الدواب الأعجمية. وقد رأيت العديد منهم رأي العين، وبالكثير من العطف؛ مقيّدين ومقرنين ببعضهم بسلاسل ثقيلة، كالكلاب وفوق ذلك يجب عليهم السير خلف الجمال التي كانوا موثوقين إليها في كل الرحلة، وآخرين كانوا مثبتين على أعمدة خشبية تتدلى من الرقبة طولها نحو عشرة أقدام وغليظة مثل ذراع اليد. وهذه مثبتة من الخلف بشرائح من جلد الجمال حتى لا يتمكنوا من إخراج رؤوسهم

منها. واليدين مثبتة بقيد من الحديد إلى العمود وفوق ذلك موثوقة بسلسلة إلى جمل. وعلى هؤلاء البائسين المساكين أن يتبعوا الجمال فوق الجبال والسهول، وفوق الشجيرات والأجمات، والنباتات الشوكية والأغصان والأشواك، وإذا كان الجمل يسير ببطء أو يسير مسرعاً، يقف أو يجري. وهم حفاة ورؤوسهم مكشوفة ولا يلبسون شيئاً غير خرق تغطي لحدٍ ما عوراتهم - وكل هذا تحت الشمس اللاهبة والتعرض للموت بسبب الجَوع والعطش في الوقت نفسه. وفي الليل وبدون رحمة يتم قفلهم بإحكام أكثر من النهار، وإذا مرض العبد أثناء الطريق فإنهم يقذفونه أو يقذفونها فوق سرج الجمل مثل ما يفعل الجزارون مع عجول الذبيح عندما يحملونها على السروج، وإذا وصلوا مرحلة من الإعياء يتركونهم في الصحراء نصف أموات.

في التاسع من أغسطس ١٧٠٢م قمت بتعميد أحد هؤلاء (العبيد)، وهي طفلة في الخامسة من عمرها توفيت بعد ذلك بقليل. وعلى المرء أن يعرف أن كل الأطفال الذين قمت بتعميدهم ولدوا مسلمين وليسوا من الأحباش.

وكانت صحراء بيوضة عند دخولنا في المرة الأولى في رحلتنا السابقة، قد بدت لنا جميلة وحسنة المنظر، فعندها، ولأن دخولنا لها كان عقب موسم الأمطار والأرض ما زالت رطبة، كان كل شيء مزدهراً ومغطى بأجمل الورود والأزاهير العطرة والخضرة المنعشة أما الآن وبسبب الحرارة الطاغية التي أيبست كل شيء، فقد رأيناها جرداء يلفها الموات.

في الحادي عشر من أغسطس ١٧٠٢م، تركنا الجمال والجياد والبغال والحمير لتشرب حتى كفايتها، بعد أن حفرنا لإخراج الماء العكر المنتن. وعلى حسب الحرارة البالغة في هذا الشهر فإن على الدواب تَحَمُّل العطش

أكثر مما تتحمله في فصل الشتاء، حين تسقى مرة كل ثمانية أو عشرة أيام وحتى أكثر من ذلك. وقد كنا مشغولين طوال اليوم في الحفر من أجل الماء. وقال عديدون إنَّ خط الاستواء يبدأ في هذه الصحارى، بينما يقول آخرون أنه أقرب إلى سنار، وأنا أتفق مع الرأي الأخير.

في الثاني عشر من أغسطس ١٧٠٢م، تحركنا في الساعة الثامنة بعد أن أنعشنا الحيوانات مرة أخرى بالماء.

في الخامس عشر من أغسطس ١٧٠٢م، وصلنا إلى كورتِي. وفي هذه الأربعة أيام الأخيرة تركنا خلفنا عدداً من الرجال والحيوانات الأموات ضعف أولئك الذين فقدناهم قبل دخول الصحراء من تريرا. و في تقديري أن هذه المياه، التي وصفت خصائصها من قبل عندما عبرنا الصحراء في المرة الأولى، هي التي أهلكتنا وضعضعتنا للدرجة التي أصبحنا نشعر فيها بأننا أموات أكثر منّا أحياء. وفي كورتي لم نمكث أكثر من يوم، وبعدها استأنفنا سيرنا تحت حرارة الشمس التي لا تطاق. و لم نكن نجرؤ على السير ليلاً خوفاً من وقوعنا في قبضة أعدائنا.

و لم نصل إلى دنقلا إلا في الرابع والعشرين من أغسطس ١٧٠٢م، إذ لم يكن من الممكن، وبسبب الحرارة البالغة، أن نسير مسافة طويلة كما كنا نفعل في رحلتنا في المرة الأولى.

في السادس والعشرين من أغسطس ١٧٠٢م، قمت بعبور النهر إلى المدينة والتي كانت تقع في الجانب الآخر، بمعية تجار الملك والمسلم المصري الطباتشي. وذهبت لتحية الملك والذي كنت قد تعرفت عليه جيداً في قرِّي، وقد كان هناك عندما كنت أعالج الشيخ. وأيضاً أخذت معي الخطاب الذي أعطانا له ملك سنار ليطلع عليه، وكان الطُباتشِي وتجار الملك يحملون

وثائق مماثلة. وقد أظهر لنا الكثير من الترحيب ووعد بالوقوف إلى جانبنا في كل ما نحتاج إليه. وهذا ما فعله، حيث أنه أرسل لنا من العلف ما يكفي دوابنا وأرسل لنا كبشاً طيباً سميناً. وفي ذلك اليوم لم يشأ أن يتركنا نذهب حتى نتناول معه وجبة الغداء. وكانت الوليمة تتكون من قدح خشبي كبير يحوي -الكسرة- وهي خبزهم وكانت مغمورة بالمرق (الثخينة) وفوقها كمية كبيرة من اللحم. وعليها وضعت أيضاً دائرة من الدجاج المحمر، وهي ليست بحجم الدجاج في بلادنا. وقد جلسنا كلنا متربعين في شكل دائرة وتناولنا هذه الوليمة بأصابع أيدينا بدون شوك أو سكاكين. وبعد هذا جيء لنا بقدح يحوي المرارة المكوَّنة من شرائح من المطايب النيِّئة، من الرئة، الكبد، القلب، الطوحال والكرشة. وقد تم تبهيرها بالملح والفلفل والبصل والأتِّي (الصفراء) وهذه تعتبر من أطايب الطعام عندهم وبعدها قُدِّم لنا قدحٌ مليئٌ بالتمر وقد أكلت حتى امتلأت واكتفيت، وقد تضمنت هذه الوليمة الملكية شراباً من الماء المحلّى بالعسل. وفي المساء أولمنا وليمة ملكية أيضاً ولكن هذه المرة لوحدنا. (أوه يا ألمانيا الحبيبة، كم أنت محظوظة، ولكنك قليلاً ما تدركين ذلك).

في السابع والعشرين من أغسطس ١٧٠٢م ركبت من هنا قاصداً واحداً من الإنكشارية التابعين للطوباتشي، والذي كان قد خدم الجزويت الاثنين المباركين المتوفيين واللذين سافرا معنا من القاهرة إلى أثيوبيا واسمه عبد الله. وقد ذهبت لزيارته لتدبير أمر نقل صندوق أدويتي إلى القاهرة مقابل مبلغ معيّن، ولأن عبد الله هذا لم يكن في بيته كان عليَّ أن أقضي الليلة هناك، وقد جاء بعد المغيب. وفي تلك الليلة تعرضت إلى هجمة ضارية من المسلمين (السودانيين) والعرب هنا، وكانوا يريدون قتلي بحسباني عدواً لشريعتهم (الزائفة)، وقام الإنكشاري عبد الله وأصدقاؤه بالوقوف إلى

جانبي بحسم مما جعل الفريقين على وشك الدخول في معركة دامية لولا أن هدأ المهاجمون.

وفي تلك الليلة فاض نهر النيل فيضاناً عظيماً للدرجة التي غطى فيها كل هذه الأرض. ولذلك بدأنا الاستعداد للسفر في وقت مبكر جداً، حتى لا تحجزنا المياه. وقادنا عبد الله عبر طريق يصلح لتفادي المياه، ولكن كان علينا الخوض بصعوبة ونحن نقود جمالنا من أزمتها وقد علّقنا عليها ملابسنا الخارجية. ولكن ليس بعيداً من دنقلا والتي هي أكثر انخفاضاً، أحاطت بنا المياه وسدَّت علينا الطريق. ولما كنّا في منطقة غير مأهولة وكانت أمامنا حفرة عميقة لم نكن ندري ما نفعل أو أين نجد المساعدة.. وكان علينا أن نصل إلى قرار سريع وخطير. وقد تعرينا من قمصاننا وملابس النوم، واندفعنا قدماً باسم الله (الرب). وتركت الشركسي يسير أمامي على اليمين بينما خضت أنا يساراً. و لم نتقدم أكثر من خمسة عشر خطوة حتى غطتنا المياه إلى وسطنا، والأرض التي كانت متشققة من حرارة الشمس، أصبحت مبتلة الآن تماماً بواسطة الفيضان الكبير وكانت تغوص تحت أقدامنا. وكان يمكننا احتمال هذا بصبر، إذا استطعنا أن نجعل الجمال تسير خلفنا. ولكن بمجرد أن وصلت المياه إلى مستوى بطونها لم تتمكن من تثبيت أقدامها و لم تستطع تخليص أقدامها من الطين اللزج، وهذا جعل جملي ينزلق في منتصف الحفرة، ويسقط في الماء بكل ما كان عليه من أحمال. و لم يكن يهمني ذلك إذا تمكنت من بعث بعض الحياة في جملي: وحاولت كل الوسائل الممكنة لمساعدته في الوقوف على رجليه مجدداً وقد أخذ منا ذلك وقتاً طويلاً ولكن كل ذلك لم ينجح. وفي هذه الأثناء كان الانكشاري قد عبر الحفرة، وبعد أن عَقَل جمله، رجع إلى الحفرة لمساعدتي. وقد اجتهدنا لمدة ربع ساعة لمساعدة الجمل في الخروج، مرة بالحث وأخرى بالضرب

ولكن كل ذلك كان بلا جدوى. وعندها لجأت بعزيمة أكثر من السابق إلى قدرة فعل المعجزات للقديس أنتوني. ومن خلال تدخله الخاص المصحوب دائماً بوافر التطمين تم تحريرنا من هذا الحظ العاثر ولعجبنا وصلنا إلى القافلة بعد الظهر.

في الثامن والعشرين من أغسطس ١٧٠٢م، توجهنا إلى مشّو عبر الصحراء لنتجنب إعاقة المياه. وقد جعلنا طريقنا إلى اليسار، فوق أماكن عالية وخالية من السكان، خوفاً من أن نغوص أو نضطر للخوض في المياه. وكان سيراً تعساً بسبب الحرارة القائظة والطريق المليء بالأحجار والرمال الذي أضعف الجمال. وأتعبها، ولكننا اندفعنا قدماً في رحلتنا اليومية، بالرغم من أننا لم نكن قادرين على أن نجعلها لمسافة طويلة. وفي كل هذا الوقت كنا نظن أننا سوف ننهار بسبب عدم تناولنا الطعام الضروري.

في التاسع من سبتمبر ١٧٠٢م وبينما كنا متجهين نحو الخندق، وكان علينا أن نعبر فوق دروب قاسية وَعِرة وعندما كنا نعتلي جبلاً صخرياً وقع جملي وأنا عليه. وكان ذلك في نحو الثانية بعد الظهر وقد تم حَدفي بعيداً على الصخور في الخلف، وظن الجميع بأنني قد سحقت وحطمت رأسي عليها. وقد كاد هذا أن يحدث لولا أنني كنت أرتدي عمامتي التركية. وبالرغم من ذلك فقد تلقيت كدمة في رأسي. وفي البداية كنت تحت تأثير الصدمة والألم وبعد أن تمالكت نفسي قليلاً ونهضت بأطرافي المتعبة أدركت عندها أنني لم أصب فقط بكدمة على رأسي، ولكن يدي اليمنى كُسِرت تماماً، وأن العظم قد اخترق اللحم والثياب التركية التي ألبسها. وعندها سقطت فاقداً الوعي وجاء لمعاونتي الأب جوزيف والأب كارلو مسرعين حيث أنهما لم يكونا بعيدين مني. وقد «دعكاني» ومسحاني بالبلسم والماء، وعندها استعدت

الوعي. وبعد ذلك جلست على الأرض متربعاً وطلبت من أحد البرابرة أن يشد ذراعي بقوة حتى ظننت أن العظم المكسور قد عاد إلى موضعه. و لم يستطع الأب كارلو والأب جوزيف فعل ذلك نسبة لعطفهم، ولكنهما قاما بتسوية قطع صغيرة من العصي الخشبية وعندها بقدر ما استطعت أرجعت العظم المكسور إلى مكانه بيدي اليسرى وربطت ذراعي المكشوف، برباط ووضعت عليها قطع الخشب ولففتها وربطت حول الذراع عمامتي التركية التي خلعتها من على رأسي. ونسبة لعدم وجود وقت، ولأننا كنا في مكان غريب فإنني لم أستخدم جبساً أو ضمادة أو أن أفتح شرياناً. وفوضت أمري لله العظيم واستعددت لمواصلة السفر وركبت على حمار قاده أحد البرابرة.
وقد أمسكت يدي المكسورة ورفعتها بيدي اليسرى بقدر ما أستطيع، ولكن بسبب الألم العظيم وفقدان الوعي لم يكن في إمكاني أن أظل راكباً أكثر من نصف ساعة. بعدها نزلت من الحمار ومشيت على قدمي ولكن ذلك أنهكني لدرجة أنني قررت أن أركب جملي مجدداً، وقد جعله البرابرة يَبْرُك ثم عقلوا أرجله الأمامية حتى ينهض حين يقررون ذلك، ثم أركبوني عليه.
وعندما شعرت بأنني أصبحت مطمئناً على السرج طلبت منهم فك عُقال الجمل وتركه لينهض، وهذا ما فعلوه - و سار هذا الحيوان غير العاقل، بي بتؤدة ولين منذ تلك اللحظة وبعدها حتى ليظن المرء أنه تملّك الحس والعقل في حمل صاحبه الجريح والمنهك لحد الهلاك. وبعدها سرنا لمدة ساعتين إلى الخندق، وعلى كل واحد أن يتخيّل بنفسه نوع الألم، والضعف وفقدان الوعي الذي تحملته بشجاعة لم تتزعزع كل هذا الوقت وعندما نزلنا لنعسكر، أُحضِر لي من المدينة بعض البيض الطازج. وتم فتح صندوق الأب جوزيف وأخذت منه بعض المواد الطبية المختلفة وخلطتها كلها ببياض البيض المخفوق جيداً، وغمرتها ببعض الكحول بغرض وضعها كلها فوق

ذراعي المكسور والمتألم للغاية. وربطتها مرة أخرى في مكانها الصحيح مستعملاً قطعاً من العصي الخشبية الصغيرة التي قام الأب جوزيف بنظمها مع بعضها مستعملاً سيوراً من الجلد، على مسافات بعرض الأصبع من فوقها وتحتها. وبعد ساعات قليلة تورمت كل ذراعي ويدي، الأمر الذي سبب لي ألماً لا يمكن وصفه، وجعلني عاجزاً عن أغماض عيني طوال الليل. و لم يكن في استطاعتي أن أحرك يدي أو أثنيها، ناهيك عن أرفع نفسي للنهوض من على الأرض.

في العاشر من سبتمبر ١٧٠٢م، أخذت القافلة يوماً من الراحة، ولكني لجأت إلى ضميري وأعددت نفسي للموت، من خلال الاعتراف، بكل ما استطعت.

في الحادي عشر من سبتمبر ١٧٠٢م، قطعنا مسافة عشر ساعات سرتها مرة على الحمار ومرة على الجمل وأخرى راجلاً - وكلها بشعور من الألم الفظيع الذي لا يُطاق.

في الثاني عشر من سبتمبر ١٧٠٢م، سرنا في رحلة يومية لمدة ثماني ساعات، وتزايد عليَّ الضعف والإنهاك والورم والألم ساعة بعد ساعة و لم يكن لدي أمل في أن لا تصبح ذراعي ومعها جسدي تحت تراب هذه الصحاري.

في الثالث عشر من سبتمبر ١٧٠٢م، تابعنا سيرنا طوال اليوم.

في الرابع عشر من سبتمبر ١٧٠٢م، قضينا يوماً من الراحة ونزعت الجبس الأول من ذراعي المكسور ووضعت آخر جديداً، وبما أن العظم تحرك بسبب الحركة المستمرة بغير توقف، قمت بإرجاعه مجدداً إلى مكانه الصحيح بمساعدة من الأب جوزيف والأب أنطونيو. وأحدث هذا ألماً

عظيماً وفقداناً للوعي تماماً، كما في المرة الأولى، وبعدها وضعت الجبس ونسجت شبكة من الصوف وعصبتها بها. وكنت قبل مغادرتي للقاهرة ابتعت أرطالاً قليلة من (المومیا) والتي تحفظ اللحم الإنساني من العطب، وقد غمستها في الزيت، وأخذت العصارة وضغطتها بواسطة قطعة من قماش، ثم مزجتها بمعجون صمغي ولبان البخور. وقد جعلت من هذا (لبخة) لزقة لاستخدامها في هذه الحالة من العظم المكسور التي لم نكن نتمناها. وفي خلال ثمانية أيام برأ الجرح ،الذي أحدثه خروج العظم، تماماً بواسطة هذه الوصفة وهذه اللزقة وبدون أي تقيُّح أو التهاب.

وفي الخامس عشر من سبتمبر ١٧٠٢م، مرة أخرى سرنا مسافة معتبرة، ويعلم الله (مدى الألم الذي عانيته)، ولكنني تحملته بصبر واستسلام خضوعاً لمشيئة الله. ولا يمكن لأحد أن يتخيل أو يتصور مدى الألم ماعدا أولئك الذين مروا بتجربة مماثلة من الأطراف المكسورة، أو عالج مثلها بمقتضى مهنته. فالأمر بينه وبيني وحدنا، مع اختلاف إنه قد يكون المرء قدوجد كل ما يمكن تخيله من تشجيع يقوي قلبه ومُدت له يد المساعدة ولكنني (أنا) كان عليَّ تحمُّل كل هذا الوهن والعجز، المعيق في هذه البلاد البربرية الحارة، وبدون الطعام الضروري، وبنوم متقطع، ومنطرحاً في الليل على الأرض الصلدة، وراكباً طوال الليل في ألم عظيم، ومع مصاعب أخرى لا يمكن تخيلها. ولكن بالرغم من كل ذلك فإن شجاعتي وأملي في الله لم يتزعزعا ولو قليلاً.

في العشرين من سبتمبر ١٧٠٢م وصلنا إلى مَشّو آخر مكان في المملكة النوبية. وكانت البلدة لطيفة سارة ولكنها كانت متهالكة ومضعضعة. وكانت القافلة قد فقدت ثلث جمالها على الأقل، وقد مات منها في

هذه الرحلة أكثر مما حدث لها في كل الرحلة التي قضيناها مسافرين من مصر إلى سنار. وكان ذلك بسبب الحرارة البالغة وانعدام الأعلاف وغلاء أسعارها. وقد أُجبرنا على قضاء بضعة أسابيع هنا من أجل الحصول على المواد التموينية الضرورية قبل أن ندخل في الصحراء الواسعة الممتدة، و أيضاً ل ترتاح جمالنا، التي قد أنهكت تماماً وليست في حال تسمح لها بالاستمرار في هذه الرحلة الصعبة والشاقة. ولكن العناية الجيدة سوف تعيد إليها نشاطها وقوتها.

ومن الأولوية أيضاً أن نعوض تلك الجمال التي نفقت، وأخيراً فإننا نريد ان نستكشف عن ما إذا كان العرب ما زالوا يقيمون في الواح، أم أن كاشف منفلوط استطاع طردهم بعيداً من خلال جرهم لمعركة أو أنه توصل معهم إلى سلام.

في الثاني والعشرين من سبتمبر ١٧٠٢م، تعرض الأب كارلو ماريا أوف جنوا إلى نوبة من الحمى الخفيفة مثل التي عانيتها للمرة الأولى في قرِّي. وقد صحبها ظهور ورم في الأصبع الأول من اليد اليمنى. وفي خلال أيام قليلة ازداد الألم والورم والالتهاب للدرجة التي خشيت فيها من أنه سيفقد كامل يده.

وقد قمت بتغطيتها ببعض الأدوية التي مزجتها مع بعضها وخلطتها جيداً، ولكن في هذا الأثناء لم يكن بوسعي وضع يدي عليها بسبب ذراعي المكسور. ثم انفجرت الأصبع وخرج منها صديد أصفر كريه الرائحة، مثل حامض النتريك. وهذا أثار فيَّ انطباعاً غير حميد عن الأمل في سرعة شفائه. وقد ظهرت بعد ذلك العديد من البثور على يده وأصابعه. وبدا لي أن السرطان كان يسري فيه ويأكل من جسمه وأطرافه. وقد وضعت البلسم

على مواضع اللحم الحي وغير المتأثر للمحافظة عليه، ومسحت دواء آخر حتى لا يتألم المريض بصورة كبيرة. وهذا العلاج، بالرغم من أنه قد أنبت لحماً جديداً، لكنه زاد من تألم المريض، الأمر الذي جعلني أخشى من أنه سيفقد كل من يده وحياته. و لم أر شيئاً مثل هذا أبداً في البلاد المسيحية. ولكنه معروف ومنتشر في مملكتي النوبة والفونج. والسودانيون يطلقون على هذا المرض وصف (المَلْعون). وليس لديهم طريقة لعلاجه سوى كَي الأعصاب التي تغذي الجزء المصاب وهو ليس بعيداً من المكان الذي ظهر فيه المرض، وذلك بحديدة محماة حتى يخرج منها سائل أصفر. وإذا لم يُفعل ذلك فإن المرض يسري وينتقل من عضو إلى آخر. ولذلك فإن الكثيرين قد دفعوا حياتهم بسبب هذا المرض. وكان الأب باسكويل قبل ذهابه إلى أثيوبيا، وكذلك السودانيون أيضاً قد أخبروني بالطريقة التي يمكن بها احتواء هذا المرض في كل الحالات. ولهذا السبب كانت نصيحتي الأولى أن نجرب العلاج العربي بالكي بالنار. وفي البداية رفض المريض ذلك. ولكن في النهاية، وحيث أنه لا يمكن تفادي ذلك فقد استسلم للعلاج.

في الثالث والعشرين من سبتمبر ١٧٠٢م، استخدمت حديدة محماة وجعلتها قريبة من مفصل اليد، للعلاج الذي ذكرناه عاليه ومن المؤكد أنه سبب له ألماً لا يُطاق، لكنه كان ناجعاً للدرجة التي لم يفقد يده كلية. ولما لم يكن بوسعي الإشراف على هذا العلاج بنفسي، لأنني كنت أعاني من ألم لا يوصف ولا يُطاق في يدي ليلاً ونهاراً. ولذلك أمرت الأب أنطونيو أوف مالطا تحضير العلاج وتنفيذه. وقد فعل هذا بكل الحب والعناية، بعد إعلامي مسبقاً.

في الرابع والعشرين من سبتمبر ١٧٠٢م في مشّو قمت بتعميد طفل مسلم في حوالي السادسة من عمره، وقد مات في اليوم التالي.

في الخامس والعشرين من سبتمبر ١٧٠٢م، استعدت القافلة للمغادرة. وكان هنالك، على أية حال، مجموعتان. الأولى قررت أن لا تبارح المكان حتى تتأكد من أن العرب قد أخلوا الواح. وهي مكان في الصحراء وتحدثنا عنه من قبل، وأنهم قد توصلوا إلى سلام مع الأتراك. والقسم الآخر توكلوا على الله ورسوله، وقالوا أن كل شيء مقدر من الله وهو مكتوب، إن كان العرب سينتصرون ويفوزون أو ستتم هزيمتهم وقتلهم. وأغلب المسلمين يرجعون كل ما يحدث لهم من خير أو شر، وكل ما يمر بين السماء والأرض إلى الله ورسوله محمد. وأن الأمر كله مقدر منذ الأزل ومكتوب في اللوح المحفوظ. وهذا القِسْم قرر دخول أعالي الصحراء في أيام قليلة باسم الله ورسوله. والمجموعة الأولى حاولت أثناءهم بكل الوسائل الممكنة. ولكنهم أصروا بأنهم لن يسمعوا شيئاً حول بقائهم هنا ووصل الانفعال بين الفريقين إلى درجة من الحِدّة يمكن فيها أن ينفلت الأمر بسهولة وينتهي باستعمال دموي للسيوف. وكان تجار الملك، والطوباتشي، ونحن معهم نبذل جهدنا في محاولة منع ذلك من الحدوث. كان الناس في كل يوم يعقدون اجتماعاً عاماً ومشاورات بخصوص المغادرة القادمة. وكان الجو العام مشحوناً باستمرار بالانقسام الكبير وعدم التوحد. وكان معظم الجلابة في حالة بالغة من البؤس والحاجة بسبب فقدانهم لعدد كبير من جمالهم وشراء وإطعام جمال جديدة مما اضطرهم لبيع بضائعهم وعبيدهم وممتلكاتهم الأخرى بأبخس الأثمان. ووصل الحال ببعضهم أن قايضوا سيوفهم، السلاح الوحيد الذي يدافعون به عدوّهم من أجل الحصول على طعام لجمالهم. وأُجبِر البعض منهم عند فقد جمالهم على ترك بضائعهم هنا ليحفظها لهم البرابرة.

في الثالث من أكتوبر ١٧٠٢م مات أحد جمالنا، بالإضافة إلى ذلك فإن

أربعة من جمالنا الأخريات قد انهارت بسبب تحملها للإنهاك المستمر والحرارة البالغة. وقد بادلنا هذه الجمال الأربعة مع العرب مقابل جملين قويين، وفي مقابل وقيتين من الذهب اشترينا جملين آخرين أفضل وأقوى. و بدأ الاحتياج وانتشار المرض في القافلة يزداد يوماً بعد يوم. وكانت الكآبة والأفكار السوداء تظهر على كل الجلابة. وكان البرابرة الذين يعيشون في هذا المكان، يتكيّفون مع الوضع بصورة حسنة، فقد أصبح في إمكانهم شراء بضائع كما في سنار من القافلة المحتاجة والتي تعاني، وبأسعار مجزية جداً لهم.

اليوم صادفت حدثاً عجيباً. فقد أُحضِر إليَّ عبدٌ يبدو أنه في الثلاثين من عمره، وقال إنه لا يشعر بأنه بخير. وقد نظرت إلى عينيه وأنفه السائل، وقست نبضه واستنتجت بأنه لن يعيش لساعة أخرى. وعندما أخبرتهم بذلك ضحكوا مني وذهبوا. ولكن ضحكهم انقلب إلى بكاء وعويل. لأنه بعد حوالي نصف ساعة وبينما كان العبد ما زال يتكلم معهم، فجأة وقع على الأرض ولفظ أنفاسه بدون أن يبدي أي مؤشرات أخرى.

وفي هذه الأثناء كان أغلب أعضاء القافلة قد قرروا من جديد أن يدخلوا الصحراء بالرغم من أنهم لم يكونوا متأكدين ما إن كان العرب قد أخلوا الواح، وأنهم قد يقعون غنيمة سهلة في يد هؤلاء العرب، وفقد كل ما يملكون بما في ذلك حياتهم. وهذا القرار اتخذ بسبب الجوع الذي بدأ يتزايد من لحظة إلى أخرى وسط القافلة، وخاصة أولئك الذين لا يمكنهم الحصول على طعام. وقد نصحوا بأنه علينا الإسراع في المسير. وقد أحدث هذا القرار قدراً كبيراً من البلبلة والخوف وسط أولئك الذين كانوا ينصحون على طول الخط بعدم الدخول إلى الصحراء حتى تصلهم أخبار معينة بأن

العدو قد أخلاها. وقد اعتبروا أن الضعف الذي سيحدث بفقدان هذا الجزء الكبير من القافلة، لن يمكن من صد ومقاومة العدو. ولذلك قد تم استدعاء كل القافلة لاجتماع عام وقد أعلن تجار السلطان بأن أي من يتحرك من هنا قبل ضمان تأكيد أمان الطريق سوف يجعلهم يبدون كمتمردين على الملك. ولكن هؤلاء الأشخاص المضطربين والهائجين أصروا على عدم الخضوع والقيام بالشروع في الرحلة. وقد تمسكوا بالقول أن كل شيء مكتوب في اللوح المحفوظ إن كانوا سيموتون هنا أو في الصحراء وليس لإنسان خيار لتفادي المكتوب. وبما أنه لم تكن هناك وسيلة لإقناعهم بأن لا يحدثوا هذا الانقسام للقافلة، ظهر انشقاق كبير. وبدا واضحاً أن أي شيء قد يجعلهم يشهرون سيوفهم في وجه بعضهم البعض. وأنني سأترك لكل رجل مسيحي أن يقدر لنفسه كيف كنا نشعر في مثل هذه الحالة البائسة والصعبة والخطرة. وكنا على استعداد وبطيب خاطر أن ندفع ضِعف أو ثلاثة أضعاف الثمن للطعام ولكن لم يكن هناك ما يمكن أن نحصل عليه، وكان خيارنا أن نعتمد على نصيبنا من اللحم من الجمال التي تنفق، وكنا نقوم بتمليحه ونعرضه للشمس حتى يجف. وطالما كنا نحصل عليه فإننا كنا نستمتع به.

في السابع من أكتوبر ١٧٠٢م قررت القافلة إرسال اثنين من العرب أو البرابرة بتموين كافٍ وقدر معقول من النقود للذهاب عبر الصحراء على جمالهم وأن يتحسسوا الوضع، وأن يستكشفوا إن كان العرب قد أخلوا الواح أو كانوا في وضع يشكلون فيه تهديداً لمثل هذه القافلة الكبيرة، بالرغم من أنها قافلة منهكة وضعيفة. وبالرغم من أنهم أعلنوا هذا الرأي أو القرار على ضربات النحاس، لم يكن أي منهم يريد أن يحوّل هذا القرار إلى فعل. وعلى المرء أن يعلم أنه إذا وقع مثل هؤلاء الجواسيس في يد العرب، فإنه سيتم

سلخهم أحياء. وهذا جعل القافلة تعود إلى موقف متجمد، وأدى من جديد إلى إنشقاقات واختلافات كبيرة بين المجموعتين.

ومن الممكن للمرء أن يقول بصدق أنه لا يمكن أن يواجه بسهولة حياة أكثر بؤساً من تلك التي تحملناها هنا. وكان الرجال والدواب في غاية الهزال والتعب بسبب الجوع ومرهقين للدرجة التي بدوا فيها أقرب للأموات من الأحياء. وكان هناك العديد من الجلابة بيننا من كان يقود عشرين جملاً أو أكثر من سنار، ولكن ما بقي له منها الآن ليس أكثر من ثلثها أو ربعها. وبعض الجمال قد نفق والآخر لم يعد صالحاً للخدمة بسبب انعدام العلف ولَحملها ضِعف حمولتها المعتادة. ويمكن تبديل اثنين أو ثلاثة أو أربعة مع العرب مقابَل جمل واحد قوي. ومن ضمن آخرين كان هناك تركي بعينه من القاهرة في قافلتنا كان قد غادر سنار بأربعة عشر جملاً وفقدها جميعها وأجبر على ترك بضاعته كأمانة عند أحد البرابرة هنا حتى يتمكن من العودة لاحقاً لأخذها في سنة قادمة. وبما أنه لم يكن قادراً على السير راجلاً فقد ابتاع لنفسه حماراً، وقدّم نفسه للخدمة مع تجار الملك حتى يتمكن من توفير ما يَعِينه على مؤونة الطريق.

في الخامس عشر من أكتوبر ١٧٠٢م، جاء عدد قليل من البرابرة مشياً على الأقدام راجلين من القاهرة، و لم يكونوا يلبسون شيئاً غير خرق ممزقة على أجسادهم حتى يتفادوا سلبهم. وكانوا قد شقوا طريقهم عبر أرض الأعداء، مارين بالأراضي المسكونة على النيل متجنبين الإلتفافة الطويلة التي تبلغ نحو مائة ميل ألماني خلال الصحراء. وقد وفّر لهم العَدو الطعام ومكان المبيت في الليل بحسبان أنهم من الفقراء عابري السبيل. وقد جاءوا للقافلة بالأنباء السعيدة السارة، بأن العرب المتمردين قد أخلوا الواح. وقد توصلوا

إلى إتفاق سلام مقبول مع أتراك مصر في مقابل إخلاء عدد من الأماكن المأهولة ومنحها لهم. وبهذه الأنباء بعثت الحياة في القافلة البائسة نصف الميتة وقد قابلوا هذه الأخبار المطمئنة بفرح عظيم. وفي الحال اجتمع كل الجلابة والآخرون من القافلة ماعدا العبيد على ضربات النحاس. وقام عابدين القائد، وتاجر الملك وخبير قافلتنا بمخاطبتهم. وأعلن لهم هذا الخبر المفرح للقلب الباعث للشجاعة، وقد بدأوا الآن في ترديد الشكر والحمد لله ونبيهم بأصوات عالية وصافية، «لا إله إلا الله، محمد رسول الله». وبعد هذا فقد قرروا دخول الصحراء في أقرب وقت. وقد قرروا أن يتم إعداد الجمال بأن يتم سقيها كل يومين، وهذا يجعلها تعتاد تدريجياً على العطش ويجعلها أكثر تحمُّلاً عند عبور الصحراء.

في السابع عشر من أكتوبر ١٧٠٢، قامت كل القافلة بقيادة جمالها إلى النيل الذي لم يكن بعيداً عن معسكرنا، وتركها تشرب حتى تكتفي.

ولأن سكان مملكة دنقلا هذه لم يكونوا يرغبون في رؤيتنا نرحل بهذه السرعة – فقد كانوا يحصلون على مغانم وأرباح كثيرة باستغلالنا فقد أراد حاكم هذا المكان أن يجمع أتاوة جديدة من كل جمل لا يملكه أحد مواطنيه. وقد رفض المصريون والتجار الأجانب الآخرون بشدة وتصميم دفع هذه الأتاوة، ونحن أبدينا القول بأننا سندفع بطيب خاطر إذا كان الآخرون سيدفعون. وهذا الشجار والنقاش بين أطراف المجموعتين أصبح حاداً لدرجة أنه في التاسع عشر من أكتوبر أدى إلى مواجهة دامية.

وجاء الحاكم إلى القافلة على ظهر حصان عربي أصيل. وكان كل ما يلبسه يتكون من قميص متسخ يظهر عليه الدهن ويلف حوله ثوباً طويلاً وواسعاً من نفس النوع. وفي يده يحمل سيفاً عريضاً وطويلاً كسيف الجلّاد. وكان

حرسه الشخصي يتكون من ستة من العبيد المشاة يحملون الحراب في أيديهم، ويتبعه عدد كبير من رعاياه والعرب يحملون الحراب والسيوف.

وقد استفسروا بكل حماقة وكلمات غاضبة إن كنّا سندفع لهم الأتاوة أم لا. وعندها تجمع ،الذين يعنيهم الأمر ماعدانا بسرعة شاهرين سيوفهم وحرابهم ومسدساتهم وبنادقهم. وقد واجهوا الحاكم وتابعيه بأنهم ليسوا مُلزمين بأي قدر، بإعطائه أي شيء لذلك فإنهم سوف يغادرون المكان. وبهذا اعتقدوا أنهم سيبعدونهم بالقوة. واستمرت حربُ الكلام هذه في التصاعد لمدة من الزمن. وفي النهاية قام واحد من الشراكسة التابعين للطبوتشي، والذي لم يعد يتحمل هذا الكلام المهين أكثر من هذا. ولأجل أن يضع حداً لهذا الموضوع استل سيفه ووجّه ضربة قاصمة إلى رأس أحد عبيد الحاكم وشق جمجمته. وأكد هذا أن المعركة لن تبدأ بحربَة من أحد عبيد الحاكم فقد بادرت القافلة بالضربة الأولى، وعندها دخلوا المعركة بصيحة عظيمة وصار كل واحد مستعداً للقتال. وجرت المعركة بغاية من السرعة والحدة، ولذلك عندما انجلت كان هناك أكثر من خمسين من الأشخاص الجرِحى من كل فريق. وعندما رأى الطبوتشي هذا أمر بإسراج حصانه، وكذلك فعل جلابة الملك. وقد دخلوا المعركة باندفاع مدججين حتى أسنانهم بالسلاح حتى وصلوا إلى الحاكم وأمسكه الطبوتشي من قميصه، وشدّه من حصانه وأوقعه على الأرض. وعند هذا الحد توقفت المعركة. و لم يجروؤ البرابرة على مسّ الطبوتشي وأتباعه بأي سوء، لأن الكثير من مواطنيهم في القاهرة سيدفعون حياتهم ثمناً لأي أذى يَمس مثل هذا الشخص النبيل. بالإضافة إلى أن كل من الجانبين قد احدث جراحاً تعود عليهم أنفسهم بالأذى لأن كل واحد من ثلاثة بين البرابرة يمت بصلة القرابة لآخر في القافلة.

خاتمة

لم تعد ذراع ثيودور كرمب المكسورة إلى حالتها الطبيعية. وقد عاد إلى روما بعد مغامرات (عديدة). وقد حُظي بمقابلة البابا؛ ومن الصعب (تخيُّل) مكافأة قد تسعده أكثر من هذا التشريف. وعندما فشلت كل المحاولات لإعادة (يده) للاستعمال، تقاعد من البعثة التبشيرية وعاد إلى وطنه المحبوب ألمانيا. أما الصبيان الأثيوبيون فإنهم استقبلوا استقبال الأبطال في روما، وشرعوا في دراسة علوم اللاهوت المسيحية.

وقامت سلطات الكنيسة بإعادة النظر بعناية في بعثتها التبشيرية لإثيوبيا. وفي النهاية تم إرسال بعثة أخرى. ولكنها انتهت نهاية مؤسفة بموت قائدها بطريقة عنيفة في سنار. وغاصت إثيوبيا فيما سمي عهد القضاة. وأُعفيت لزمن من اهتمام المبشرين الأوربيين المثير للشقاق والانقسام.

واندلع الصدام الوشيك بين السلطان بادي وولاته حكام الأقاليم في سنة ١٧٠٥م وبعد هزائم ونكسات مبدئية استطاع السلطان في النهاية أن يهزم العصبة المتمردة. وبعدها تمتع بفترة حكم تتميز بالسلام والازدهار. ولكن، على كل حال لم توجد حُلُول للقوى التي خلقت أصلاً هذا التمزق. وسوف يأتي وقت الاضطراب والمصاعب في سنار لاحقاً وخلاله جاء الرحّالة جيمس بروس وجون لويس بوركهاردت اللذين أثرا بصورة كبيرة على كل التصورات والرؤية لمملكة الفونج. دعنا نشكر ثيودور كرمب الذي أعطانا لمحة عن فترة سابقة لسودان أكثر إشراقاً وازدهاراً. ليرقُد الجميع في سلام أبدي.

كتاب الخطوة الجديدة رقم الايداع (2018/654)